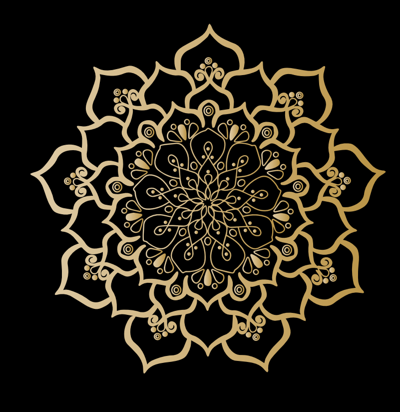
الموسوعة القرآنية

أركان العقيدة في القرآن الكريم



تأليف

عصام الدين عبد الحميد الهنامي



بيانات النشرة

عنوان الكتاب: أركان العقيدة في القرآن الكريم.

المؤلف: عصام الدين عبد الحميد الهنامي.

تاريخ النشرة: ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م.

الإخراج الفني: مركز فائق للخدمات العلمية.



فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة




بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٣٧

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

القرآن كتاب الله الخالد، ومعجزته لرسوله ﷺ التي تحدى بها جميع البشر، بل الإنس والجن، فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله، ولا بأقصر سورة منه.

وهو المعجزة الباقية على مر العصور، كل جيل يأتي يجد فيه منهاجًا لحياته، ويكشف جديدًا من معجزاته، وفي عصرنا هذا عصر العلم والتقدم، والكشف العلمي الذي لا يتوقف لحظة- يقف القرآن شامخًا متحديًا بما فيه من إشارات علمية تواكب العصر، وقيم أخلاقية تصلح لكل زمان ومكان.

وإذا كان القرآن الكريم يهدف إلى غاية واحدة هي الدعوة إلى عبادة الله وحده والإيمان بربوبيته، وقدرته على كل شيء، وإحاطة علمه بكل ما في الكون، ونفاذ إرادته في كل أمر، فإنه استخدم لهذا الغرض وسائل متنوعة منها القصة والجدل المنطقي وعرض مظاهر قدرة الله في الكون بوسائل واضحة ملموسة، إلى غير ذلك من وسائل الإقناع.

والقرآن بعد ذلك يهدف إلى إقامة مجتمع مؤمن يعبد أفراده الله حق عبادته، ويتعاونون على تحقيق الحياة الفاضلة، فوضع لهم أسس هذا المجتمع بما اشتمل عليه من عبادات تطهر النفوس، وتنقى الأفئدة من انحرافات الهوى، وغلبة الشهوات،

إلى تشريعات تبين لهم حدود الله في أهم قضايا المجتمع، إلى أوامر ونواه تضع أسس بنيان أخلاقي متين قادر على صد كل غوايات الشيطان، والوصول بسفينة المجتمع إلى بر الأمان المتمثل في الفوز بسعادة الدنيا والآخرة.

وهكذا تعددت موضوعات القرآن الكريم: فمن تفصيل لأركان العقيدة، وتثبيت لدعائم الإيمان، إلى عرض لقصص الأنبياء، أو لشخصيات وأحداث ترمز إلى معان لها أثرها في توجيه المجتمع، إلى حث على أداء العبادات، وبيان لأهم شعائر، أو تشريع لأهم المعاملات التي يحتاج إليها المجتمع، أو حض على مكارم الأخلاق، ونهي عن رذائلها.

ولطالما راودتني فكرة أن أتناول كل موضوع من هذه الموضوعات على حدة، وأفرد له كتابًا مستقلًا أتتبع فيه آياته الواردة في سور القرآن الكريم، وأشرحها شرحًا موجزًا يوضح معانيها، ويبين مراميها، وكنت أخشى أن يقصر جهدي عن الوفاء بهذا الأمر، ولكني استخرت الله وبدأت العمل وأسأل الله التوفيق والسداد.

وهذا هو الجزء الأول من (الموسوعة القرآنية) وهو الاسم الذي أطلقته على هذا الكتاب، وأرجو ألا أكون قد تجاوزت قدري بهذه التسمية.

وأتناول في هذا الجزء عقيدة المسلم، وما يجب عليه الإيمان به كما أرشد إليه القرآن الكريم فقد قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾[1]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ...... ﴾[2].

فهاتان الآيتان تتضمنان ما يجب على المسلم الإيمان به، فعليه أن يؤمن بالله الواحد المتصف بكل صفات الكمال المطلق، وأن يؤمن بملائكة الله ورسله وكتبه، واليوم

(1) سورة البقرة، الآية (177).

(2) سورة البقرة، الآية (285).

الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء، وجنة ونار.

وقد أضاف الرسول ﷺ إلى هذه الأركان الخمسة ركنًا سادسًا هو الإيمان بالقضاء والقدر، فقد ورد في حديث صحيح رواه مسلم عن عمر (رضي الله عنه) أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ وسأله: عن الإسلام؟ ثم قال: فأخبرني عن الإيمان؟ فقال: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)، فلما انصرف الرجل قال الرسول ﷺ: (أتدري من هذا يا عمر؟ إنه جبريل قد أتاكم يعلمكم دينكم)، وإذا كان القرآن لم يذكر الإيمان بالقدر صراحة فقد وردت آيات كثيرة تتضمنه.

ومنهجي في هذا الكتاب هو الاعتماد الكلي على ما جاء في القرآن الكريم مع الاستعانة أحيانًا ببعض الأحاديث النبوية التي تجلى ما غمض من الآيات أو تفصل المجمل منها.

وأرجو أن أكون قد وفقت في عرض هذا الموضوع، فإن يكن كذلك فهذا من فضل ربي، وإلا فهو جهد المقل، وأسأل الله أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به، وهو نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

عصام الدين عبد الحميد الهنامي

26 من جمادى الأولى 1421هـ

26 من أغسطس 2000م

الله جل جلاله

إن خير ما يصور عقيدة المسلم نحو الذات العلية هو ما ورد في كثير من آيات القرآن الكريم من مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ... ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[5].

---

(1) سورة الإخلاص، الآيات (1-4).

(2) سورة البقرة، الآية (255).

(3) سورة الأنعام، الآيتان (102، 103).

(4) سورة الإسراء، الآية (111).

(5) سورة الفرقان، الآيتان (1، 2).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾[1].

هذه الآيات السابقة وغيرها كثير مما يحفل به القرآن الكريم- وسنذكر الكثير منه في مكانه- توضح بأجلى عبارة ما ينبغي للمسلم أن يؤمن به حينما يؤمن بالله؛ فهو يؤمن بأن الله أحد- لا إله معه-، وأنه الصمد: أي المقصود من كل عباده ليحقق لهم ما يريدون. ولا ينبغي أن يقصد غيره؛ لأن الله هو وحده السيد القادر على إجابة ما يطلبه عباده، وأن يؤمن أن الله لم يلده أحد وليس والدًا لأحد، وأنه لا مكافئ له ولا نظير ولا ند.

وعلى المسلم أن يؤمن أن الله حي لا يموت، وأنه القاسم على كل شئون الكون، وأن كل ما في السموات والأرض ملك له يتصرف فيه كيف يشاء، وأنه خالق كل شيء، وحفيظ على كل شيء، وأنه لا يمكن لبصر أن يراه، أو يحيط به، لكنه هو يدرك الأبصار ويراها وهو اللطيف الخبير.

وكذلك عليه أن يؤمن أن الله ليس له ولد، ولم يتخذ زوجة، وليس له شريك في ملكه، وليس له حام أو نصير، لأنه العزيز الذي لا يذل.

(1) سورة الجن، الآية (3).

الله موجود

هذه الحقيقة لا يمكن أن ينكرها إلا من طمس الله على قلبه، وعميت بصيرته عن رؤية الشمس الساطعة في رائعة النهار. وقد قرر ﴿ ٱللَّهُ ﴾ جل جلاله في عدة آيات أن المشركين يؤمنون بوجود الله، وأنهم لو سئلوا عمن خلقهم، ومن خلق السموات والأرض وسائر المخلوقات لما وسعهم الإنكار، ولأقروا بأن الله هو الخالق. ففي سورة العنكبوت يقول تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ الآية (61)، ثم يقول في نفس السورة: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ الآية (63).

ويقول في سورة لقمان (عليه السلام): ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ويقول في سورة الزمر: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ..... ﴾ الآية (38).

وفي سورة الزخرف يقول تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الآية (9)، ويلفت النظر في هذه الآية أن جوابهم عن الخالق لم يرد فيه ذكر الله وإنما ذكروا صفتين من صفاته هما: العزة والعلم. فهل هذا ما أجاب به المشركون؟ يقول المفسرون: إن جوابهم كان كسائر أجوبتهم السابقة وهو ﴿ ٱللَّهُ ﴾، ولكن الله ذكر بدلًا من لفظ ﴿ ٱللَّهُ ﴾ صفتين من صفاته هما: العزة والعلم، لأن الذي خلق مثل هذه الكائنات العظيمة وما ذكر بعدها في الآيات التالية لابد أن

يكون ذا عزة لا تقهر، وعلم بما يحتاجه عباده.

وأخيرًا يقول الله في نفس السورة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ الآية (87).

وقد أوضح الله في القرآن أن الإيمان بالله مركوز في طبيعة البشر، والفطرة السوية التي خلق الله الناس عليها. فقد ذكر في سورة الأعراف أنه أخرج من أصلاب بنى آدم ذرياتهم وهم في عالم الذر، وركب فيهم عقولًا، ونصب لهم دلائل على ربوبيته. ثم سألهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ فأقروا بذلك وشهدوا بأنه ربهم. فأوضح الله لهم أنه فعل ذلك لكي لا يكون لأحد من بنى آدم حجة على الله، فيقولون يوم القيامة: لقد غفلنا عن هذا ولم ينبهنا أحد إليه، أو يدعوا أن آباءهم كانوا مشركين فقلدوهم، فلا ذنب لهم في ذلك.

يقول تعالى:﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ الآيتان (172، 173).

ويتجلى هذا الشعور الفطري عندما تصيب الإنسان محنة، أو يقع في بلية فلا يجد أمامه إلا الله يرفع إليه أكف الضراعة أن ينقذه مما هو فيه ويعاهده أن يقر بربوبيته ولا يشرك به أحدًا، ولكن عندما يذهب عنه الضر ينسى كل ذلك ويعود إلى ما كان عليه من انحراف عن الفطرة السوية.

وقد وردت آيات عدة في القرآن تعبر عن هذا المعنى:

ففي سورة يونس (عليه السلام) يقول الله تعالى:﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ...﴾ الآية (12).

وفي سورة الإسراء يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ الآية (67).

وفي سورة الروم: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ الآية (33).

وفي سورة الزمر: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ...﴾ الآية (8).

ومن الناس من تمادى في كفره، فلم يؤمن بوجود الله، وزعم أن الدهر هو الذي يحييهم ويميتهم وهم من يطلق عليهم اسم (الدهريين)، وقد ذكرهم القرآن في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية، الآية 24).

الأدلة القرآنية على وجود الله

استخدم القرآن- في تأكيد وجود الله- برهان الخلق؛ فهذه المخلوقات الكثيرة المتنوعة لا بد لها من خالق. والخالق لا يمكن أن يكون من جنس المخلوق، بل لا بد أن يكون متصفًا بصفات الكمال المطلق. وقد تعددت مظاهر الخلق التي لفت القرآن نظر الناس إليها ليتفكروا في أمر خلقها، وفي ضخامة حجمها أو دقتها، وحسن نظامها، وتنوعها العجيب مع أن مصدرها واحد. وسور القرآن- ولا سيما المكية منها- حافلة بهذه المعاني، وسأتناول بعضها كنموذج لهذا البرهان.

وأول هذه المخلوقات التي لفت القرآن انتباه الناس إليها هو خلقهم أنفسهم. ففي أول سورة نزلت من القرآن الكريم- وهي سورة العلق- أمر الله رسول ﷺ أن يقرأ باسم ربه الذي خلق كل شيء، ثم خص مما خلقه الإنسان، فذكر أنه خلقه من (علق) وهو الدم الغليظ الذي تحول المني إليه بعد امتزاجه ببويضة الأنثى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ الآيتان (1، 2)

ثم طلب الله من الناس- في سورة الطور- الإجابة على هذه الأسئلة: هل خلقوا من غير خالق؟ لا يمكن أن يضل تفكيرهم إلى هذا الحد من الضلال، فلا يمكن أن يخلق مخلوق من غير خالق، فإذا كانت الإجابة بالنفي، فمن خلقهم؟ هل خلقوا هم أنفسهم؟ لا يمكن لإنسان عاقل أن يدعى هذا. ويترك الله خلق الإنسان لينتقل إلى خلق أكبر وأعظم وهو السموات والأرض، فيسألهم متهكمًا ساخرًا: هل هم الذين خلقوها؟ لم يدعوا هذا قط، فلماذا لا يعبدون الله؟ الحق أنهم لا يؤمنون به، قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[1].

وقريب من هذا ما ورد في سورة الواقعة، فقد لفت الله انتباه الناس إلى ذلك المني الذي ينتج الولد وسألهم: هل هم الذين يخلقون الولد أو أن الله هو الذي يخلقه، ثم ترك لهم أن يجيبوا، ولن يكون جوابهم إلا الإقرار بأنه لا يمكن أن يكونوا هم الخالقين. وإذًا فالله هو الخالق، وأنه يجب عليهم أن يصدقوا هذه الحقيقة: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ الآيات (59-57).

ويدعو الله الإنسان في سورة الطارق إلى أن يتأمل في طريقة خلقه وخلق غيره من البشر؛ فالمني الذي يتدفق من أصلاب الرجال ويستقر في أرحام النساء هو الذي ينشأ عنه هذا الإنسان: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ الآيات (7-5).

وفي سورة (الانفطار) يلوم الله الإنسان على خروجه عن طاعة ربه الكريم غرورًا منه واستكبارًا، ناسيًا أن الله هو الذي خلقه، وسوى خلقه، وعدل شكله، فلم يجعله كسائر الحيوانات يمشي على أربع، بل خلقه منتصبًا مستقيمًا، ونوَّع صور الناس، فلا يتشابه واحد مع الآخر: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ الآيات (8-6).

وفي سورة- (المؤمنون)- بعد أن يذكر الله المادة التي خلق منها آدم، يذكر مراحل تطور الإنسان منذ أن وضع أبوه نطفته في رحم أمه إلى أن يولد: فالمني يستقر في الرحم فيصير نطفة، ثم تتحول إلى علقة، وهي الدم الغليظ المتجمد، ثم تتحول العلقة إلى مضغة: أي قطعة من اللحم تشبه اللحم الممضوغ، ثم تتحول المضغة إلى عظام، ثم يكسو الله هذه العظام لحمًا، ثم ينشئه خلقًا آخر مختلفًا عن أصله الجنيني. فما أعظم هذا الخالق، وما أجدره بالثناء، يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن

(1) سورة الطور، الآيتان (35، 36).

طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ الآيات (12-14).

ويلفت القرآن انتباه الإنسان إلى نعمة عظيمة أنعم الله بها عليه هي نعمة الفكر، والتعبير عن هذا الفكر ببيان جلي واضح، فكان هذا سببًا في وجود المجتمعات المتفاهمة، ونشأة الحضارة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾[1].

كما نبههم إلى اختلاف لغات البشر، هذا الاختلاف الهائل الذي يصل إلى آلاف اللغات في القديم والحديث. وكذلك اختلاف ألوانهم، فهناك الجنس الأبيض، والجنس الأحمر، والجنس الأصفر، والجنس الأسمر، والجنس الأسود، وكلهم من أصل واحد.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾[2].

وإلى جانب الحديث عن الإنسان وما في خلقه وتركيبه من أدلة واضحة على وجود الخالق سبحانه وتعالى يتناول القرآن مظاهر الطبيعة المتعددة والمتنوعة من سماوات وأرضين، وجبال، وأشجار وثمار، وماء وحيوان. فيذكر لهم حقيقة يجهلونها عن السموات والأرض، فقد كانت كلها قطعة واحدة هائلة الضخامة مصمته، ففتقها الله، وفصل السموات عن الأرض، وهذا الماء الذي يحيط بهم لا غنى لكائن حي من إنسان أو حيوان أو نبات عنه، ففيه حياة كل نوع منها، هذه حقيقة يعرفونها، ولكن لشدة إلفهم لها لا يكادون يفكرون فيها، وفي دلالتها على الخالق العظيم، ثم يلفتهم إلى الأرض

(1) سورة الرحمن، الآيات (1-4).

(2) سورة الروم، الآية (22).

الهائلة التي يعيشون عليها، وهذه الجبال الشامخة التي استوت فوقها أنها لم تخلق عبثًا، بل خلقت لتثبيت الأرض، ولولاها لمادت الأرض بهم من كل جانب، ثم جعل الأرض ممهدة صالحة للسير، وجعل فيها طرقًا يسيرون فيها، ويبلغون ما يريدون من أماكن، فلم يجعلها كلها جبالًا متصلة فيعجز الناس عن السير فيها.

وتعود الآيات إلى السماء فتذكر أنها سقف للأرض يحميها من غوائل الفضاء الكوني، والله يحفظها من أن تقع على الأرض. كل هذه دلائل على وجود الله، فلم يعرضون عنها ولا يتفكرون فيها؛ فيؤمنوا بالخالق القادر؟

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۞ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۞ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[1].

وفي آيات أخرى يبين الله أن خلق السماء والأرض أكبر من خلق الناس، ويلفت انتباههم إلى تلك السماء المرفوعة فوقهم كيف بناها الله، وكيف رفعها وسواها، وجعل ليلها مظلمًا ليستريح الناس فيه، والنهار مضيئًا ليسعوا فيه إلى أعمالهم، والأرض جعلها بعد ذلك مبسوطة ممهدة ليسيروا فيها ويسعوا في جوانبها، وفجر فيها أنهارًا فيها حياة نفوسهم وأنعامهم، وأنبت فيها الزرع الذي ترعى فيه أنعامهم، ويأكل منه البشر، كما أرسى فيها الجبال لتثبتها، وتكون بمثابة الأثقال لها.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۞ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۞ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۞ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾[2].

ويدعو في سورة (الغاشية) إلى التأمل في خلق الإبل، ورفع السماء ونصب الجبال

---

(1) سورة الأنبياء، الآيات (30-32).

(2) سورة النازعات، الآيات (27-33).

فيقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ الآيات (17-19).

ويدفعهم إلى التأمل في السماء التي تتكون من سبع طبقات بعضها فوق بعض، فينظروا إليها ويدققوا النظر فيها ليتأكدوا أن خلق الرحمن متساو لا تفاوت فيها ولا تباين. ومهما كرروا النظر في السموات فلن يجدوا فيها صدعًا ولا شقًّا ويرجع بصرهم إليهم متعبًا من كثرة النظر، ذليلًا لعجزه عن العثور على أي عيب فيها، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[1].

وفي سورة (ق) يدعوهم مرة أخرى إلى التأمل في السماء والأرض، فهم قد نظروا كثيرًا إلى السماء. أفلم يهتدوا إلى أن هذا البناء الضخم الرائع الذي لا يمكن أن يرفع هكذا بغير عمد، وأن يتم على أحسن وجه، فليس فيه شقوق تعيبه، لابد أن يكون له خالق عظيم أنشأه، وأمسكه هكذا كي لا يقع على الأرض. وأما الأرض فهي أمامهم ممدودة، تثبتها الجبال، وتنبت الزروع والثمار المبهجة. إن التأمل في هذه الأمور يبصر الإنسان صاحب الفطرة السليمة الذي يرجع إلى الحق متى اتضح له- إلى أن للكون خالقًا هو المستحق العبادة والتمجيد.

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ الآيات (6-8).

وفي سورة (الرعد) يعرض أمام عيونهم مظاهر الطبيعة التي يبصرونها كل يوم ويرون نتائجها التي تحقق لهم منافعهم. فيخبرهم أنه هو الذي رفع السموات بغير عمد تظهر أمام أعينهم، وسخر لهم الشمس والقمر يستفيدون بهما في مجالات الحياة

(1) سورة الملك، الآيتان (3، 4).

المختلفة، كما أنه مد لهم الأرض ليتخذوا منها طرقًا يسلكونها في سيرهم وجعل فيها الجبال المثبتة لها فهي كالرواسي لها، وجعل فيها أنهارًا يرتوون منها ويسقون مواشيهم وزروعهم، وقد خلق الله من كل أنواع الثمار زوجين: ذكرًا وأنثى ليتم التلاقح بينهما فيتكاثر النبات، وجعل الليل يعقب النهار فيغطيه بظلمة بعدما كان مضيئًا، كل هذه دلائل على وجود الله وقدرته لكل من يتأملها ويتفكر فيها، يقول تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الآيتان (2، 3).

ثم يضيف الله بعد ذلك أمرًا يعرفه الناس جميعًا ولكنهم قد يغفلون عن دلالاته وهو هذا التنوع العجيب في النباتات والثمار، واختلاف طعمها ومذاقها مع أنها في بقاع من الأرض متجاورة ويرويها ماء واحد. إن أي عاقل يرى في ذلك دلائل على وجود الله وقدرته.

يقول تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الآية (4).

ويذكر الله التنوع في مخلوقاته مرة أخرى ولكنه يجعله شاملًا للنبات والجبال والناس والحيوانات. فيذكر في سورة فاطر أنه أنزل المطر فأخرج بسببه ثمارًا مختلفة الألوان، وجعل الجبال متنوعة الألوان في صخورها فمنها البيض، ومنها الحمر، ومنها السود. كذلك جعل الله الناس والأنعام وسائر الحيوان مختلفًا ألوانها، وهذه الحقيقة يدركها العلماء لا الجهال فتدفعهم إلى خشية الله والإيمان به.

يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ

ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ الآيتان (27، 28).

هذه نماذج قليلة مما زخر به القرآن الكريم من آيات تدل على وجود الله وقدرته. وكلها تعرض أمام أعين الناس مظاهر محسوسة تقع عليها أبصارهم أينما اتجهوا. والتأمل فيها يدفع الإنسان السليم الفطرة إلى الإيمان بوجود الله.

الله واحد

وهذه أيضًا حقيقة لا ينكرها إلا من ران الجهل على عقله، وأطفأ بصيرته التقليد الأعمى للأقدمين من الآباء والأجداد. وإذا كان وجود الله لقى قبولًا من الكثرة الكاثرة من الناس، ولم يستطع إنكار ذلك إلا قلة قليلة، فإن الكثرة الكاثرة من البشرية قبل الإسلام كانت تنكر وحدانية الله. وخير ما يصور ذلك ما ذكره القرآن الكريم من تعليق قريش على دعوة الرسول ﷺ لهم إلى عبادة إله واحد حيث قالوا كنص القرآن في سورة (ص): ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۞ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۞ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ الآيات (5-7).

فهم يرون أن من العجب العاجب أن يدعوهم محمد ﷺ إلى عبادة إله واحد بدل آلهتهم المتعددة التي يقدسونها ويجاهدون من أجل بقائها؛ لذلك فقد سعوا إلى تجميع صفوفهم ضد هذه الدعوة، وأن يمشوا بين الناس يدعونهم إلى الصبر على مقاومة هذه الدعوة، فهي دعوة مغرضة. فهم لم يسمعوا بوحدانية الإله في الملة الآخرة، وهي ديانة عيسى (عليه السلام) التي تدين بالتثليث- كما ادعى بعض أتباعها- فما أتى به محمد ﷺ ليس إلا كذبًا.

ومن الأسف أن رفض التوحيد لم يكن مقصورًا على الوثنية، فقد تأثرت به الديانات السماوية من يهودية، ومسيحية كما سنرى.

من أجل هذا كثر في آيات القرآن النص على أن الله واحد، وأنه لا إله إلا هو وتكرر عشرات المرات في سور القرآن الكريم. وسأذكر بعض هذه الآيات:

ففي سورة البقرة: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الآية (163)،

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ...﴾ الآية (255).

وفي سورة آل عمران: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الآية (18).

و﴿ ....وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الآية (62).

وفي سورة النساء: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ....... ﴾ الآية (87).

و﴿ ...إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ... ﴾ الآية (171).

وفي سورة الأنعام: ﴿ .....قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ الآية (19).

وفي سورة الأعراف تكررت دعوة الرسل إلى قومهم يبدءونها بقولها: ﴿ ...يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .. ﴾ الآية (73).

وفي سورة التوبة: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ الآية (129).

وفي سورة النحل: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ.. ﴾ الآية (51).

وفي سورة الكهف: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ.. ﴾ الآية (110).

وفي سورة طه: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ الآية (14).

وفي سورة القصص: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ.. ﴾ الآية (88).

هذه بعض الآيات التي ورد فيها التأكيد على وحدانية الله- عز وجل-، ولم أحاول استقصاءها لكثرتها. وكل هذا يدل على تأصل الشرك في نفوس البشر بعد ما طُمِست رسالات السماء أو شُوِّهت، فأتى هذا الكتاب الخالد المحفوظ بأمر الله ليعيد تجليتها وتوضيحها.

الأدلة القرآنية على وحدانية الله

جادل القرآن المشركين بالمنطق الواضح الذي لا يمكن لأحد أن يجحده، كما جادلهم بالظواهر المحسوسة التي تقع تحت أبصارهم، وتشهد بأن خالق هذه الظواهر كلها لابد أن يكون واحدًا؛ لأن أسلوب الخلق واحد، وسمات المخلوقات منسجمة لا تنافر بينها على كثرتها وغزارتها.

فمن أدلة المنطق الواضح قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۞ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ الآيتان (42، 43). فهذا دليل إذا تأمله متأمل عرف قوته وصدق حجيته. فلو كان هناك آلهة مع الله ما كانوا صبروا على تفرده بالحكم والسلطان، بل حاولوا سلوك كل سبيل لمقاتلته، وزحزحته عن سلطانه، ليستولوا عليه كما يحدث مع ملوك الدنيا في كل العصور التاريخية. فهل سمع أحد أن معركة وقعت بين هذه الآلهة المزعومة وبين الله سبحانه وتعالى عن ذلك الإفك علوا كبيرًا؟ إن الإغريق الأقدمين عندما تخيلوا وجود آلهة متعددة لم يتخيلوهم إلا متنازعين متقاتلين يحاول كل منهم سلب سلطان الآخر وأساطيرهم وآدابهم الباقية حتى اليوم حافلة بمثل هذه المنازعات، وما أكثر ما دبر بعض الآلهة لبعض من مؤامرات مضحكة.

ودليل ثان في قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[1]. فالله يقرر أن وجود إلهين يؤدي إلى فساد الكون، ولكن الثابت والمؤكد أن الكون منتظم فدل هذا على وجود إله واحد لا شريك له. ولكن كيف يفسد الكون

---

(1) سورة الأنبياء، الآية (22).

بوجود إلهين؟ يقول أصحاب المنطق: إنه لو افترض وجود أكثر من إله فلا يمكن أن يتفقا في فعل الشيء نفسه في جميع الأحوال وإلا كانا إلهًا واحدًا، وإذا اعتزم أحدهما فعل شيء، ورفض الآخر فعله، فإما أن تنفذ إرادة كليهما ويؤدى هذا إلى التناقض وهو وجود الشيء وعدمه في نفس الوقت وهو مستحيل، وإما أن تنفذ إرادة أحدهما، فيكون الآخر عاجزًا وتنتفى عنه صفة الألوهية، فدل هذا على وجود إله واحد.

ودليل ثالث ورد في قوله تعالى في سورة (المؤمنون): ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾الآية (91).

فهذا الدليل يثبت وحدانية الله؛ لأن تعدد الآلهة يعني أن كل إله يخلق كائنات خاصة به، فأحدهم يخلق السموات، وآخر يخلق الأرض، وثالث يخلق الإنسان، وهكذا. وفي هذه الحالة يحاول كل إله أن يستقل بمخلوقاته ويحول دون تكاملها مع الكائنات الأخرى. كذلك يحاول كل إله أن يتفرد بالسلطان، ويستولى على ممتلكات الآخرين كما يحدث مع ملوك الدنيا، وفي كلا الحالين تدب الفوضى في الكون، وينفرط عقده، ولكننا نرى غير ذلك، فالكون يقوم على نظام دقيق لا يعتريه أي خلل، فدل هذا على وجود إله واحد.

لكن القرآن لا يكثر من هذه الأدلة المنطقية التي تحتاج إلى عقول فلسفية، بل يميل إلى المحسوسات، فيلفت، الناس إلى مخلوقات الله المتنوعة التي لا يمكن أن تصدر إلا عن إله واحد، فيعرض عليهم مظاهر متنوعة من الكون، ثم يسألهم بعد ذكر كل مظهر: هل يمكن أن يحدث هذا إذا كان مع الله إله آخر؟ فهو ينبههم إلى خلق السموات والأرض هذه المخلوقات العظيمة التي يحار فيها المتأمل، وإلى المطر الذي ينزل من السماء فتنبت به حدائق متنوعة الزروع، والثمار ذات منظر بهيج يملأ نفس الرائي عجبًا وإعجابًا، وما كان للإنسان مهما بلغت قوته أن ينبت شجرها دون

هذا الماء الذي أنزله الله له من السماء، فهل بعد هذا يقول عاقل: إن مع الله إلهًا آخر؟ ومن يقل ذلك فقد انحرف عن الحق، يقول تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[1].

هذه الأرض الهائلة الحجم من جعلها مستقرة لا تميد بأهلها؟ ومن أجرى الأنهار فيها، وثبتها بالجبال الرواسي؟ ومن جعل بين المياه العذبة في الأنهار، والمياه الملحة في البحار حاجزًا يمنع من أن يتحول العذب إلى ملح فيعجز الناس عن الانتفاع به؟ إنه الله. فهل يمكن أن يفعل ذلك من معه إله آخر؟ يقول تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

ثم يلفتهم الله إلى أمر تحسه نفوسهم، وتجيش به مشاعرهم، وذلك حين يصيبهم البلاء، وتتوالى عليهم المحن، وتعجز وسائل البشر عن كشف السوء عنهم فيلجأون إلى الله رافعين إليه أكف الضراعة، قد نسوا آلهتهم التي يعبدونها من دون الله، فيلطف الله ويستجيب دعاءهم، ويكشف عنهم ضرهم، ثم يذكرهم بمنة أخرى هي أنه جعلهم خلفاء في الأرض يتوارثونها جيلًا بعد جيل، فهل من يفعل ذلك يكون معه إله؟ ولكنهم لا يتذكرون ذلك إلا عند الشدة، يقول تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[3].

ومن الذي يهديهم في سيرهم برًا أو بحرًا إذا أدلهمت ظلمات الليل؟ لقد جعل لهم النجوم علامات يهتدون بها في سيرهم. ومن الذي يرسل الرياح التي تثير السحب

---

(1) سورة النمل، الآية (60).

(2) سورة النمل، الآية (61).

(3) سورة النمل، الآية (62).

فتنزل الأمطار التي فيها رحمة لهم؟ هل يمكن أن يحدث هذا إذا كان مع الله إله آخر؟ سبحان الله وتعالى عما يجعلون معه من شركاء، يقول تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

وأخيرًا يذكرهم ببدء خلقهم. فمن الذي بدأ خلقهم إنه الله، وهذا أمر يدركونه جميعًا، ولا يمكن لأحد منهم أن يشك فيه مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ....﴾[2]، وإذا كان الله يميتهم فإنه يبعثهم مرة أخرى للحساب والجزاء، وليس من حقهم أن يشكوا في ذلك؛ لأن الذي يبدأ الخلق يسهل عليه أن يعيده، كما يذكرهم بالرزق الذي ينزل عليهم من السماء في صورة المطر، ومن الأرض في صورة الزروع والثمار التي تنبت بسبب المطر، والحيوان الذي يركبونه ويأكلون لحمه، ويتخذون أوباره وأشعاره ثيابًا وأثاثًا، وهو يرتوي من المطر. من الذي أرسل إليهم هذا الرزق؟ إنه الله، فإن أنكروا ذلك فعليهم أن يقدموا البرهان الذي يستندون إليه في تكذيبهم إن كانوا صادقين في هذا الإنكار، وليس مجرد علة يبررون بها اتخاذهم آلهة أخرى، يقول تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3].

هذه الآيات وكثير غيرها- من الآيات التي تبرز مظاهر الخلق المعجز في الكون- أدلة ملموسة محسوسة على وحدانية الله.

وهناك دليل آخر على وحدانية الله ذكره القرآن الكريم يتمثل في عجز هذه الآلهة التي أشركوها مع الله. وقد تكرر هذا المعنى كثيرًا في القرآن الكريم في صورة خطاب

---

(1) سورة النمل، الآية (63).

(2) سورة الزخرف، الآية (87).

(3) سورة النمل، الآية (64).

مباشر للمشركين المعاصرين للرسول ﷺ، أو حكاية عن خطاب رسل سابقين لأممهم.

ففي سورة الأعراف ينعى الله على الكفار أنهم يشركون به ما يعجز عن خلق أي شيء، بل هو نفسه مخلوق، ولا يستطيعون نصر عابديهم إذا احتاجوا إلى نصرهم، بل لا تستطيع الآلهة نصر أنفسها إذا تعرضت لسوء، وإذا أرادوا دعاءها لأمر فيه خيرها ورشادها عجزت عن أن تتبع هذا الدعاء لأنها لا تسمع، ويستوى لديها أن يتحدث أتباعها إليها أو يصمتوا، يقول تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۞ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾ الآيات (193-191).

ثم ذكر لهم أن هذه الآلهة التي عبدوها من دون الله ليست إلا عبادًا مثلهم أو أقل منهم. ويؤكد لهم ذلك بدليل عملي فيطلب منهم أن يدعوا هذه الآلهة ويطلبوا منها أي شيء، ولينظروا هل ستستجيب دعاءهم؟ كلا، فهي آلهة عاجزة لا تملك وسائل الحياة والحركة. فليس لهم أرجل يمشون بها، ولا أيد يستخدمونها لإلحاق الأذى بأعدائهم، ولا أعين يرون بها، ولا آذان يسمعون بها، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ الآيتان (194، 195).

وفي سورة الفرقان يستنكر الله اتخاذ المشركين آلهة دونه مع أنهم لا يستطيعون خلق أي شيء، بل هم مخلوقون، ولا يستطيعون رفع الضر عن أنفسهم، ولا جلب النفع وليس في مقدورهم إماتة أحد، ولا إحياء أحد، ولا بعث أحد بعد موته، يقول تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ الآية (3).

ويروى لنا القرآن الكريم قصة تثير السخرية والاشمئزاز من هؤلاء الوثنيين وتفكيرهم. فقد ضاق رسول الله إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) بأبيه وقومه لإصرارهم على عبادة هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، وأراد أن يقنعهم ببطلان هذه العبادة بطريقة عملية. فلما خرجوا لحفل لهم دخل على هذه الأصنام فكسرها وجعلها قطعًا صغيرة، ولكنه ترك الصنم الأكبر، ووضع على عنقه الفأس التي كسر بها الأصنام، فعندما عادوا وعرفوا أن إبراهيم كان يذكر أصنامهم بشر سألوه عمن فعل هذا بآلهتهم؟ وهل هو الذي كسرهم؟ أجابهم ساخرًا: لقد فعل ذلك صنمهم الأكبر فاسألوهم إن استطاعوا نطقًا، ففكروا مليًّا، ثم قالوا في استخذاء: لقد علمت أنهم لا يستطيعون النطق، فانتهز إبراهيم الفرصة وقال لهم: فهل تعبدون من دون الله ما لا يملك لكن ضرًّا ولا نفعًا؟ ما أشد ضيقي بكم وبما تعبدون، يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۞ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۞ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۞ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۞ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۞ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۞ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۞ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۞ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۞ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۞ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۞ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1].

وفي سورة الصافات يسألهم هذا السؤال المملوء بالسخرية والاستنكار:

(1) سورة الأنبياء، الآيات (51-67).

﴿..... أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(95، 96)، ويذكرني هذا بما قيل عن رجل في الجاهلية أراد أن يصنع صنمًا يتعبد له، فلم يجد مادة يصنع منها الصنم إلا بعض العجوة، فصنع منها الصنم، وبعد فترة أحس بالجوع فأكل إلهه.

وقد استعان القرآن- في بيان ضرورة الوحدانية- بالمثل فضرب للناس عدة أمثلة منها هذا المثل الذي يبين الله فيه عجز الآلهة عن خلق أحقر المخلوقات وهو الذباب، بل أكثر من ذلك؛ إن هذا الذباب لو استلب منهم شيئًا عجزوا عن أن يستردوه منه، فما أضعفهم! وما أضعف آلهتهم! قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[1].

ومثل آخر يبين حماقة هؤلاء المشركين الذين اتخذوا أضعف المخلوقات آلهة يطلبون حمايتها ونصرتها. فما أشبههم بالعنكبوت التي تتخذ بيتها من نسيج من أضعف أنواع الأنسجة، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[2].

ويعقب الله على هذا المثل بأنه يعلم أن هؤلاء المشركين يعبدون آلهة متعددة وهو يعلمها جميعها فهو العزيز الحكيم، ثم يبين أن الأمثال التي يضربها للناس في مثل هذه الآية لا يستفيد بها ويفقهها إلا من لديهم العلم والفهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[3].

---

(1) سورة الحج، الآية (73).

(2) سورة العنكبوت، الآية (41).

(3) سورة العنكبوت، الآيتان (42، 43).

ومثل ثالث يذكر الله فيه مزية الإله الواحد، ومساوئ الآلهة المتعددة، فيشبه ذلك بعبدين أحدهما مملوك كله لسيد واحد، والآخر مملوك لشركاء مختلفين متنازعين، لا يتفق رأي واحد منهم مع الآخر. فأي العبدين يكون مستريح البال، هادئ النفس لا شك أنه الأول، وأما الآخر فإنه دائم التوتر، عصبي المزاج، فهو إذا أرضى سيدًا أغضب الآخر، وهو عرضة دائمًا للعقاب والإهانة من واحد منهم أو أكثر، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

هذه بعض الأدلة التي ساقها القرآن الكريم ليقنع ويفحم عباد هذه الآلهة المزعومة. وقد اقتنع بهذه الأدلة كل من أزال عن عقله ركام التقليد والعادة فآمنوا بالله وحده.

مزاعم المشركين حول الله:

لم يتصور المشركون أن يكون الإله واحدًا، كما لم يتصوروا أن يتقدموا بعبادتهم إليه مباشرة، بل اعتقدوا أن هناك وسائط يتقدمون إليها بالعبادة لتقربهم إلى الله وهي الآلهة، وقد ذكر الله ذلك في قوله تَعَالَىٰ: ﴿....وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ...﴾[2].

وقد زعموا أن الجن شركاء الله في الألوهية، ورد الله عليهم بكلمة واحدة مفحمة وهو أنه خلقهم، فكيف يكونون شركاء لله وهو الذي خلقهم، يقول تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ...﴾[3].

كما يقرر الله على لسان الملائكة أن المشركين كانوا يعبدون الجن في قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ

(1) سورة الزمر، الآية (29).
(2) سورة الزمر، الآية (3).
(3) سورة الأنعام، الآية (100).

وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾[1].

وإذا كان المشركون قد عبدوا الملائكة فقد زعموا أنهم بنات الله، وقد فند القرآن هذا الزعم في آيات كثيرة:

ففي سورة الأنعام ينفى هذا الزعم بدليل منطقي واضح وهو أنه ليس له زوجة ولم يدع المشركون ذلك- فكيف يكون له ولد (الولد يشمل الذكر والأنثى)، يقول تَعَالَىٰ: ﴿ .....أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾الآية (101).

ثم يرد الله على مزاعمهم الفاسدة أن الملائكة بنات الله، بأنه لا يمكن أن يستقيم في العقل أن يختار الله الصنف المكروه في رأيهم وهو البنات ليتخذه ولدًا، فيذكر في سورة النحل أن هؤلاء المشركين يجعلون لله البنات- تنزه الله عن ذلك- ويختارون لأنفسهم ما يحبون، وهم الذكور، بينما إذا بشر أحدهم بولادة أنثى امتلأ حزنًا وغمًّا، ويختفى خجلًا من قومه، ولا يجد أمامه إلا أحد أمرين: إما أن يتركها حية، ولكن ذليلة مهانة، أو يدفنها في التراب، فبئس حكمًا حكمهم: ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ۝ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴾الآيتان (57، 58).

وفي سورة الإسراء يسألهم مستنكرًا: كيف جاز في عقولهم أن يختار لهم الصنف المحبوب وهو الذكور، ويتخذ هو الصنف الذي يكرهونه وهو البنات ممثلات في الملائكة على حد زعمهم!؟ إن مثل هذا القول منكر عظيم: ﴿ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴾ الآية (40).

وفي سورة الصافات يؤكد الله هذا المعنى فيأمر رسوله ﷺأن يسألهم مستنكرًا: هل يكون لله الصنف الذي تكرهونه، ويكون لكم البنون!؟ ويسألهم أيضًا: هل تأكدوا أن الله خلق الملائكة إناثًا وشهدوا ذلك بأعينهم!؟ ألا إنهم أفَّاكون كذابون. ومن إفكهم

---

(1) سورة سبأ، الآيتان (40، 41).

يقولون: إن لله ولدًا وهم كاذبون في قولهم هذا. وأن يسألهم موبخًا إياهم: هل فضل الله البنات على البنين ليختار منهن الولد!؟ فعجبًا لهذا الحكم الذي يدل على نقص عقولهم: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۞ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۞ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۞ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۞ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ الآيات (149 – 154).

وفي سورة الزخرف يؤكد هذا المعنى أيضًا، فيذكر مشاعر الحزن التي تسيطر على الأب حين ينبأ أن زوجه ولدت بنتًا تلك البنت التي نسبوها للرحمن، ويسألهم الله: كيف يختار الأنثى بنتًا له، وهي منذ مولدها تنشأ في الحلية والزينة!؟ فهي تعد لتكون متاعًا للرجل، وهي عاجزة عن أن تبين عن رأيها حينما يكون هناك جدال أو نقاش، ثم يذكر زعمهم أن الملائكة إناث، ويسألهم سؤالًا مفحمًا: هل شهدوا خلقهم، فتأكد لهم أنهم إناث!؟ إن هذه الشهادة الزائفة ستسجل في صفحات سيئاتهم ليحاسبوا عليها يوم القيامة، ثم يرد على تبريرهم عبادة الملائكة باعتبارهم بنات الله بأن عبادتهم هذه بمشيئة الله، ولو شار ألا يعبدوها لما عبدوها، يرد على ذلك بأنهم كاذبون في زعمهم هذا وما لهم بذلك من علم وإنما هم كاذبون، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۞ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ۞ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ الآيات (17-20).

وفي سورة النجم يسألهم الله مستنكرًا: هل يعقل أن يكون لهم الذكور ولله الإناث!؟ إن هذه القسمة لا يمكن أن تكون عادلة: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ الآيتان (21، 22).

ثم يذمهم الله بعد ذلك، فيصفهم بأنهم لا يؤمنون بالبعث والحساب، وأنهم

يجعلون الملائكة إناثًا، وقولهم هذا لا دليل عليه، بل هو محض ظن، والظن لا يفيد علمًا ولا يقينًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ۞ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ الآيتان (27، 28).

ثم يوضح الله العلاقة بين الملائكة وبينه، فهم عباد استحقوا منه الإكرام، وأنهم خاضعون لله، فلا يصدر منهم قول إلا إذا أذن لهم، ويطيعون أمر الله، والله يعلم كل ما عملوا وكل ما سيعملون، وليس لهم حق الشفاعة لأحد إلا لمن رضى الله عنه من عباده، وهم دائمو الإشفاق من خشية الله، وإذا ادعى أحد منهم الألوهية- وحاشا أن يحدث ذلك- فليس له جزاء إلا جهنم، يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۞ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

ولم تقتصر عبادة المشركين على الملائكة، بل كانت لهم آلهة أخرى ذكر الله بعضها وهي اللات، والعزى، ومناة في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[2].

ثم بين الله أن هذه الآلهة ليست إلا مجرد أسماء أطلقها عليها المشركون وليس لها حقيقة، وإنما المشركون لا يتبعون إلا الظن، وما تهواه أنفسهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ﴾[3].

ويحاول المشركون عندما تعجزهم الحيلة، وتفحمهم الحجة، أن يبرروا إشراكهم

---

(1) سورة الأنبياء، الآيات (26-28).

(2) سورة النجم، الآيتان (19، 20).

(3) سورة النجم، الآية (23).

بأنه إرادة الله ومشيئته التي لا يستطيعون عنها حولًا، فيذكر الله قولهم هذا في عدة سور ويرد عليهم:

فيقول في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ الآية (48)، فالله يجبههم بالكذب وأن هذا القول مجرد ظن وكذب. وإذا كان لديهم علم فليأتوا بدليلهم حتى يثبت صدقهم ولن يجدوا دليلًا على قولهم لأنهم كاذبون.

كذلك في سورة النحل يذكر قولهم هذا تبريرًا لعبادتهم غير الله، ويرد عليهم أيضًا بأن من قبلهم فعل هذا على الرغم من دعوة الرسل إياهم إلى عبادة الله الواحد، وأبلغوهم بلاغًا واضحًا هذه الدعوة فأدوا واجبهم بذلك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ الآية (35).

وفي سورة الزخرف تتكرر نفس الحجة، ويرد الله عليهم بأنه لا علم لهم بما يقولون، وإنما هم يكذبون: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ الآية (20).

شرك أهل الكتاب:

وإذا كان للوثنيين عذر في اتخاذ آلهة من دون الله لجهلهم، وعدم نزول كتب سماوية عليهم تبصرهم بالعقيدة الصحيحة- فليس لأهل الكتاب من اليهود والنصارى أدنى عذر في نسبة الولد إلى الله، أو إشراك آلهة أخرى معه، ولكنهم قد فعلوا ذلك مع نزول الكتب الهادية لهم من التوراة والإنجيل وهما كتابان أنزلهما الله يجليان العقيدة الصحيحة للبشر، ويدعوان إلى التوحيد الخالص، وتنزيه الله عن كل النقائص البشرية، والاحتياجات الإنسانية.

فقد حكى القرآن أن اليهود جعلوا لله ولدًا هو عزير.... ويقول المفسرون: إن عزيرًا كان من أنبياء اليهود، وقد مات، ولم يكن في اليهود من يحفظ التوراة غيره، بعد غزو بختنصر لهم، فلما أحياه الله بعد موته بمائة عام أملى عليهم التوراة حفظًا، فعجبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلا لأنه ابن الله.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ... ﴾(1).

وإذا كان هذا القول قد قيل بعد موت موسى (عليه السلام) بمئات السنين- وفي هذا بعض العذر لهم- فقد قالوا قريبًا منه في حياة موسى (عليه السلام)، وقالوه عقب إنجاء الله لهم من فرعون وملئه، فبعد أن عبروا البحر سالمين، وغرق فرعون وقومه، مروا على قوم يعبدون أصنامًا لهم، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم صنمًا إلهًا يعبدونه مثل هؤلاء، فاستشاط موسى غضبًا وقال لهم: إنكم جهلاء، إن عمل هؤلاء المشركين باطل ومصيرهم إلى الهلاك، فهل تريدون مني أن أطلب لكم إلهًا غير الله، وقد اصطفاكم على سائر خلقه، وأنجاكم من فرعون وبطشه، ومن المعاناة التي عشتم فيها حينما كان يذبح فرعون أبناءكم، ويبقى البنات أحياء!؟ قال تعالى:﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۞ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾(2).

سكتوا على مضض ولكنهم انتهزوا أول فرصة سنحت لهم فصنعوا لهم إلهًا، وذلك أن موسى (عليه السلام) غاب عنهم أربعين يومًا ليقابل ربه، ويتلقى عنه التوراة،

---

(1) سورة التوبة، الآية (30).

(2) سورة الأعراف، الآيات (141-138).

فصنع لهم السامري عجلًا من الذهب الذي سرقوه من المصريين قبل رحيلهم عنهم، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى فعبدوه، فلما أخبر الله موسى بما صنع قومه عاد إليهم مغضبًا، وألقى ألواح التوراة من يده، وأخذ يعنف أخاه هارون (عليهما السلام) على ما صنعوا، وهارون يعتذر إليه، ثم أخبره بأصل البلاء وهو السامري، فأحرق موسى العجل ونسفه في البحر نسفًا، وكانت عاقبة السامري أن أصيب بمرض جعله لا يستطيع الاقتراب من أحد.

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ الآية (148)، ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ ... ﴾ الآية (150).

وقال في سورة طه: ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ۞ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾ الآية (87)، ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ۞ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ۞ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ الآيات (95-97).

وقد ذكر الله أن حب عبادة العجل قد خالط قلوب اليهود وامتزج بها: ﴿ ..... وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ .... ﴾[1].

وأما النصارى فقد جعلوا المسيح ابن الله لما رأوه وُلِدَ من غير أب، وقد عقب الله على قولهم هذا، وقول اليهود: إن عزيرًا ابن الله.... بأنها أقوال تلوكها الألسنة ليس لها حجة أو سند أو دليل من العقل أو الواقع، وأنهم يشبهون في أقوالهم هذه الوثنيين

(1) سورة البقرة، الآية (93).

السابقين في ادعائهم أن الملائكة بنات الله، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾[1].

وقد فند الله أقوال النصارى أن المسيح ابن الله، وأنه وأمه شريكان له- وهو ما عرف في ديانتهم بعقيدة التثليث التي تعتبر صلب الديانة المسيحية، ومن لا يؤمن بها يعتبر خارجًا عن المسيحية- في سورتي النساء والمائدة. ففي سورة النساء ينهى النصارى عن المغالاة في دينهم وألا يقولوا على الله إلا الحق، ثم يقرر أن المسيح عيسى ابن مريم ليس إلا رسول، وأنه وُلِدَ بالكلمة التي ألقاها الله إلى مريم ونفخ فيها من روحه. ثم يطلب منهم أن يؤمنوا بالله ورسله، وأن يكفوا عن قولهم: إن الله ثالث ثلاثة فلينتهوا عن هذا القول. فما الله إلا إله واحد، وهو منزه عن أن يكون له ولد. فالسموات والأرض وما فيهما ملكه فهو ليس في حاجة إلى ولد، وإن المسيح نفسه لا يستكبر عن عبادة الله، بل يقر بعبوديته، وخضوعه التام لأمره، وكذلك يفعل الملائكة المقربون، وأما من يستكبر عن عبادة الله ولا يقر بربوبيته، فمصيره إلى الله يوم القيامة فيحكم بين الطائعين والمتمردين، فأما الطائعون فسيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، وأما المستكبرون عن عبادته المتمردون على ربوبيته فلهم العذاب الأليم ولن يجدوا لهم نصيرًا ينصرهم، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ۞ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ۞ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

---

(١) سورة التوبة، الآية (٣٠).

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾الآيات (171- 173).

وفي سورة المائدة يقرر الله في موضعين من السورة كفر الذين جعلوا المسيح ابن مريم إلهًا، ويفند قولهم في الموضع الأول بأن الله في قدرته أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعًا، وأن له ملك السموات والأرض وما بينهما، وأنه يخلق كل شيء يشاءه، وهو قدير على كل شيء، يقول تعالى:﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، الآية (17).

ويفند قولهم في الموضع الثاني بأن المسيح نفسه دعاهم إلى أن يعبدوا الله وحده ربه وربهم، وحذرهم بأن من يشرك بالله فإن مأواه النار ولن يدخل الجنة ولن يجد له نصيرًا لأنه ظالم، وليس للظالمين نصير ينصرهم، يقول تعالى:﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ الآية (72).

ثم يحكم الله بعد ذلك بالكفر على الذين زعموا أن الله ثالث ثلاثة وجعلوا المسيح وأمه إلهين مع الله. ويؤكد أنه ليس مع الله إله غيره فهو إله واحد، ثم يتوعد القائلين بذلك بالعذاب الأليم، ويحثهم على التوبة إلى الله، والرجوع عن هذا القول الباطل، وأن يستغفروه من هذا الإثم العظيم وسيجدون الله غفورًا رحيمًا، ثم يقرر حقيقة المسيح وحقيقة أمه، فهو رسول مثل الرسل السابقين الذين أرسلهم الله إلى أمم قد خلت، وأمه صديقة: أي شديدة الإيمان بربها، عظيمة الصدق في أقوالها وأفعالها، ثم يلفت عُبَّادهما إلى حقيقة لا ينكرها أحد، وهي أنهما كانا يأكلان الطعام، وهو من

الحاجات البشرية التي لا يستغنى عنها البشر، فهل الآلهة تأكل الطعام؟ وإذا تدبر العُبَّاد في مسألة الأكل، وعرفوا ما يئول إليه من فضلات تأكد لهم بشرية المسيح وأمه.

ثم يعجب الله من هؤلاء المنحرفين عن عبادة الله الواحد وانصرافهم عن النظر فيما يعرضها الله عليهم من آيات واضحة على بشرية المسيح وأمه ووحدانية الله، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ الآيات (73-75).

ويعقب الله على هذه العبادة الآثمة بتوبيخهم على أنهم يعبدون ما لا يستطيع أن يضرهم أو ينفعهم إلا بإذن الله، ويبين لهم أن الله هو السميع يسمع دعاءهم ويستجيبه، والعليم الذي يعلم أحوالهم: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الآية (76).

ويقول مؤرخو الأديان: إن الذي أدخل التثليث في المسيحية هو بولس عندما ذهب إلى بيزنطة، ورأى أهلها يعبدون آلهة متعددة، وعرف أنهم لا يمكن أن يقبلوا اعتناق ديانة ليس فيها تعدد فاخترع عقيدة التثليث. وأما الأناجيل الأربعة المعتمدة في المسيحية فليس فيها ذكر عقيدة التثليث صراحة.

وفي آخر سورة المائدة يذكر الله موقفًا من مواقف يوم القيام إذ يسأل الله عيسى (عليه السلام) على رءوس الأشهاد، وعلى مسمع ممن كانوا يعبدون في الدنيا فيقول له: ﴿...ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ....﴾، فيجيب عيسى (عليه السلام) منكرًا منزها الله عن ذلك ومعلنًا أنه لا يمكن أن يكون قد قال شيئًا ليس من حقه أن يقوله. ثم يؤكد النفي بأنه لو كان قال هذا لكان الله قد علمه، لأنه يعلم ما في

نفسه لأنه بشر مخلوق لله، ولكنه لا يعلم هو ما في نفس الله، لأنه لا يحيط بعلمه أحد، وأن الله علام الغيوب: ﴿...قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾الآية (116).

ثم يؤكد أنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به وهو أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده ربه وربهم، وكان شاهدًا على استجابة المؤمنين لدعوته، وتوحيدهم الله، ولكن بعد انتهاء رسالته على الأرض لم يعد يعرف عنهم شيئًا، وكان الله هو الرقيب عليهم، لأنه شهيد على كل شيء: ﴿ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾الآية (117).

ولما كان تأليه النصارى للمسيح نشأ عن ولادته من غير أب، وعما أتى به من معجزات من مثل إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، بيَّن الله لهم أن ولادة عيسى (عليه السلام) من غير أب ليست مستغربة؛ لأن الله قد خلق من قبله آدم (عليه السلام) من غير أب ولا أم: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1].

وأما مسألة المعجزات فقد أيده الله بها ليصدق قومه أنه رسول من عند الله كما فعل مع الرسل السابقين. وقد أعلن عيسى لقومه أن الله هو الذي أجرى هذه المعجزات على يديه، وأنها تحدث بإذنه، وأنه آية على رسالته إليهم من الله، يقول تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۞ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[2].

---

(1) سورة آل عمران، الآية (59).

(2) سورة آل عمران، الآية (49).

ويتكرر هذا المعنى في سورة المائدة على لسان الله سبحانه يوم القيامة إذ يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ الآية (110).

وقد أمر الله رسوله أن يدعو النصارى المعاصرين له إلى عبادة الله وحده وعدم اتخاذ بشر منهم آلهة من دون الله، فإن أعرضوا عن هذه الدعوة فليعلن لهم أنه هو وأتباعه أسلموا وجوههم إلى الله، وآمنوا بأنه لا إله إلا هو.

وفي سورة مريم، بعد أن يذكر الله قصة ولادة عيسى المعجزة، وإعلان عيسى في المهد للناس أنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبيًّا، يعقب الله على ذلك بأن هذه هي حقيقة عيسى، وأنه لا ينبغي لجلال الله أن يتخذ ولدًا، سبحانه، فهو منزه عن كل نقص بشري، وإذا كان قد خلق عيسى (عليه السلام) من غير أب فهذا أمره، وإذا قضى أمرًا يتم بكلمة واحدة منه هي ﴿كُن﴾، ويعلن عيسى للناس أن الله ربه وربهم ويدعوهم إلى عبادته وحده: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ الآيات (34، 35، 36).

وإذا كان الإنسان العاقل المميز قد اجترأ على الله فادعى أن له ابنًا فإن الكائنات الجامدة من السموات والأرض والجبال ارتاعت لهذا الافتراء، وكادت السموات أن تتشقق، والأرض أن تتصدع والجبال أن تتفتت وما ذلك إلا لأنها مخلوقة على الفطرة الإلهية، ولا يمكن أن تحيد عنها، فهي دائمة التسبيح لله كما جاء في قوله تعالى:

﴿... وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ...﴾[1].

وقد رفضت التكاليف التي عرضها الله عليها- وهي الأمانة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[2]، فقد أدركت أن حمل التكاليف، يعني المسئولية وحرية الاختيار، وهذا قد يؤدي إلى الانحراف عن الجادة، وهذا ما حدث مع الإنسان بسبب ظلمه وجهله. يقول تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا[3] * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾[4].

حتى الجن استنكرت الطوائف المؤمنة منهم اجتراء السفهاء منهم أن يتجاوزوا الحد فيدعوا أن لله زوجة وولدًا، وأعلنوا أن الله منزه عن ذلك، وأنهم لن يشركوا أحدًا مع الله في ربوبيته، يقول تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾[5].

ثم يعبر الجن عن خيبة أملهم في بعض جنسهم من الجن، وفي الإنس، فلم يكونوا يظنون أن تبلغ بهم الجرأة حد الكذب على الله: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾[6].

***

(1) سورة الإسراء، الآية (44).

(2) سورة الأحزاب، الآية (72).

(3) منكرًا عظيمًا.

(4) سورة مريم، الآيات (88-93).

(5) سورة الجن، (1-4).

(6) سورة الجن، الآية (5).

أسماء الله الحسنى[1]

لله تسعة وتسعون اسمًا سمى الله بها نفسه من أحصاها دخل الجنة- كما قال الرسول ﷺ وقد وصف الله هذه الأسماء في القرآن الكريم بأنها أحسن الأسماء، فقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[الأعراف: 180]

فالله سبحانه يقرر أن له الأسماء الحسنى- والحسنى: اسم تفضيل مؤنث الأحسن، واسم التفضيل يفيد أن الصفة بلغت حد الكمال في الموصوف-، ثم يدعو المؤمنين أن ينادوه بها، وألا يتبعوا طريق المائلين عن الحق الذين حرفوا أسماءه وأطلقوها على آلهتهم، فحرفوا من ﴿ ٱللَّهَ ﴾اللات، ومن ﴿العزيز﴾العزى، ومن ﴿المنان﴾مناة. فهؤلاء سيجزيهم الله على سوء أعمالهم.

ويقول تعالى في سورة الإسراء: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ....﴾الآية (110).

ويقول تعالى في سورة الحشر: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ....﴾الآية (24).

فعلى المسلم أن يؤمن باتصاف الله بهذه الصفات التي وصف الله بها نفسه، وسأعرض لهذه الأسماء فأذكر نبذة عن كل اسم وأستشهد عليه ببعض ما ورد في القرآن الكريم، وقبل أن أبدأ هذا العرض أود أن أسجل بعض الملاحظات:

(1) رجعت في شرح هذه الأسماء إلى كتاب (المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى) لأبي حامد الغزالي.

1- المراد بهذه الأسماء صفات يتصف الله بها، ولا تعنى- أبدًا- تعدد ذاته، بل هي صفات لا تنفصل عن الذات، ومثل ذلك أن نقول عن شخص ما: الكاتب الشاعر الرسام، لأنه يجيد الكتابة والشعر والرسم، ولا يعني هذا أنه ثلاثة أشخاص.

2- قد يشترك بعض البشر في بعض الصفات التي يوصف بها الله فيقال: فلان كريم، وفلان حليم، وفلان جبار، ولكن شتان ما بين مدلول الصفة في الإنسان، ومدلولها في الله سبحانه وتعالى. فهذه الصفات في جانب الله تبلغ حد الكمال الإلهي الذي لا يطاوله كمال. وأما في جانب البشر فلا تعني أكثر من وجود سمات بشرية من هذه الصفة فيه، وقد يوضح هذا ما ورد في الحديث الشريف الذي يقول: (جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه)[1].

3- هذه الأسماء التسعة والتسعون قد ورد بها الحديث الشريف المتقدم، ولكن هناك أسماء أخرى جاءت في القرآن الكريم لم يتضمنها الحديث، فلا تعتبر من أسماء الله الحسنى ولكنها من صفاته دون شك، مثل: (الغافر- القاهر- القدير).

الله: وهو الاسم العلم على الذات الإلهية، وهو أعظم الأسماء كلها، لأنه الاسم الذي يدل على الذات الجامعة لكل صفات الألوهية، بينما سائر الأسماء تدل على صفة واحدة من صفاتها، ولأن هذا الاسم خاص بالذات الإلهية، فلا يطلق على أي فرد آخر لا حقيقة ولا مجازًا، وسائر الأسماء يمكن أن يسمى بها غيره كالقادر، والعليم، والكريم. وقد تكرر لفظ ﴿ٱللَّهَ ﴾ في القرآن آلاف المرات.

الرحمن الرحيم: وهما صفتان مشتقتان من الرحمة. وقد روعي في كل منهما معنى لم يراع في الآخر، فـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَ ﴾ بمعنى عظيم الرحمة، فهو مبالغة في كثرة الرحمة

(1) رواه البخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه في كتاب الأدب.

وعظمتها، ولكنه لا يدل على دوامها، لكن ﴿الرحيم﴾، يفيد دوام الرحمة فكأن معنى الصفتين العظيم الرحمة الدائمة «الرحمن» أخص بالله من «الرحيم» ولذلك لا يسمى به غير الله، فهو من هذا الوجه قريب من اسم الله الجاري مجرى العلم. وقد ورد في آيات القرآن الكريم علمًا على الذات العلية، لا يختلف في ذلك عن لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ وسأورد بعض هذه الآيات المتضمنة ذلك:

ففي سورة الإسراء يقول تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ...﴾ الآية (110)، فهما إذًا سيان.

وفي سورة مريم ورد لفظ ﴿ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ علمًا على الله سبحانه ست عشرة مرة منها هذه: ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ الآية (18)، ﴿...فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ الآية (26)، ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا﴾ الآية (88)، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ الآية (96)[1].

وفي سورة طه: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ الآية (5)، ﴿.... وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ الآية (90)، ﴿...وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ...﴾ الآية (108).

وفي سورة الأنبياء: ﴿...أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ الآية (36).

وفي سورة الفرقان: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ الآية (26)... إلى آيات كثيرة أخرى ورد فيها ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ علمًا على الله سبحانه، ولم يرد صفة ﴿ٱللَّهَ﴾ إلا في البسملة، وفي آيتين اثنتين هما: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ

---

(1) وانظر الآيات: (44، 45، 58، 61، 69، 75، 78، 85، 87، 91، 92، 93).

ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1]، ﴿...عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[2]، بينما وردت علمًا على الله سبحانه أكثر من خمسين مرة.

وأما ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴾فهي تأتي صفة لله سبحانه، وكثيرًا ما تأتي تابعة لصفة أخرى من صفات الله، وأكثر هذه الصفات تكرارًا مع ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴾هي صفة ﴿ٱلْغَفُورُ ﴾التي ذكرت قبلها أكثر من خمسين مرة في القرآن الكريم. ووردت بعدها مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾[3]، كما جاءت تابعة لصفات أخرى، ولكنها ليست بهذه الكثرة وهي: ﴿التواب، والرءوف، والعزيز، والبر، والرحمن ﴾.

الملك: وهو الذي يستغنى في ذاته وصفاته عن كل موجود ويحتاج إليه كل موجود في كل شيء متصل بذاته وصفاته وبقائه. وقد وردت هذه الصفة في القرآن الكريم في عدة آيات:

ففي سورة طه قوله تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ... ﴾الآية (114).

وفي سورة المؤمنون: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾الآية (116).

وفي سورة الحشر: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ... ﴾الآية (23).

وفي سورة الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ... ﴾الآية (1).

وفي سورة الناس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾الآيتان (1، 2).

---

(1) سورة البقرة، الآية (163).

(2) سورة الحشر، الآية (22).

(3) سورة سبأ، الآية (2).

وقد جاءت بصيغة المبالغة في سورة القمر: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ الآية (55).

وجاءت على صيغة ﴿ مَٰلِكِ ﴾ في سورة الفاتحة: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ الآية (4).

وجاء المصدر منها وهو ﴿ مَٰلِكِ ﴾ في سور عدة كلها تذكر أن الملك لله وحده.

القدوس: وهو المنزه عن كل وصف يدركه الحس، أو يتصوره الخيال، أو يسبق إليه الوهم. وقد وردت في القرآن الكريم بعد صفة الملك كما في الآيتين السابق ذكرهما ولم ترد في غيرهما.

السلام: وهو الذي تسلم ذاته عن العيب، وصفاته عن النقص، وأفعاله عن الشر. وقد وردت في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ... ﴾ الآية (23).

المؤمن: وهو الذي يعزى إليه الأمن والأمان بإفادته أسبابه، وسد طرق المخاوف جميعها متى شاء. ولا يستفاد أمن مطلق لأي كائن في الوجود إلا من جهته سبحانه، وقد وردت هذه الصفة مرة واحدة في القرآن الكريم في آية الحشر السابقة.

المهيمن: أي المسيطر على شئون خلقه، القائم على أعمالهم، وأرزاقهم، وآجالهم، وقد وردت أيضًا في القرآن الكريم مرة واحدة في نفس الآية السابقة.

العزيز: وهو الخطير الذي يقل وجود مثله وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه فلا بد أن تجتمع هذه المعاني الثلاثة في الشيء ليكون عزيزًا، والله سبحانه وتعالى- وله المثل الأعلى- اجتمعت فيه هذه المعاني الثلاثة بشرط أن نغير بعض الكلمات في التعريف السابق فنضع (ينعدم) بدل (يقل)، ويستحيل بدل (يصعب). وقد وردت هذه الصفة عشرات المرات في القرآن الكريم وتأتي متبوعة بصفات أخرى مثل: ﴿ الرحيم، والحكيم، والغفور، والعليم ﴾، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ

وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

الجبار: وهو الذي تنفذ مشيئته على سبيل الإجبار في كل أحد، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد، والذي لا يخرج أحد عن قبضته، وتقصر الأيدي دون حمى حضرته. وقد وردت في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة الحشر في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ ...﴾الآية (23).

المتكبر: وهو الذي يرى الكل حقيرا بالإضافة إليه ولا يرى العظمة والكبرياء إلا في نفسه فينظر إلى الناس نظر الملوك إلى العبيد. وهذه الصفة في جانب الله صفة مدح لأنها تعبر عن حقيقة صادقة، وفي جانب العباد صفة ذم، لأنه ليس في العباد أحد يخلو من نقص، فلا حق لأحد في التكبر. وقد وردت هذه الصفة في القرآن مرة واحدة في الآية السابقة.

الخالق. البارئ. المصور: قد يظن أن هذه الأسماء مترادفة وهي ليست كذلك، فالخالق هو المقدر لما يريد خلقه، فإذا أوجده فهو البارئ، فإذا أعطاه شكله فهو المصور، ونستطيع أن نمثل ذلك ببناء بيت، فالمرحلة الأولى تكون بتقدير متطلبات البناء وهي الخلق، فإذا ما أتم البنَّاء وضع اللبنات، فقد أوجده: أي برأه، فإذا ما تم إعداده للسكنى وأعطى شكله الخاص به فهو التصوير، فالله سبحانه عندما يريد أن يوجد خلقًا فإنه يقدر، ثم يوجد، ثم يصور.

وقد تكررت هذه الصفة ﴿ الخالق﴾في القرآن الكريم عدة مرات، ففي سورة الأنعام: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾الآية (102).

---

(1) سورة المائدة، الآية (38).

وفي سورة الرعد:

﴿ ...قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾الآية (16).

وفي سورة فاطر: ﴿ .... هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ .... ﴾الآية (3).

وفي سورة الزمر: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾الآية (62).

وفي سورة غافر ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ .. ﴾الآية (62).

وفي سورة الحشر: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ... ﴾الآية (24).

كما تكرر الفعل الماضي ﴿ خلق ﴾

عشرات المرات في سور القرآن، وورد الفعل المضارع ﴿ يخلق ﴾عدة مرات، وكذلك المصدر كقوله تعالى:

﴿ ...أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ... ﴾[1].

وأما ﴿ ٱلْبَارِئُ ﴾فقد ذكر ثلاث مرات: مرتين في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

الآية (54)، والثالثة وردت في الآية السابقة من سورة الحشر.

وقد ذكر المضارع في قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[2].

وأما ﴿ المصور ﴾فقد ذكر مرة واحدة في آية سورة الحشر السابقة، ولكن ورد منه الفعل الماضي ثلاث مرات في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا

---

(1) سورة الأعراف، الآية (54).

(2) سورة الحديد، الآية (22).

وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ....﴾[1].

وفي قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ....﴾[3].

وورد الفعل المضارع مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ....﴾[4].

الغفار: وهو الذي يظهر الجميل ويستر القبيح، والذنوب من جملة القبائح، وقد سترها الله في الدنيا فلم يطلع عليها أحدًا، وتجاوز عن عقوبتها في الآخرة، والغفر: هو الستر. وقد ورد اسم {الغفار} في عدة مواضع من القرآن جاء بعضها معرفا بأل بعد اسم ﴿العزيز﴾كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾[ص: 65-66]

وفي بعضها بدون أل: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾[5].

وقد ورد في القرآن الكريم اسم الفاعل من هذه المادة وهو

﴿غَافِرِ﴾كما في قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ....﴾[6]، ولكن لم يعتبر من أسماء الله الحسنى، لأن الحديث الشريف الذي أحصاها لم يتضمنه، وأما

(1) سورة غافر، الآية (64).

(2) سورة التغابن، الآية (3).

(3) سورة الأعراف، الآية (11).

(4) سورة آل عمران، الآية (6).

(5) سورة نوح، الآية (10).

(6) سورة غافر، الآية (3).

الفعل فقد ورد بجميع صوره الماضي، والمضارع، والأمر وأكثرها ورودًا المضارع، ثم الأمر، ثم الماضي.

القهار: وهو الذي يقصم ظهور الجبابرة من أعدائه، فيقهرهم بالإهلاك والإذلال، بل هو الذي لا موجود إلا هو مسخر تحت قهره وقدرته عاجز في قبضته. وقد ورد في بعض الآيات بعد اسم ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ كما في الآية السابقة، وكما في قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[1].

وقد ورد أيضًا اسم الفاعل من هذه المادة في القرآن وهو ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ ....﴾[2]، ولم يعتبر من أسماء الله الحسنى للسبب السابق، ولأن المعنى متضمن في الاسمين ﴿الغفار﴾ و﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ وزيادة، وأما الفعل بأنواعه الثلاثة فلم يرد من هذه المادة في القرآن.

الوهاب: وهو الذي يعطي العطايا الكثيرة لعباده ولا ينتظر عوضًا عنها. وقد ورد في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

في سورة آل عمران: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ الآية (8)، وفي سورة «ص»: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ [ص: 9]

وفي قوله تعالى: ﴿....رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ الآية (35).

كما ورد الفعل بصوره الثلاث: الماضي كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ ....﴾[3].

---

(1) سورة الزمر، الآية (4).

(2) سورة الأنعام، الآية (61).

(3) سورة إبراهيم، الآية (35).

والمضارع مثل: ﴿... يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾(1).

والأمر في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمًا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾(2).

والماضي أكثر ورودًا يليه الأمر، ثم المضارع.

الرزاق: وهو الذي خلق الأرزاق وأوصلها إلى عباده. والأرزاق نوعان: رزق ظاهر محسوس، وهي الأقوات والأطعمة التي تصلح الأبدان، ورزق معنوي باطن، وهو رزق القلوب والعقول من العلوم والمعارف، والمتكفل بهذين النوعين هو الله وحده وإن كان قد جعل لذلك أسبابًا لا يصل الرزق إلى العبد إلا بها.

وقد ورد هذا الاسم مرة واحدة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾(3)، ولكن ورد اسم الفاعل منه عدة مرات كما في قوله تعالى: ﴿...وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾(4)، ولم يذكر في أسماء الله الحسنى الواردة في الحديث الشريف للسبب الذي ذكرته من قبل، كما ورد الفعل من هذه المادة بصورة الثلاث عشرات المرات في سور القرآن وكذلك المصدر.

الفتاح: وهو الذي بعنايته ينفتح كل منغلق، وبهدايته ينكشف كل مشكل، ومن بيده مفاتح الغيب، ومفاتيح الرزق. وقد ورد هذا الاسم في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾(5).

وقد ورد بصيغة اسم الفاعل في بعض سور القرآن الكريم كما في قوله تعالى:

---

(1) سورة الشورى، الآية (49).

(2) سورة الشعراء، الآية (83).

(3) سورة الذاريات، الآية (58).

(4) سورة المائدة، الآية (114).

(5) سورة سبأ، الآية (26).

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾[1]، ولكن لم يعتبر من أسماء الله الحسنى لما ذكرت.

كما ورد منه المضارع، والماضي، والأمر، والمصدر كما في قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾[2]، وقوله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿...رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ ... ﴾[4].

العليم: وهو الكثير العلم، المحيط علمه بكل شيء. وقد تكرر هذا الاسم في القرآن الكريم عشرات المرات وأحيانًا يكون تابعًا لاسم ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴾كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[5].

وأحيانًا يكون متبوعًا له كقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[6]. كما ورد عشرات المرات بعد اسم ﴿ٱلسَّمِيعُ ﴾كقوله تعالى: ﴿...رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[7].

وجاء عدة مرات متبوعًا باسم ﴿الخبير ﴾كقوله تعالى في سورة لقمان: ﴿...وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ الآية (34).

وجاء بعد اسم ﴿الواسع ﴾بضع مرات كما في قوله تعالى: ﴿...فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ

---

(1) سورة الأعراف، الآية (89).

(2) سورة فاطر، الآية (2).

(3) سورة الفتح، الآية (1).

(4) سورة الأعراف، الآية (89).

(5) سورة الأنعام، الآية (83).

(6) سورة البقرة، الآية (32).

(7) سورة البقرة، الآية (127).

وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

وجاء بعد اسم ﴿العزيز﴾في قوله تعالى: ﴿حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[2]، ووردت آيات كثيرة تفيد أن علم الله محيط بكل شيء، ولا يستطيع أحد الإحاطة بعلمه إلا بما يشاء لهم منه كما في سورة البقرة:﴿ ...يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ...﴾الآية (255).

وقوله تعالى: ﴿...لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴾[3].

القابض. الباسط: وهما اسمان متضادان، الأول يعنى القبض بمعنى الأخذ والتضييق، مثل قبض الأرواح من الأجساد، وقبض الرزق عن الفقراء، وقبض البهجة من القلوب فتصبح كئيبة. وأما البسط فهو الإعطاء والتوسعة، فيبسط الرزق لمن يشاء من عباده فيغنيهم، ويبسط قلوب العباد فيشرحها، ولم يرد هذان الاسمان في القرآن الكريم بهذه الصيغة، وإنما جاء المضارع منهما في قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[4]، وورد الماضي من مادة ﴿الباسط﴾مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾[5]، وجاء المضارع عدة مرات كما في الآية السابقة، وفي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ...﴾[6].

الخافض. الرافع: وهما أيضًا اسمان متضادان يفيدان معًا أن كل عز في الدنيا أو ذل

---

(1) سورة البقرة، الآية (115).

(2) سورة غافر، الآيتان (1، 2).

(3) سورة الطلاق، الآية (12).

(4) سورة البقرة، الآية (245).

(5) سورة الشورى، الآية (27).

(6) سورة الرعد، الآية (26).

يصيب الإنسان في جاهه وسلطانه أو في منزلته في الدنيا والآخرة هو من عند الله لأنه هو الذي يخفض من يستحق الخفض إلى مرتبة الإشقاء، ويرفع من يستحق الرفعة إلى منزلة الإسعاد.

ولم يرد اسم ﴿الخافض﴾ في القرآن الكريم ولا فعله منسوبًا إلى الله، ولكن وردت صيغة ﴿الرافع﴾ في قوله تعالى بشأن عيسى (عليه السلام): ﴿... إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ...﴾[1]، ووردت صيغة المبالغة في قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ...﴾[2].

كما جاء الفعل الماضي كما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[3]، والمضارع كما في قوله تعالى: ﴿...نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[4].

المعز. المذل: وهما أيضًا اسمان متضادان، فـ﴿المعز﴾هو الذي يعطي المُلْك والجاه والنفوذ لمن يشاء، و﴿المذل﴾هو الذي يسلب كل هذا عمن يشاء، وهاتان الصفتان لا تكملان كمالًا مطلقًا إلا في الذات العلية كسائر صفات الله سبحانه. ولم يرد الاسمان في القرآن الكريم، ولكن ورد الفعل منهما في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[5].

السميع: وهو الذي لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفى. يسمع حمد الحامدين فيجازيهم، ودعاء الداعين فيستجيب، ويسمع بغير أذن أو أية آلة سمع. وقد ورد هذا

---

(1) سورة آل عمران، الآية (55).

(2) سورة غافر، الآية (15).

(3) سورة مريم، الآية (57).

(4) سورة الأنعام، الآية (83).

(5) سورة آل عمران، الآية (26).

الاسم عشرات المرات في القرآن الكريم مقترنًا بـ ﴿العليم﴾ كما في قوله تعالى: ﴿...رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1]، كما ورد عدة مرات مقترنًا بـ ﴿البصير﴾ كما في قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[2].

وجاء مضافًا إلى الدعاء كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[3]، كما جاء متبوعًا بصفة ﴿قريب﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾[سبأ: 50]، كذلك جاء منه الفعل، الماضي، والمضارع كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ..﴾[4].

البصير: وهو الذي يشاهد ويرى حتى لا يعزب عنه ما تحت الثرى. ويرى بغير عين أو أي آلة إبصار. وقد ورد هذا الاسم أيضًا عشرات المرات في القرآن الكريم ويأتي بعد ﴿السميع﴾ أحيانًا كالآية السابقة، أو يأتي بعده: ﴿بما تعملون أو بما يعملون﴾ أو قبله وذلك كثير كما في قوله تعالى: ﴿...وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[5]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[6].

كما جاء بعده ﴿بالعباد﴾ كما في قوله تعالى: ﴿...وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[7].

---

(1) سورة البقرة، الآية (127).

(2) سورة لقمان، الآية (28).

(3) سورة إبراهيم، الآية (39).

(4) سورة المجادلة، الآية (1).

(5) سورة الحديد، الآية (4).

(6) سورة الحجرات، الآية (18).

(7) سورة غافر، الآية (44).

وجاء بعد اسم ﴿الخبير﴾ في قوله تعالى: ﴿...وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾[1]، ولم يرد منه فعل.

الحَكَم: وهو الحاكم المحكم، والقاضي المسلَّم حكمه الذي لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، ولم يرد هذا الاسم في القرآن الكريم، وإنما ورد الحاكم- وهو ليس من أسماء الله الواردة في الحديث الشريف كما ورد الفعل المضارع والأمر كما في قوله تعالى: ﴿...فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[2]، وقول تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ...﴾[3].

العَدْل: وهو الذى تجرى أموره كلها على العدل، ولا يظلم أحدًا من خلقه، ولم يرد هذا الاسم في القرآن الكريم ولكن ورد نفى مضاده عن الله- وهو الظلم- في عدة آيات كقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[4].

اللطيف: وهو الذي يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دق منها، ثم يسلك في إيصالها إلى المستحق سبيل الرفق دون العنف فلا بد أن يجتمع في اللطيف الدقة في العلم والرفق في الفعل، ولا يكمل ذلك إلا لله سبحانه. وقد ورد هذا الاسم عدة مرات في القرآن الكريم كان في أكثرها مقترنا بـ﴿الخبير﴾كما في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[5].

الخبير: وهو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة، ولا يجرى في الملك والملكوت شيء، ولا تتحرك ذرة ولا تسكن، ولا يضطرب نَفَس ولا يطمئن إلا ويكون عنده

---

(1) سورة الشورى، الآية (27).

(2) سورة الأعراف، الآية (87).

(3) سورة الأنبياء، الآية (112).

(4) سورة ق، الآية (29).

(5) سورة الأنعام، الآية (103).

خبره، وهو بمعنى العليم، لكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة وسمى صاحبها خبيرًا. وقد ورد هذا الاسم عشرات المرات في القرآن الكريم، وأكثر ما يكون ذلك أن يقع بعده أو قبله ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ كما جاء مع اسم اللطيف ﴿ اللطيف﴾ كثيرًا، وجاء مع اسم ﴿ البصير، والعليم، والحكيم﴾ يقول تعالى: ﴿ ...وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1]، ﴿ ...وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2]، ﴿ ...عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[3]، ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[4]، ﴿ ...إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[5].

الحليم: وهو الذي يشاهد معصية العصاة، ويرى مخالفة الأمر، ثم لا يستفزه غضب، ولا يعتريه غيظ، ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام- مع غاية الاقتدار- عجلة أو طيش. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم عدة مرات، وجاء مع اسم ﴿ الغفور﴾ كقوله تعالى: ﴿ ...وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[6].

وجاء مع اسم ﴿ العليم﴾ كقوله تعالى: ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾[7].

ومع اسم ﴿ الغني﴾ كقوله تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى

---

(1) سورة آل عمران، الآية (180).

(2) سورة المائدة، الآية (8).

(3) سورة الأنعام، الآية (73).

(4) سورة لقمان، الآية (34).

(5) سورة فاطر، الآية (31).

(6) سورة البقرة، الآية (225).

(7) سورة الحج، الآية (59).

وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾[1].

ومع اسم ﴿الشكور ﴾كقوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾[2].

العظيم: وهو- بالنسبة لله سبحانه- الذي لا يتصور أن يحيط العقل بكنهه، وقد ورد في القرآن الكريم مقترنًا باسم ﴿العلى ﴾في قوله تعالى: ﴿...وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾[3].

الغفور: وهو بمعنى ﴿الغفار ﴾ولكنه ينبئ عن نوع مبالغة لا ينبئ عنه الغفار، فإن الغفار مبالغة في المغفرة: أي تتكرر منه المغفرة مرة بعد مرة، فهو ينبئ عن كثرة الفعل، ولكن ﴿لغفور ﴾ينبئ عن جودة الفعل وشموله وكماله. فمعنى ﴿الغفور ﴾تام الغفران كامله حتى يبلغ أقصى درجات المغفرة. وقد ورد في القرآن الكريم عشرات المرات مقترنًا باسم ﴿الرحيم ﴾، كما اقترن باسم ﴿الشكور ﴾في بعض الآيات كقوله تعالى: ﴿...وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[4]، ومع اسم ﴿العزيز ﴾في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[5].

الشكور: وهو الذي يجازى بيسير العمل كثير الدرجات، ويجازى الحسنة بأضعافها. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم عدة مرات كان في أكثرها مقترنًا باسم﴿الغفور ﴾، وجاءه مرة مقترنًا باسم ﴿الحليم ﴾في قوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ

---

(1) سورة البقرة، الآية (263).

(2) سورة التغابن، الآية (17).

(3) سورة البقرة، الآية (255).

(4) سورة الشورى، الآية (23).

(5) سورة فاطر، الآية (28).

قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾[1].

العلي: وهو الذي لا رتبة فوق رتبته، وجميع المراتب منحطة عنه، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم عدة مرات مقترنًا باسم ﴿الكبير﴾كقوله تعالى: ﴿ ...وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾[2]، وباسم ﴿ العظيم﴾كما سبق.

الكبير: وهو ذو الكبرياء، والكبرياء في جانب الله سبحانه تعنى كمال الذات، فالله كبير لا أحد فوقه، وبقاؤه دائم أزلي. وقد جاء في بعض الآيات مقترنًا بـ ﴿ العلي﴾ - كما سبق-، ومرة واحدة مقترنًا باسم ﴿ المتعال﴾في قوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾[3].

الحفيظ: وهو الذي يحفظ الوجود: أي يديمه ويبقيه إلى أن يحين أجله، كما أنه الذي يصون ويحمى الكائنات المتضادة والمتعادية أن يبغى بعضها على بعض. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم ثلاث مرات منها قوله تعالى: ﴿ ...إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾[4]، وقد وردت صفة منه لله على وزن (فاعل) مثل قوله تعالى: ﴿ ...فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[5]، ولكنه لا يعتبر من أسماء الله الحسنى، لأنه لم يرد في الحديث الشريف، ولأن ﴿ الحفيظ﴾أغنى عنه.

المقيت: ويشتمل على معنيين: الأول: خالق الأقوات وموصلها إلى الأبدان وهي الأطعمة، وإلى القلوب وهي المعرفة، والآخر: المستولي على الشيء القادر عليه، وقد اجتمع الأمران لله في هذا الاسم. وقد ورد في القرآن الكريم بالمعنى الثاني في

---

(1) سورة التغابن، الآية (17).

(2) سورة غافر، الآية (12).

(3) سورة الرعد، الآية (9).

(4) سورة هود، الآية (57).

(5) سورة يوسف، الآية (64).

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾[1].

الحسيب: وهو الكافي، والله تعالى حسيب كل أحد وكافيه. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم ثلاث مرات منها قوله تعالى: ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾[2].

الجليل: وهو الموصوف بكل صفات الجلال مثل: الغنى، والملك، والعلم، والقدرة، ولم يرد هذا الاسم في القرآن الكريم.

الكريم: وهو الذي تجتمع فيه عدة صفات، وهي العفو عند المقدرة والوفاء بالوعد وإجزال العطاء، ولا يضيع من يلوذ به. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مرتين، إحداهما قوله تعالى: ﴿...وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾[3].

الرقيب: وهو العليم الحفيظ الذي يراعى الشيء فلا يغفل عنه ويلاحظه ملاحظة دائمة، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم ثلاث مرات منها قوله تعالى على لسان عيسى (عليه السلام): ﴿...فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ...﴾[4].

المجيب: وهو الذي قابل مسألة السائلين بالإسعاف، ودعاء الداعين بالإجابة، وضرورة المضطرين بالكفاية، بل ينعم قبل النداء، ويتفضل قبل الدعاء، وليس ذلك إلا لله تعالى، فإنه يعلم حاجة المحتاجين قبل سؤالهم. وقد ورد هذا الاسم في قوله تعالى: ﴿...فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[5].

كما ورد منه الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى

---

(1) سورة النساء، الآية (85).

(2) سورة النساء، الآية (86).

(3) سورة النمل، الآية (40).

(4) سورة المائدة، الآية (117).

(5) سورة هود، الآية (61).

قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[1].

الواسع: ويطلق على الواسع العلم الذي يحيط علمه بكل شيء، والواسع الإحسان الذي يعم إحسانه جميع الكائنات. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم بضع مرات مقترنًا باسم ﴿ العليم﴾ كقوله تعالى: ﴿ ...فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[2].

وجاء مرة واحدة مقترنًا باسم ﴿ الحكيم﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾[3].

كذلك جاء مرة واحدة مضافًا إلى المغفرة في قوله تعالى: ﴿ ...إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ ...﴾[4].

وقد ورد منه الفعل الماضي ليبين سعة علمه كما في قوله تعالى: ﴿ ...وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[5]، وفي أخرى ليبين سعة رحمته: ﴿ ...وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍۚ ...﴾[6]، وثالثة ليبين سعتهما معًا: ﴿ ...رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ ...﴾[7].

الحكيم: وهو الذي يعرف أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويحسن دقائق الصناعات ويحكمها ويتقن صنعتها. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم عشرات المرات وأكثر

---

(1) سورة البقرة، الآية (186).

(2) سورة البقرة، الآية (115).

(3) سورة النساء، الآية (130).

(4) سورة النجم، الآية (32).

(5) سورة الأنعام، الآية (80).

(6) سورة الأعراف، الآية (156).

(7) سورة غافر، الآية (7).

وروده مقترنًا باسم ﴿العزيز، والعليم﴾. كما اقترن قليلًا بـ ﴿الخبير، والحميد﴾، يقول تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾(1).

﴿...وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(2)، ﴿...تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(3)، ﴿...وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾(4).

الودود: وهو الذي يحب الخير لجميع الخلق فيحسن إليهم، ويثنى عليهم وقد ورد هذا الاسم مرتين في القرآن الكريم: مرة مقترنًا بـ﴿الرحيم﴾في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾(5)، ومرة مع ﴿الغفور﴾: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾(6).

وجاء في المصدر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾(7).

المجيد: وهو الشريفة ذاته، الجميلة أفعاله، الجزيل عطاؤه. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم صفة لله مرتين مرة بعد ﴿حميد﴾في قوله تعالى: ﴿...رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾(8)، ومرة بعد ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾(9).

---

(1) سورة البقرة، الآية (32).

(2) سورة البقرة، الآية (220).

(3) سورة فصلت، الآية (42).

(4) سورة سبأ، الآية (1).

(5) سورة هود، الآية (90).

(6) سورة البروج، الآية (14).

(7) سورة مريم، الآية (96).

(8) سورة هود، الآية (73).

(9) سورة البروج، الآية (15).

الباعث: وهو الذي يحيى الخلق يوم النشور، ويبعث من في القبور، ولم يرد هذا الاسم في القرآن الكريم، ولكن جاء منه الماضي والمضارع كما في قوله تعالى:
﴿...فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ...﴾[1]، ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾[2].

الشهيد: وهو الذي يشاهد كل ما يجرى من الأمور الظاهرة. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم عدة مرات كما في قوله تعالى: ﴿...وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾[3]، وقد تكرر كثيرًا بعد ﴿كَفَىٰ ﴾: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ... ﴾[4].

الحق: وهو الموجود الحقيقي بذاته الذي يأخذ منه كل حي حقيقته. وقد ورد هذا الاسم صفة لله تعالى واسمًا من أسمائه عدة مرات كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ... ﴾[5].

الوكيل: وهو الذي توكل إليه الأمور كلها، وهو قادر على القيام بها، وفيٌّ بإتمامها. وقد ورد هذا الاسم في القرآن عدة مرات مثل قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾[6]، ويكثر مجيئه بعد ﴿وَكَفَىٰ﴾: ﴿...وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾[7].

القوى: المتين: وهما صفتان تتصلان بالقدرة؛ فالتام القدرة قوى، والشديد القوة

---

(1) سورة البقرة، الآية (259).

(2) سورة الحج، الآية (7).

(3) سورة الأحزاب، الآية (55).

(4) سورة الإسراء، الآية (96).

(5) سورة الحج، الآية (62).

(6) سورة المزمل، الآية (9).

(7) سورة الإسراء، الآية (65).

متين. وقد ورد هذان الاسمان في القرآن الكريم. فأما ﴿ ٱلْقَوِيُّ ﴾فقد ورد عدة مرات، وكان في أكثرها مقترنًا بـ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾: ﴿ ...إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾[1].

كما جاء في بعضها مقترنًا بـ ﴿ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾: ﴿ ...إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[2].

وأما ﴿ ٱلْمَتِينُ ﴾فقد ورد صفة لله مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[3]، كما جاء وصفًا لكيده سبحانه في قوله تعالى في سورتي الأعراف والقلم: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾الآيتان (183، 45).

الولي: وهو المحب الناصر، يحب المؤمنين وينصرهم على أعدائهم. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم عدة مرات كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[4].

الحميد: وهو المستحق للحمد والثناء من كل مخلوقاته لما يتصف به من صفات الجلال والكمال. وقد ورد في القرآن مرات عديدة، وأكثر وروده مقترنًا باسم ﴿ الغني ﴾: ﴿ ...وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[5].

وجاء مقترنًا بـ ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾: ﴿ ...وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[6]، ومع ﴿ المجيد ﴾، ومع ﴿ الولي ﴾كما سبق.

المحصي: وهو العالم الذي يعلم جميع الكائنات ويحصى عددها، ويحصرها فلا

---

(1) سورة هود، الآية (66).

(2) سورة الأنفال، الآية (52).

(3) سورة الذاريات، الآية (58).

(4) سورة الشورى، الآية (28).

(5) سورة لقمان، الآية (12).

(6) سورة سبأ، الآية (6).

يغيب عنه مثال ذرة، ولم يرد هذا الاسم في القرآن الكريم، ولكن جاء الفعل منه مرات عديدة مثل: ﴿ ...وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

المبدئ. المعيد: وهما صفتان تعنيان الإيجاد، لكن الإيجاد إذا لم يكن مسبوقًا بمثله يسمى إبداء، وإن كان مسبوقًا بمثله فهو إعادة، فالله حينما خلق الخلق فقد أبدأهم فهو ﴿ المبدئ﴾، وعندما يبعثهم بعد موتهم فقد أعادهم، فهو ﴿المعيد﴾، ولم يرد هذان الاسمان في القرآن الكريم، ولكن جاء منهما المضارع كما في قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[2].

المحيي، المميت: وهو الذي يحيي الخلق من العدم، ثم يميتهم، ثم يحييهم بعد موتهم، ولم يرد الاسمان في القرآن الكريم، وإنما جاء الفعل منهما مرات عديدة كما في قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[3]، كما ورد في سورة الملك أن الله هو ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ...﴾الآية (2).

الحي: وهو الفعال المدرك لكل الكائنات والموجودات، فلا يشذ عن علمه مدرك، ولا عن فعله موجود. وقد ورد الاسم في القرآن الكريم بضع مرات كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ...﴾[4].

القيوم: وهو الموجود الذي تكتفي ذاته بذاته ولا يحتاج في وجوده أو دوام وجوده إلى غيره، ثم إن كل موجود يحتاج في وجوده ودوام وجوده إليه. وقد ورد هذا الاسم في القرآن ثلاث مرات كان فيها جميعها يأتي بعد اسم ﴿ الحي﴾كقوله تعالى:

---

(1) سورة يس، الآية (12).

(2) سورة العنكبوت، الآية (19).

(3) سورة البقرة ، الآية (28).

(4) سورة غافر، الآية (65).

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ... ﴾[1].

الواجد: وهو الذي لا يعوزه شيء مما لابد منه، فالله لديه كل صفات الكمال الإلهية، ولم يرد هذا الاسم في القرآن الكريم.

الماجد: وهو بمعنى ﴿ المجيد﴾غير أن صيغة ﴿مجيد﴾تفيد المبالغة، ولم يرد في القرآن الكريم.

الأحد: وهو الذي لا يتجزأ ولا يتثنى، أي لا يمكن تصور انقسامه إلى أجزاء، ولا يمكن وجود ثان له. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾.

الصمد: وهو الذي يقصده الخلق جميعًا لقضاء حوائجهم، وتحقيق رغائبهم، لأنه مصدر عطاء. وقد ورد مرة واحدة في القرآن الكريم في سورة الإخلاص: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾.

القادر. المقتدر: ومعناهما ذو القدرة لكن المقتدر أكثر مبالغة. وقد وردا في القرآن الكريم: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا ... ﴾[2]، ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[3]. وهناك صفة ثالثة تفيد المبالغة في القدرة وهي ﴿القدير﴾، وقد وردت عدة مرات في القرآن ولكنها ليست من الأسماء التسعة والتسعين الواردة في الحديث.

المقدم. المؤخر: وهو الذي يقرب ويبعد، ومن قربه فقد قدمه، ومن أبعده فقد أخره. وقد قدم الله أنبياءه وأولياءه بتقريبهم وهدايتهم، وأخر أعداءه بإبعادهم، ولم يرد الاسمان في القرآن الكريم.

---

(1) سورة طه، الآية (111).

(2) سورة الأنعام، الآية (65).

(3) سورة القمر، الآية (55).

الأول. الآخر: فهو الأول بالإضافة إلى الوجود، فمنه المبدأ، وهو الآخر الذي تنتهي إليه جميع الموجودات. وقد ورد الاسمان في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1].

الظاهر. الباطن: فالله ظاهر أمام العقل، فإذا تأمل العاقل في مخلوقات الله وكان ذا فطرة سليمة تأكد له وجوده، فهو ظاهر له بعين العقل، وباطن أمام الحواس فلا تستطيع حاسة أن تدرك كنهه. وقد ورد الاسمان في القرآن الكريم في الآية السابقة.

المتعال: وهو العظيم الشأن الذي كل شيء دونه، المستعلي على كل شيء بقدرته المنزه عن المشابهة والمماثلة. وقد ورد هذا الاسم في قوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾[2]، كما ورد الفعل منه﴿تعالى ﴾كما في قوله تعالى: ﴿...فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[3].

البر: وهو المحسن الذي منه كل مبرة وإحسان. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾[4].

التواب: وهو الذي ييسر أسباب التوبة لعباده مرة بعد أخرى بما يظهر لهم من آياته، ويسوق إليهم من تنبيهاته وتحذيراته، وهو الذي يقبل التوبة من عباده التائبين مهما تكررت توبتهم لتكرار ذنوبهم. وقد ورد هذا الاسم صفة لله تعالى في القرآن الكريم مرات عديدة وكان في أكثرها مقترنًا باسم ﴿الرحيم ﴾كقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[5].

---

(1) سورة الحديد، الآية (3).
(2) سورة الرعد، الآية (9).
(3) سورة الأعراف، الآية (190).
(4) سورة الطور، الآية (28).
(5) سورة البقرة ، الآية (37).

وجاء مرة واحدة مقترنًا بـ﴿الحكيم﴾في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

وورد مرة واحدة غير مقترن باسم آخر: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾[2].

وقد ورد صفة للعباد ليدل على كثرة توبتهم إلى الله كلما ألموا بذنب كما في قوله تعالى: ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[3].

المنتقم: وهو الذي يقصم ظهور العتاة، وينكل بالجناة، ويشدد العقاب على الطغاة بعد الإعذار والإنذار، وبعد التمكين والإمهال. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم ثلاث مرات، وكلها جاءت في صيغة جمع المذكر السالم كما في قوله تعالى: ﴿...إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾[4]، كما ورد الفعل عدة مرات مثل: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ... ﴾[5].

العَفُوّ: وهو الذي يمحو السيئات ويتجاوز عن المعاصي، وهو قريب من ﴿الغفور﴾، ولكنه أبلغ منه، فإن الغفران ينبئ عن الستر، والعفو ينبئ عن المحو، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم عدة مرات كان في بعضها مقترنًا باسم ﴿الغفور﴾ كقوله تعالى: ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾[6]، وفي بعضها اقترن بـ﴿القدير﴾كقوله

---

(1) سورة النور، الآية (10).

(2) سورة النصر، الآية (3).

(3) سورة البقرة، الآية (222).

(4) سورة السجدة، الآية (22).

(5) سورة الأعراف، الآية (136).

(6) سورة النساء، الآية (43).

تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾[1].

الرؤوف: وهو ذو الرأفة، والرأفة شدة الرحمة، فهو بمعنى ﴿الرحيم﴾مع المبالغة، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مرات عديدة كان في أكثرها مقترنًا بـ﴿الرحيم﴾ كقوله تعالى: ﴿ ...وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2]، وجاء مرة واحدة مجردًا منها: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[3].

مالك الملك: وهو الذي ينفذ مشيئته في مملكته كيف شاء، وكما شاء، إيجادًا وإعدامًا، و﴿الملك﴾هنا بمعنى المملكة، و﴿المالك﴾بمعنى القادر التام القدرة، والموجودات كلها مملكة واحدة، لأنها كلها مرتبطة بعضها ببعض والله مالكها، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ... ﴾[4].

ذو الجلال والإكرام: وهو الذي لا جدل ولا كمال إلا وهو له، ولا كرامة ولا مكرمة إلا وهي صادرة منه، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مرتين في سورة الرحمن كما في قوله تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾الآية (78).

الوالي: وهو الذي دبر أمور الخلق، وتولاها، وكان جديرًا بولايتها، وكانت الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ ...وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾[5]، كما

---

(1) سورة النساء، الآية (149).

(2) سورة البقرة، الآية (143).

(3) سورة البقرة، الآية (207).

(4) سورة آل عمران، الآية (26).

(5) سورة الرعد، الآية (11).

جاء المصدر منه في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ ...﴾[1].

المقسط: وهو الذي ينتصف للمظلوم من الظالم، ولم يرد هذا الاسم وصفًا لله في القرآن الكريم وإنما ورد وصفًا للمقسطين من العباد في قوله تعالى: ﴿...وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[2].

الجامع: وهو المؤلف بين المتماثلات، والمتباينات، والمتضادات كجمعه الخلق الكثير من الإنس على ظهر الأرض، وحشره إياهم في صعيد القيامة، وجمعه بين السموات والكواكب والهواء والأرض والبحار والحيوانات المختلفة، وتفصيل جمعه لا يعرفه إلا من يعرف تفصيل مجموعاته في الدنيا والآخرة، وهيهات لأحد أن يعرف تفصيل ذلك. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مرتين: في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ ...﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[4]، كما ورد الفعل الماضي والمضارع منه مرات عديدة، مثل قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ...﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ...﴾[6].

الغني: وهو الذي لا يحتاج إلى غيره في أي أمر من الأمور، بل الخلق جميعًا محتاجون إليه. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مرات عديدة، وأكثر وروده مقترنًا باسم ﴿الحميد﴾ كما مر، كما ورد متبوعًا بـ ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ﴾ في قوله تعالى:

---

(1) سورة الكهف، الآية (44).

(2) سورة الحجرات، الآية (9).

(3) سورة آل عمران، الآية (9).

(4) سورة النساء، الآية (140).

(5) سورة آل عمران، الآية (25).

(6) سورة الجاثية، الآية (26).

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ...﴾[1].

كما ورد في قوله تعالى: ﴿...وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ...﴾[2].

المغني: وهو مانح الغني لكل غنى، ولا يمكن لمخلوق أن يغتنى إلا من فضل الله والغنى- مهما بلغ غناه- فهو فقير إلى الله كما في الآية السابقة، ولم يرد اسم ﴿المغنى﴾في القرآن الكريم، ولكن ورد الفعل منه كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾[3].

المانع: وهو الذي يرد أسباب الهلاك والنقصان في الأديان والأبدان بما يخلقه من الأسباب المعدة للحفظ، ولم يرد هذا الاسم في القرآن الكريم.

الضار. النافع: وهو الذي يصدر منه الخير والشر، والنفع والضر، ولا يقع في الكون نفع أو ضر دون إذنه وإرادته، ولم يرد هذان الاسمان في القرآن الكريم وإنما وردت آيات كثيرة أن الضر أو النفع لا يقعان إلا بإذن الله كقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ...﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿...قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ...﴾[5].

النور: وهو الظاهر الذي به كل ظهور، والموجود الذي لا تلحقه ظلمة العدم، والمخرج لكل الأشياء من ظلمة العدم إلى نور الوجود. وقد أسند الله النور إلى ذاته في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾[6]، كما أضافه إلى ذاته في قوله

(1) سورة الأنعام، الآية (133).

(2) سورة محمد، الآية (38).

(3) سورة النجم، الآية (48).

(4) سورة الأعراف، الآية (188).

(5) سورة الفتح، الآية (11).

(6) سورة النور، الآية (35).

تعالى: ﴿...يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ...﴾ الآية السابقة، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[1].

الهادي: وهو الذي هدى عباده إلى الصراط المستقيم صراط الدين الحق، وأرشدهم إلى الصالحات. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[الحج : 54]، وقوله تعالى: ﴿...وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾[2]، كما أكد الله أن الهدى الحق هو الهدى الصادر منه في قوله تعالى: ﴿...قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ...﴾[3].

البديع: وهو الذي لا عهد بمثله لا في ذاته ولا في صفاته، والمبدع للمخلوقات على غير مقال سبق. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مرتين مضافًا في كليهما إلى السموات والأرض، الأولى: في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[4]، والأخرى: في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ...﴾[5].

الباقي: وهو الموجود الواجب وجوده لذاته، ولا ينتهي تقدير وجوده في الاستقبال إلى آخر، ويعبر عنه بأنه أبدى، ولم يرد هذا الاسم في القرآن الكريم، وإنما ورد المضارع منه في قوله تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾[6]، واسم التفضيل

---

(1) سورة الصف، الآية (8).

(2) سورة الفرقان، الآية (31).

(3) سورة البقرة، الآية (120).

(4) سورة البقرة، الآية (117).

(5) سورة الأنعام، الآية (101).

(6) سورة الرحمن، الآية (27).

في قوله تعالى: ﴿...وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾[1].

الوارث: وهو الذي ترجع إليه الأملاك بعد فناء الملّاك، وذلك هو الله إذ هو الباقي بعد فناء خلقه، وإليه مرجع كل شيء ومصيره، وهو القائل إذ ذاك: ﴿...لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ ...﴾وهو المجيب: ﴿...لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[2].

وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في صيغة جمع المذكر السالم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾[3]، ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾[4]، ﴿...وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾[5]، وورد المضارع منه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾[6].

الرشيد: وهو الذي تسير تدبيراته إلى غاياتها على منهج السداد دون إشارة مشير، أو تسديد مسدد، أو إرشاد مرشد، وهو الذي يرشد عباده إلى النهج القويم، ولم يرد هذا الاسم في القرآن الكريم صفة لله، وإنما جاء ما يفيد أن الله هو واهب الرشاد لعباده كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[7].

الصبور: وهو ختام الأسماء الحسنى الواردة في الحديث الشريف، ومعناه: الذي لا تحمله العجلة إلى المسارعة إلى فعل شيء قبل أوانه، ولا يؤخرها عن آجالها المقدرة،

---

(1) سورة طه، الآية (73).

(2) سورة غافر، الآية (16).

(3) سورة الحجر، الآية (23).

(4) سورة الأنبياء، الآية (89).

(5) سورة القصص، الآية (58).

(6) سورة مريم، الآية (40).

(7) سورة الأنبياء، الآية (51).

بل يفعل كل شيء في أوانه على الوجه الذي يجب أن يكون وكما ينبغي، **ولم يرد هذا الاسم صفة لله في القرآن الكريم.**

***

فعلى المسلم أن يؤمن بأن الله موصوف بكل صفات الكمال المطلق، وأن له أسماء حسنى سمى بها نفسه هي التي وردت في الحديث الشريف، والتي شرحتها آنفًا، وبكل صفة لله وردت في القرآن زيادة على الحديث مثل: (القدير، والقاهر)، وليس له أن يضيف إليها غيرها.

***

الملائكة

وهذا هو الركن الثاني من أركان العقيدة الإسلامية، وهو الإيمان بوجود الملائكة، ولم يحدثنا القرآن حديثًا مفصلًا عن طبيعة الملائكة، فلم يذكر مم خلقوا، وقد عرفنا عن طريق الحديث الشريف أنهم مخلوقات نورانية، فالنور أصلهم، ولكن ذكر القرآن أن لهم أجنحة، وهذه الأجنحة يختلف عددها من طائفة إلى طائفة؛ فبعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة أجنحة، وبعضهم له أربعة. ويتضاعف العدد كما يريد الله، وعلى حسب الوظائف الموكولة إلى هؤلاء الملائكة. وقد روى مسلم في حديث الإسراء أن الرسول ﷺ رأى جبريل (عليه السلام) له ستمائة جناح، يقول تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

هؤلاء الملائكة دائمو النزول إلى الأرض والعروج إلى السماء ليقوموا بأمور يطلبها الله منهم. وقد أخبرنا ببعضها كما سأذكر، يقول تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[2].

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر لبعض المهام التي يكلها الله إلى الملائكة، بعض هذه المهام للتبشير، تبشير بعض أنبيائه وعباده الصالحين بأمور محببة إلى نفوسهم، فقد نزلوا إلى نبي الله إبراهيم (عليه السلام) ليبشروه بغلام عليم بعدما كاد ييأس من أن يولد له من زوجه سارة ولد. وقد جاءوه في صورة رجال ضيوف لكيلا يفزعوه

(1) سورة فاطر، الآية (1).

(2) سورة المعارج، الآية (4).

بصورتهم الحقيقية، وقد حاول أن يؤدى لهم واجب الضيافة فامتنعوا، فلما خافهم أخبروه بحقيقة أمرهم فعجبت زوجته، وضربت وجهها تعجبًا ودهشة، ولكنهم بينوا لها أنه أمر الله الذي لا يعجزه شيء. كما أن إبراهيم (عليه السلام) تعجب من ذلك واستبعده، فنهوه عن أن يقنط، فنفى عن نفسه ذلك. وقد وردت هذه القصة في عدة سور يكمل بعضها بعضًا:

ففي سورة هود يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ❁ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ❁ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ الآيات (69-73).

في سورة الذاريات: ﴿ ...وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ❁ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الآيات (28-30).

وفي سورة الحجر: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ❁ قَالُواْ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ الآيات (51-56).

كما أنزلهم ابنه ليحملوا التابوت إلى أحد أنبياء بنى إسرائيل تأييدًا له في اختياره طالوت ملكًا على بنى إسرائيل ليقودهم إلى محاربة أعدائهم. وذلك أن بنى إسرائيل طلبوا من نبيهم أن يختار لهم ملكًا يقودهم، فاختار لهم طالوت، ولم يكن من أشرافهم فرفضوه، فأخبرهم النبي أن هذا اختيار الله، والدليل على ذلك أن التابوت الذي كان يحوي بعض آثار موسى وهارون (عليهما السلام) وآلهما، والذي كانوا يقدمونه

أمامهم في الحروب فيرفع روحهم المعنوية، ويملأ قلوبهم بالسكينة. وقد استولى عليه أعداؤهم لما هزموهم واستولوا على ديارهم، وأخرجوهم. هذا التابوت سيعود إليهم تحمله الملائكة، وقد حدث فعلًا وجاءت الملائكة تحمل التابوت إليهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].

كذلك أرسلوا ليبشروا زكريا (عليه السلام) بالولد عندما أخذ يتضرع إلى الله أن يهبه ابنًا صالحًا لما شاهد معجزات مريم (عليها السلام)، وما يجده لديها من طعام كلما دخل عليها المحراب فبشرته الملائكة بابن صالح يصدق بكلمة الله عيسى (عليه السلام)، وهو سيد ممتنع عن النساء ونبي من الصالحين، يقول تعالى: ﴿ ....كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ * فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[2].

كما أرسل الله الملائكة لتبشر السيدة مريم بمولد عيسى (عليهما السلام) دون أب، وقد أثار هذا فزعها، وأخذ منها العجب كل مأخذ لأن تلد دون زوج، ولكنهم أعلموها أن الله قادر على ذلك وأنه يخلق ما يشاء، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى

(1) سورة البقرة، الآية (248).

(2) سورة آل عمران، الآيات (37-39).

بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (1).

كذلك أرسلهم ليشاركوا في جهاد المسلمين ضد المشركين في غزوة (بدر)، فأرسل ألفًا من الملائكة متتابعين، ليكونوا بشرى للمسلمين بالنصر وطمأنة لقلوبهم، يقول تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (2).

ثم يقول: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾(3).

وإذا كان الله أرسلهم بالبشرى، فقد أرسلهم أيضًا بالعذاب، فقد أرسلهم لإنزال العذاب بقوم لوط (عليه السلام) لما جاوزوا كل حد في ممارسة الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، وهي إتيان الرجال في أدبارهم، فكان لا بد من الانتقام منهم، وجاءت الملائكة في صورة رجال ضيوف، وهرع إليهم قوم لوط ليفعلوا بهم الفاحشة، وضاق صدر لوط من عجزه عن حمايتهم، وحاول مساومة قومه ليأخذوا بناته وتركوا ضيوفه، ولكنهم أبوا ذلك فطمأنته الملائكة وأخبروه أنهم رسل الله جاءوا لإنزال العذاب، وطلبوا منه أن يغادر المدينة ليلًا هو وأهله وألا يلتفت منهم أحد إلا امرأته فإنها منهم، ثم قلبوا المدينة على من فيها، وأرسلوا عليها حجارة من طين محروق، يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ *

---

(1) سورة آل عمران، الآيات (45-47).

(2) سورة الأنفال، الآيتان (9، 10).

(3) سورة الأنفال، الآية (12).

﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[1].

وقد أخبر الله أن نزول الملائكة استجابة لتحدى مشركي قريش الذين طلبوا أن يأتيهم الرسول بالملائكة لتصديقه- يعنى إهلاكهم- لأن الملائكة لا تنزل في مثل هذه الظروف إلا للعذاب فقال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾[2]، والمراد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ هنا العذاب. كذلك قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[3].

وكما ينزل الله الملائكة للبشرى أو للعذاب، فإنه ينزلهم في مناسبات خاصة احتفالًا بها، كما يحدث في ليلة القدر، وهي ليلة مباركة شرفها الله بنزول القرآن فيها فجعلها خيرًا من ألف شهر تقضى في العبادة، وخصها بتنزل الملائكة فيها بقيادة جبريل (عليه السلام)- وهو الروح- ليقضوا من الأمور ما أذن الله به، يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ * لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾[4].

وهذا التنزيل من السماء إلى الأرض لا يتم إلا بأمر الله كما قال جبريل (عليه

---

(1) سورة هود، الآيات (77-83).

(2) سورة الحجر، الآية (8).

(3) سورة الفرقان، الآيتان (21، 22).

(4) سورة القدر، الآيات (1-5).

السلام) للرسول ﷺ حينما قال له: لم لا تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فأجابه بأن نزوله أو نزول أي ملك آخر لا يكون إلا بإذن الله: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[1].

وقد ينزل الله ملائكة لابتلاء الناس واختبار إيمانهم، كما أنزل الملكين هاروت وماروت ببابل من أرض العراق ليعلما الناس السحر، وذلك أن السحرة كثروا في ذلك العهد واخترعوا فنونًا غريبة من السحر، وربما زعموا أنهم أنبياء، فبعث الله تعالى الملكين ليعلما الناس وجوه السحر حتى يتمكنوا من التمييز بينه وبين المعجزة، ويعرفوا أن الذين يدعون النبوة كذبًا إنما هم سحرة لا أنبياء؛ لذلك لم يكن الملكان يعلمان أحدًا من الناس السحر إلا قالا له : لا تكفر باستخدام السحر في الإضرار بالناس فنحن لم ننزل لذلك، وإنما نعلمه لتبصير الناس، ونحن ابتلاء من الله واختبار لعباده ليتبين من يستفيد من تعلم السحر التمييز بين الخير والشر ودفع الضرر ممن يستغل معرفته في إيذاء الناس والإضرار بهم، فكان الناس يتعلمون من الملكين ما يفرقون به بين الرجل وزوجته، ويحيل المودة بينهما بغضًا، ولكن لن يحدث ضرر لأحد من السحر إلا إذا أراد الله ذلك، وإن تعلم السحر يضر ولا ينفع، والذى يمارسه للإضرار بالناس، أو لجلب منفعة لمن لا يستحقها، فليس له نصيب من نعيم الآخرة، يقول تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ

(١) سورة مريم، الآية (64).

وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

ملاحظات:

1- القرآن لا ينكر السحر، ولكن يذمه ويذم فاعله، وينهى عن ممارسته، لأنه محاولة للتدخل في شئون الله، وادعاء نوع من قدرة الخالق.

2- إن تأثير السحر لا يتجاوز التفريق بين الرجل وزوجته وما شابه ذلك من تغيير في مشاعر الناس، وذلك لأن الله حينما ضرب هذا المثل أراد أن يبين أقصى طاقة يبلغها الساحر، فليس في قدرة الساحر أن يحيي الموتى، أو يشفي الأمراض المستعصية وما شابهها مما لا يقدر عليه إلا الله.

3- أي تأثير يحدثه الساحر لا يكون إلا إذا أراد الله- لحكمة يعلمها- أن يحدث هذا التأثير، فتنفذ إرادة الله مقارنة لفعل الساحر فيظن الجاهل أن ذلك من تأثير السحر.

4- ليس في السحر أي نفع للإنسان فقد قرر الله أنه يضر ولا ينفع.

5- يرى أهل السنة أن ما يحدثه الساحر حقيقة واقعة، ويرى المعتزلة (والطائفتان من علماء العقيدة) أنه تخييل ووهم استنادًا إلى قوله تعالى: ﴿ .....يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ .....سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾[3].

درجات الملائكة:

الملائكة طوائف كثيرة لا يحصى عددها إلا الله، وقد امتدحهم الله في القرآن الكريم، وأثنى على إخلاصهم في العبادة، ومداومتهم عليها دون كلل أو تعب، فقال

---

(1) سورة البقرة، الآية (102).

(2) سورة طه، الآية (66).

(3) سورة الأعراف، الآية (116).

تعالى: ﴿ .....وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [1]، ولهم عنده منزلة الإكرام، وأنهم لا يتقدمون عليه بقول أو فعل، بل ينتظرون أمره: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾[2]، ومع ذلك فهم يتفاوتون في علو الدرجات، فبعضهم أرفع درجة من بعض كما هو الشأن في الرسل، يقول تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ.... ﴾ [3]، ويقول: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ..... ﴾ [4]، فهناك ملائكة يخصهم الله بالقرب منه.

وأرفع الملائكة درجة هو جبريل (عليه السلام)؛ فهو السفير بين الله ورسله، وقد خصه الله باسم لم يطلقه على ملائكته، وهو (الروح) ويصفه أحيانًا بالأمين، ويضيفه أحيانًا إلى القدس. وكل هذا لرفعة شأنه عند الله، يقول تعالى: ﴿ ....وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ.... ﴾[5]، ويقول: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [6]، ويقول تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾[7].

كما وصفه بأنه رسول- إلى رسوله محمد ﷺ كريم على الله، قوى، له مكانة عند

---

(1) سورة الأنبياء، الآيتان (19، 20).

(2) سورة الأنبياء، الآيتان (26، 27).

(3) سورة الحج، الآية (75).

(4) سورة النساء، الآية (172).

(5) سورة البقرة، الآية (87).

(6) سورة الشعراء، الآيتان (193، 194).

(7) سورة القدر، الآية (4).

الله ذي العرش، تطيعه الملائكة في السماء، أمين في تبليغ الوحي، يقول تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[1].

كما خصه هو وملك آخر بذكر اسميهما في القرآن الكريم، وأن الذي يعاديهما يستحق عداوة الله له، يقول تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[2]، وميكال هو ميكائيل وذكره في القرآن دليل على رفعة شأنه أيضًا.

أعمال الملائكة:

أهم أعمال الملائكة أجمعين كما أخبرنا الله في القرآن الكريم هو العبادة كما مر في آيات سابقة، ولكن لهم إلى جانب ذلك أعمال أخرى ذكر الله بعضها منها حمل العرش: فهناك ملائكة مخصصون لحمل العرش، وقد وصفهم الله بأنهم دائمو التسبيح بحمد ربهم، وهم مؤمنون به، ويطلبون مغفرة الله للمؤمنين ضارعين إلى رحمته وعلمه اللذين وسعا كل شيء أن يغفر للذين تابوا وساروا على نهجه، وأن يحميهم من عذاب الجحيم، وأن يدخلهم جنات عدن هم ومن كان صالحًا من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم فهو العزيز الحكيم. يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[3].

ويحدد عدد حملة العرش يوم القيامة بأنهم ثمانية، فهل المراد ثمانية أفراد من

---

(1) سورة التكوير، الآيات (21-19).

(2) سورة البقرة، الآية (98).

(3) سورة غافر، الآيتان (7، 8).

الملائكة أو ثمانية صفوف؟ وهل هؤلاء الثمانية كان عددهم كذلك قبل القيامة أو زيد يومها؟ الله أعلم، فالقرآن لم يفصل ذلك، يقول تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [1].

ولكن ما العرش؟ وكيف تحمله الملائكة؟ ولماذا تحمله؟ هذه أمور غيبية لم يبينها القرآن، فعلى المسلم أن يؤمن أن لله عرشًا، وأنه عرش عظيم يليق بجلال الله، وأن الملائكة تحمله، ولا يهتم بتفصيلات ذلك.

خزنة جهنم:

وهناك ملائكة عملهم حراسة جهنم وخزنها إلى أن يحين وقت عملها في تعذب الكفار، فيذكر الله أن هؤلاء الخزنة يوبخون الكفار على استمرارهم في الكفر بعد ما جاءهم الرسل ينذرونهم لقاء هذا اليوم، فيستخذى الكفار ويعترفون بمجيء الرسل إليهم تنذرهم فيأمرهم الخزنة بدخول جهنم التي يستحقونها لأنهم استكبروا عن الإيمان بربهم، يقول تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [2].

وقد وصفهم الله في سورة التحريم بأنهم غلاظ شداد، لا يمكن أن يعصوا الله حينما يأمرهم بتعذيب الكفار، بل يفعلون ما يأمرهم الله به، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ الآية (6).

وقد حدد عددهم في سورة المدثر بتسعة عشر، ولما سخر الكفار من ضآلة هذا

---

(1) سورة الحاقة، الآية (17).

(2) سورة الزمر، الآيتان (71، 72).

العدد بين الله لهم أنهم ملائكة وليس بشرًا، فالملك وحده قادر على تدمير العالم، وأن هذا العدد ليس إلا فتنة ليختبر الله إيمان المؤمنين من المسلمين وأهل الكتاب فيسلموا بما يقول، وأما الذين في قلوبهم مرض فيتساءلون ساخرين: ماذا يريد الله بذكر ذلك؟ يقول تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ..... ﴾ الآيات (26-31).

وقد ذكر القرآن اسم خازن النار- أي رئيس خزنتها- فهو ﴿ مَٰلِكُ ﴾، وهم يطلبون منه في الآخرة- وهم في جهنم يعذبون، وقد اشتد عليهم ما يلاقونه من عذاب- أن يسأل ربه أن يقضي عليهم بالموت ليتخلصوا من هذا العذاب، فيجيبهم أنهم ماكثون في العذاب ولن يصرف عنهم، فقد جاءهم الله بالحق فلم يؤمنوا لأنهم يكرهون الحق، يقول تعالى: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾[1].

خزنة الجنة:

وللجنة أيضًا خزنتها، وهم يستقبلون المؤمنين في الآخرة محبين مادحين إياهم، ويدعونهم إلى دخول الجنة خالدين فيها أبدًا، يقول تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[2].

وهنا ملاحظة بلاغية فمع الكفار قيل: ﴿ ..... حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا .... ﴾، ومع المتقين قيل: ﴿ ..... حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا .... ﴾ بزيادة الواو، فما دلالة

(1) سورة الزخرف، الآية (77).

(2) سورة الزمر، الآية (73).

هذا؟ دلالته أن الله يحتقر الكافرين فلا تفتح لهم أبواب جهنم إلا بعد أن يصلوا إليها، ويكرم المؤمنين فتفتح الأبواب قبل وصولهم ترحيبًا بهم.

ملائكة الموت:

وللموت ملائكة يتولون قبض أرواح البشر، لم يحدد القرآن عددهم، ولم يذكر اسم أي منهم، ولكن ورد في بعض الأثر أن ملك الموت اسمه عزرائيل، وأن له أعوانًا من الملائكة يساعدونه في ذلك، وقد تحدث القرآن الكريم في عدة سور عن هؤلاء الملائكة وهم يقبضون أرواح الكافرين وعن توبيخهم إياهم، وإهانتهم لهم بالقول والفعل.

ففي سورة النساء تحدثنا بعض آياتها عن أن الملائكة عندما تتوفى بعض الأشخاص الذين ارتدوا عن الإسلام بمكة بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وانقياد هؤلاء المرتدين إلى أمر مشركي قريش لهم بالكفر فتسألهم الملائكة عن سبب موقفهم هذا، فيدعون أنهم كانوا مستضعفين في مكة، فتجيبهم الملائكة بسؤال توبيخي: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، ثم يحكم الله عليهم بأن مأواهم جهنم وبئس المصير مصيرهم.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ الآية (97).

وفي سورة الأنعام تمد الملائكة أيديهم إلى الظالمين- أي المشركين بالله- بالضرب والتعذيب، لأن الشرك- كما قال تعالى في سورة لقمان: ﴿ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾، الآية (13)، وهم يعانون سكرات الموت وشدته داعين إياهم أن يخرجوا أرواحهم من أجسادهم، وفي هذا غاية الإهانة، وشدة المعاناة، فالملائكة لا يقبضون أرواح هؤلاء الكفار بأيديهم استهانة بهم وتحقيرًا، وكذلك زيادة في المعاناة لأن تكليف إنسان بالقيام بعمل مؤلم ضد نفسه مضاعفة لمعاناته، ويقولون لهم: لقد حان وقت عذابكم

عذابًا مهينًا مخزيًا بسبب فسقكم وخروجكم عن دين الله، يقول تعالى: ﴿ ....وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

وفى سورة الأنفال يضرب ملائكة الموت وجوه الكفار وأدبارهم عند قبض أرواحهم، ويقولون لهم: ذوقوا عذاب جهنم الذي ينتظركم، يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ الآية (50).

وفى سورة النحل يبادر الكفار بالاستسلام لمصيرهم، ويدَّعون كذبًا أنهم لم يشركوا بالله فتجيبهم الملائكة أنهم كاذبون وأنهم أشركوا بالله، ويأمرونهم بدخول جهنم التي سيخلدون فيها، وبئست جهنم مأوى للذين استكبروا عن الإيمان بالله، يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ الآيتان (28، 29).

وفي سورة السجدة يأمر الله رسوله ﷺ أن يخبر الناس بأن ملك الموت الموكل بكل واحد منهم سيتوفاهم، وأنهم سيرجعون إلى ربهم، يقول تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ الآية (11).

ونلاحظ أن هذه هي الآية الوحيدة التي ذكرت ملك الموت مفردًا وهذا يحتمل معنيين:

أولهما: أن هناك ملكًا للموت يقبض أرواح جميع الناس وهو كما ورد في الحديث (عزرائيل) ويعاونه ملائكة آخرون.

---

(1) سورة الأنعام، الآية (93).

والمعنى الآخر: أن كل فرد من الناس موكل به ملك يقبض روحه، ويكون معنى قول الملائكة في الآيات السابقة أن كل ملك يقول لصاحبه هذا القول، ويضربه هذا الضرب.

وأخيرًا في سورة محمدﷺ يُعَجِّب الله مما سيلقاه الكافرون عند قبض أرواحهم من إهانة بضرب وجوههم وأدبارهم، وذلك لأنهم فعلوا كل ما أغضب الله فمحق عملهم الصالح، يقول تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ الآيتان (27، 28).

ذلك حال الكفار، فكيف يتلقى الملائكة المؤمنين المتقين؟ إنهم يتلقونهم بالتحية ويدعونهم إلى الدخول في الجنة بسبب حسن عملهم وتقواهم، كما قال الله في سورة النحل: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الآية (32).

وأما في سورة فصلت فيخبرنا الله تعالى أن الذين آمنوا بربهم، واستقاموا على نهجه، تتنزل عليهم الملائكة عند موتهم لتطمئنهم، وتزيل عنهم دواعي الخوف والحزن، ويبشروهم بالجنة التي وعدهم الله بها، ويخبروهم أنهم سيكونون أنصارًا لهم في الاخرة كما كانوا أنصارا لهم في الدنيا، وأن لهم في الآخرة كل ما تشتهيه أنفسهم من طيبات الطعام والشراب، وكل ما يتمنونه من هذه الطيبات، فقد جعلها الله الغفور الرحيم رزقًا مهيئًا لهم، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ الآيات (30-32).

الجن:

وقد يكون من المناسب بعد الفراغ من الحديث عن الملائكة أن أذكر نبذة عن الجن، والجن ليسوا من الملائكة، بل هم كائنات خفية لا نراها حدثنا عنها القرآن الكريم، فوردت فيه سورة كاملة باسم (الجن) وهذه السورة نزلت بمناسبة استماع نفر من الجن إلى القرآن فأعجبوا به وآمنوا به، فأمر الله رسوله ﷺ أن يذيع هذا الأمر في الناس، يقول تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا * يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ الآيتان (1، 2).

ثم أخذوا يسفهون رأي من قال: إن لله زوجة أو ولدًا، ونفوا ذلك عن الله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا * وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا﴾ الآيتان (3، 4).

ثم يذكرون أن منهم مؤمنين، وكافرين، فالمؤمنون الذين أسلموا وجوههم لله، قد أصابوا الرشد والسداد، وأما الظالمون، بكفرهم فقد أصبحوا حطبًا لنار جهنم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ[1] فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا * وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾، الآيتان (14، 15).

كما تحدث القرآن أيضًا عن هذه المناسبة في سورة الأحقاف حيث أخبر رسوله أنه أرسل إليه ﷺ نفرًا من الجن فاستمعوا إلى القرآن فآمنوا به، ثم انصرفوا إلى قومهم لينذروهم ويدعوهم إلى الإيمان بهذا الكتاب الذي أنزل بعد توراة موسى (عليه السلام): ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ * يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ الآيات (29، 31).

---

(1) القاسطون: الجائرون عن طريق الحق.

وقد أنبأنا الله في القرآن الكريم أن الجن قد خلقوا من نار السموم وهي نار ليس لها دخان تنفذ من المسام، فطبيعتهم تختلف عن خلق الإنسان، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾[1].

وكذلك ذكر في سورة الرحمن أنه خلق الجان من نار خالصة اللهب، فقال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ الآية (15). كما تكرر ذكر إبليس وهو رأس الجن أنه مخلوق من نار، فظن أنه خير ممن خلق من طين وهو آدم (عليه السلام)؛ ولذلك أبي السجود له.

ويطلق لفظ (العفريت) على القوى الشديد من الجن، قال تعالى في قصة سليمان (عليه السلام) مع ملكة سبأ: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ...﴾[2]، ويطلق (الشيطان) على إبليس وعلى كل عات متمرد من الإنس والجن، يقول تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ..... ﴾[3].

ويكثر ذكر (إبليس) في القرآن الكريم في أثناء الحديث عن موقفه من آدم (عليه السلام)، كما يكثر التعبير عنه بالشيطان في أثناء الحديث عن إغوائه لبنى آدم.

وعلى الرغم من تحدى إبليس لله سبحانه وتعالى، وتهديده بأنه سيغوى الناس أجمعين، فقد عجز عن إغواء بعض ذريته من الجن فآمن بعضهم كما رأينا فيما سبق.

وقد أخبرنا القرآن الكريم عن موالاة بعض الإنس للجن، وكذلك موالاة الجن للإنس، فقد ذكر في سورة الأنعام أن الله ينبئ الجن يوم الحساب أنهم قد استكثروا من الإنس بإغوائهم إياهم- كنوع من ذكر سيئات الجن- ويرد الإنس الذين اتبعوا الجن متحسرين: بأنه قد استمتع بعضهم ببعض- فالإنس استمتعوا بما قدمه لهم الجن

---

(1) سورة الحجر، الآيتان (26، 27).

(2) سورة النمل، الآية (39).

(3) سورة الأنعام، الآية (112).

من متع، والجن استمتعوا بطاعة الإنس لهم- وأنهم قد بلغوا الأجل الذي حدده الله لحسابهم، فيخبرهم الله أن الناس مثواهم مخلدين فيها إلا من شاء الله إعفاءه منها: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ .... ﴾[1].

وفي سورة الرحمن خاطب الله الإنس والجن معًا، وهو يحصى آلاءه ونعمه على الفريقين، ويعقب على كل نعمة بقوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، وقد صرح بذكرهما في قوله: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الآيتان (33، 34)، ثم يذكر بعد ذلك أن الإنس والجن لن يسألوا عن ذنوبهم يوم الحساب لأن الله يعلم كل ما اقترفوه من سيئات: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ الآية (39).

وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يتعوذ من شر شياطين الجن والإنس الذي يلقون في صدور البشر ألوانًا من الشر بوسوستهم الخفية لهم والتي تؤثر في نفوسهم: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾[2].

فالعقيدة التي ينبغي للمسلم أن يعتقدها أن لله مخلوقات خفية لا يراها الإنسان تسمى (الجن) (والجن مأخوذ من (جن الليل): أي أظلم. سموا بذلك لاستتارهم وعدم رؤيتهم)، وأن هذه المخلوقات منها المؤمن والكافر، وأن الكافرين منهم هم جنود إبليس ينشرون الشر في العالم مع نظرائهم من الإنس.

***

(1) سورة الأنعام، الآية (128).

(2) سورة الناس، الآيات (1-6).

الكتب المنزلة

من أركان العقيدة الإيمان بأن الله أنزل كتبًا على رسله، فيها الهداية والإرشاد لأممهم، وبيان ما ينبغي عليهم نحو ربهم، ونحو أفراد مجتمعهم، وقد ذكر الله في القرآن الكريم خمسة كتب يجب الإيمان بكل منها، أي أن نؤمن أن الله أنزل هذه الكتب على من ذُكر من الرسل، وهذه الكتب هي: (صحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى، وقرآن محمد- عليهم الصلاة والسلام-) وسأذكر نبذة عن كل منها مستعينًا بما جاء عنها في القرآن الكريم.

صحف إبراهيم (عليه السلام):

والصحف في اللغة: جمع صحيفة، والصحيفة: الكتاب، أي كل شيء كتب فيه، وقد جاءت بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾[(1)]: أي يريد كل واحد من مشركي مكة أن ينزل الله عليه صحيفة مكتوبة تخبره أن محمدًا ﷺ رسول من عند الله، فإذا أضيفت إلى رسول صارت تعنى الكتاب المنزل على هذا الرسول كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[(2)]، وفي قوله تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾[(3)]، ويطلق على كتب الأنبياء السابقين الصحف كما قال تعالى: ﴿....أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾[(4)]،

(1) سورة المدثر، الآية (52).

(2) سورة النجم، الآية (37).

(3) سورة الأعلى، الآية (20).

(4) سورة طه، الآية (133).

ويقصد بها الكتب السابقة مثل: التوراة والإنجيل، ومعنى الآية: ألم يكفهم دليلًا على نبوة محمد ﷺ ما ذكر عنه في التوراة والإنجيل من وصف له وتبشير بنبوته.

ولم يذكر القرآن الكريم شيئًا عن وصف صحف إبراهيم (عليه السلام) بل اكتفى بذكر بعض المعاني التي وردت بها كقوله في سورة النجم: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ الآيات (36-41): أي أنه قد ورد في صحف إبراهيم (عليه السلام) أن كل إنسان مسئول عن عمله، وسيحاسب عليه، ويجازى بقدره جزاءً وافيًا.

وكذلك ورد فيها أن الذي يطهر نفسه بعمل الخير، ويذكر اسم ربه ويصلى ينال الفوز والفلاح، وأن مما طبع عليه الناس أن يفضلوا الدنيا على الآخرة، بينما الآخرة خير وأبقى، يقول تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [1].

وسأل أبو ذر (رضى الله عنه) رسول الله ﷺ: ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: (كانت أمثالًا كلها مثل: أيها الملك المتسلط المبتلَى المغرور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم، فإني لا أردها ولو كانت من فم كافر)، ويمضي الحديث فيذكر أمثالًا أخرى، ثم يسأل أبو ذر (رضى الله عنه) فهل في أيدينا شيء مما في هذا الصحف مما أنزل الله عليك؟ قال: (نعم، اقرأ قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ الآيات) [2].

التوراة:

وهي الكتاب الذى أنزله الله على موسى (عليه السلام)، وقد طلب الله من موسى

---

(1) سورة الأعلى، الآيات (14-19).

(2) (تفسير القرطبي) (ج1 ص7303، 7304) دار الغد.

قبل أن ينزل عليه التوراة أن يستعد استعدادًا خاصًا ليتقبل كلام الله الذي سينزله عليه فأمره أن يتعبد ثلاثين ليلة يصوم نهارها، ويقوم ليلها، فلما أتم موسى الثلاثين أمره الله بصيام عشرة أيام أخرى لتتم المدة أربعين يومًا. يقول الزمخشري في تفسير ذلك: إن موسى (عليه السلام) لما أتم صيام الثلاثين يومًا أنكر خلوف فمه- أي تغير رائحة فمه- فتسوك، فأوحى الله إليه: أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من رائحة المسك، فأمره الله أن يزيد عليها عشرة أيام أخر ليخاطبه وخلوف الصيام في فمه، يقول تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ..... ﴾[1]، وقد طمع موسى أن يحقق أقصى متعة في القرب من ربه، فطمع في الرؤية مع الكلام، فأفهمه الله أن هذا مستحيل وقدم له مثلا عمليًا، فتجلى للجبل- وهو أضخم الكائنات على الأرض- فلم يطق ذلك واندك حتى تساوى بالأرض، فلما رأى موسى منظر الجبل خر مصعوقًا، فلما أفاق نزه الله عما كان يطلبه وأعلن توبته فتاب الله عليه، واصطفاه على الناس برسالته وبكلامه، وأنزل عليه التوراة في صورة ألواح يقول عنها بعض المفسرين: إنها من زبرجد، وقد جعل الله في هذه الألواح مواعظ ونصائح تصلح لكل شيء، وتفصيل كل شيء يحتاج إليه قومه، وطلب الله منه أن يأخذ ما في التوراة من أوامر ونواه بكل جد واجتهاد، وأن يأمر قومه بأخذ الأفضل منها، فإذا كان فيها تخيير بين أمرين يختارون ما فيه خير أكثر.

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ

---

(1) سورة الأعراف، الآية (142).

وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾[1].

ولكن موسى (عليه السلام) كانت تنتظره مفاجأة سيئة، فقد عبد قومه العجل الذي صاغه لهم السامري، فتملكه الغضب فألقى الألواح على الأرض فتكسرت، وأخذ يلوم أخاه هارون (عليهما السلام) الذي جعله وكيلًا عليهم في أثناء غيابه، ثم عرف عذره فعفا عنه، واستغفر الله لهما، يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[2].

ولما ذهب الغضب عن موسى، وهدأت نفسه أخذ يجمع الألواح، ويلصق ما تكسر منها، فهل بقيت كلها أو ضاع منها شيء في أثناء إلقائها؟ الله أعلم، ولكن المؤكد أنه قد بقي منها ما أراد الله له أن يبقى، وما فيه خير عباده، ففيها كما قال تعالى: ﴿ ....هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾: أي الذين يخشون الله ويخافون عذابه، يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾[3].

وقد وصف الله التوراة بأن فيها هداية للناس، ونورًا يوضح طريق عبادتهم ومعاملاتهم، وأن أنبياء بنى إسرائيل الذين أسلموا وجوههم إلى الله والعلماء والأحبار يحكمون بين اليهود وفقًا لأحكام التوراة، وقد وكل الله أمر حفظها من التحريف والضياع إليهم وطلب منهم ألا يخشوا أحدًا من الناس في تطبيق أحكامها عليهم

---

(1) سورة الأعراف، الآيات (143-145).

(2) سورة الأعراف، الآيتان (150، 151).

(3) سورة الأعراف، الآية (154).

جميعًا، وألا تغرهم الحياة الدنيا، فيغيروا ويبدلوا فيها نظير مال يأخذونه، وأخبرهم أن الذي لا يحكم بما جاء في التوراة من عند الله فهو كافر.

يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1].

وقد ذكر القرآن الكريم بعض الأحكام التي وردت في التوراة، فذكر عقب روايته لقصة ابني آدم اللذين قتل أحدهما الآخر، أنه من أجل ذلك حكم الله على بنى إسرائيل أن قتل أي نفس- بغير أن يكون قتلها قصاصًا أو بسبب إفسادها في الأرض- أن يعتبر هذا العمل قتلًا لكل الناس- فالنفس الواحدة عند الله تساوى الناس أجمعين، ويكون ذنب قاتل النفس مساويًا لقتل كل الناس، وكذلك ثواب من ينقذ إنسانًا من الهلاك يكون مساويًا عند الله لإنقاذ البشرية كلها: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ ......﴾[2].

ثم ورد فيها بعد ذلك: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[3].

وعلى الرغم من الأحكام الواضحة القاطعة المذكورة في التوراة، فإن اليهود كانوا يهربون منها، ويذهبون إلى الرسول محمد ﷺ ليحكم بينهم على وفق أهوائهم كما

(1) سورة المائدة، الآية (44).

(2) سورة المائدة، الآية (32).

(3) سورة المائدة، الآية (45).

ظنوا أول الأمر، كتلك الحادثة التي رويت عن عبد الله بن عمر (رضى الله عنهما) وخلاصتها أن يهوديين زنيا فجاء اليهود بهما إلى رسول اللهﷺ - هربًا من حكم الرجم الوارد في التوراة-، فقال الرسولﷺ لهم: ما تجدون في التوراة في هذا الشأن؟ قالوا: نفضحهما ويجلدان، فقال عبد الله بن سلام- وهو يهودي أسلم-: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم[1]. فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، وقد قال الله تعالى لرسولهﷺ عن هذه الحادثة وأمثالها: ﴿.....فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾[2].

ثم وبخهم الله على تركهم ما في التوراة من أحكام قائلًا لرسوله ﷺ: ﴿ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[3].

وكما حاولوا إخفاء آية الرجم حاولوا أن يدعوا أن النبيﷺ أحل طعامًا كان محرمًا في ملة إبراهيم (عليه السلام)، فكذَّب الرسول ﷺ ادعاءهم وبين أن كل الطعام كان حلًّا في ملة إبراهيم إلا ما حرمه إسرائيل (يعقوب) عليه السلام على نفسه تقربًا إلى الله من قبل أن تنزل التوراة على موسى (عليه السلام). ثم تحداهم أن يأتوا بالتوراة ويتلوا ما فيها من حرام وحلال من الأطعمة ليتبين لهم كذب دعواهم، يقول تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ

---

(1) انظر: تفسير ابن كثير (ج2 ص58).

(2) سورة المائدة، الآية (42).

(3) سورة المائدة، الآية (43).

ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[1].

وقد ذكر القرآن الكريم- في آيات عدة- تحريف اليهود لكتابهم لمصالح دنيوية كما قال في سورة البقرة: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ الآية (79).

كما ذكر القرآن الكريم في آية أخرى أن طائفة من اليهود كانوا عندما يقرءون التوراة يميلون بقراءتهم عن الحق، ويحرِّفون الكلام عن مواضعه، فيأتون بعبارات من لدنهم تطابق أهواءهم، فيظن السامعون أنها آيات من التوراة، وأنها كلام الله، بينما هي من تأليفهم وتحريفهم، فهم يكذبون على الله عامدين متعمدين.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[2].

وقد شبه الله أحبار اليهود وعلماءهم الذين درسوا التوراة، ولكنهم لم يعملوا بما فيها واتبعوا أهواءهم، بالحمار الذي يحمل الكتب فوق ظهره، فهو لا يستطيع قراءتها ولا فهم ما فيها، ولكنها عبء ثقيل على ظهره، كذلك هؤلاء العلماء لم يعملوا بما في التوراة، وهم يعلمون ما فيها، فأصبحت وقرًا على ضمائرهم.

قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[3].

---

(1) سورة آل عمران، الآية (93).

(2) سورة آل عمران، الآية (78).

(3) سورة الجمعة، الآية (5).

ويذكر التاريخ أن التوراة قد ضاعت عندما وقع الغزو البابلي لليهود، وسيقوا إلى بابل أسرى وبقوا في الأسر البابلي قرونًا، ولما عادوا إلى بلادهم أخذوا يكتبون ما توارثوه من أفواه آبائهم مما زعموا أنه التوراة، وند يكون بعضه صحيحًا.

والتوراة التي بين أيدينا الآن مكونة من خمسة أسفار يسمونها أسفار موسى (عليه السلام) الخمسة، وهي:

1- سفر التكوين: ويتناول قصة الخلق وتاريخ البشرية حتى مجيء يعقوب (عليه السلام) وأولاده إلى مصر.

2- سفر الخروج: ويتناول حياة اليهود في مصر حتى خروج موسى (عليه السلام) وبنى إسرائيل منها.

3- سفر اللاويين: ويتناول الأحكام الشرعية.

4- سفر العدد: ويتناول قبائل بنى إسرائيل وأعدادهم، وحياة موسى (عليه السلام) وبني إسرائيل في التيه (سيناء).

5- سفر التثنية: وهو استمرار لتاريخهم في سيناء حتى وفاة موسى (عليه السلام).

الزبور:

والزبور في اللغة: هو الكتاب مأخوذ من الزَّبر بمعنى الكتابة، وجمعه: زُبُر، وكان الله يذكر إيتاء داود (عليه السلام) الزبور في القرآن الكريم على سبيل المدح له وعلامة من علامات التفضيل كما جاء في قوله تعالى: ﴿ ....وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۢ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[1].

وقد ذكر الله في القرآن الكريم معنى من المعاني التي تناولها الزبور، وهو أن الأرض- والمراد أرض الجنة- يرثها الصالحون من عباد الله: أي لا يستمتع بها أحد

---

(1) سورة الإسراء، الآية (55).

غيرهم، يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[1].

وقال القرطبي في تفسيره: الزبور كتاب داود (عليه السلام)، وكان مائة وخمسين آية ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام، وإنما هي حِكَم ومواعظ، وكان داود (عليه السلام) حسن الصوت، فإذا أخذ في قراءة الزبور اجتمع إليه الإنس، والجن، والطير، والوحش لحسن صوته.

وكتاب (داود) الموجود في عصرنا يسمى المزامير، جمع: مزمور، ولعله سمي كذلك لأن داود كان يترنم به، ويؤكد هذا ما يذكر أحيانًا تحت عنوان (المزمور) أنه لإمام المغنين داود (عليه السلام)، وهو يشتمل على مائة وخمسين مزمورًا كما قال القرطبي كلها حِكَم وأمثال ودعوات، ولكن ليست كلها لداود، بل بعضها لسليمان (عليه السلام)، وبعضها لحكيم منهم اسمه (آساف) .

الإنجيل:

وهو الكتاب الذي أُنزل على عيسى (عليه السلام)، والإنجيل كلمة يونانية بمعنى (البشارة)، ولعل المراد بها البشارة بالرسول محمد ﷺ كما جاء في قوله تعالى: ﴿...وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .... ﴾[2]، وهذا التفسير لا يقره المسيحيون الذين ورثوا الأناجيل المحرَّفة.

وقد ورد ذكر الإنجيل في القرآن الكريم مرات عديدة، وقد وصفه الله بأن فيه الهداية لمن اتبعه، والنور الذي يجلى ظلمة الشك والكفر، وأنه جاء ليصدق أحكام التوراة ويحيي ما درس منها، وأن فيه الهداية والمواعظ لمن يتقى الله، وأمر أتباع الإنجيل أن تكون أحكامهم موافقة لما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله حق عليه

---

(1) سورة الأنبياء، الآية (105).

(2) سورة الصف، الآية (6).

أن يوصف بالفسق، ويكون مصيره مصير الفاسقين، يقول تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۞ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[1].

وقد جمع الله التوراة والإنجيل معًا في عدة مواضع لأن المقام كان مقام خطاب أهل الكتاب، وتوجيههم، وتوبيخهم على انحرافهم عن جادة الحق.

فقد جادل اليهود الرسول ﷺ في أن إبراهيم (عليه السلام) كان على دينهم فهو يهودي مثلهم، وقالت النصارى مثل ذلك، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].

كما ذكر لهم أنهم لو كانوا التزموا بأحكام التوراة والإنجيل التي ذكرها الله فيهما وطبقوها فيما بينهم لأتاهم الخير من كل جهة، ثم ذكر أن منهم جماعة ملتزمة بما في التوراة والإنجيل، ولكن الكثرة الغالبة عنهم انحرفت عن منهج الله وساء عملهم، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[3].

ثم يقول لهم بعد ذلك: إنه لن يقبل عنهم إيمان أو عمل إلا إذا التزموا بما في التوراة والإنجيل- ومن ذلك الإيمان بمحمد ﷺ الذي جاء ذكره فيهما- والخطاب موجه لأهل الكتاب المعاصرين للرسول ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ....﴾[4].

---

(1) سورة المائدة، الآيتان (46، 47).

(2) سورة آل عمران، الآية (65).

(3) سورة المائدة، الآية (66).

(4) سورة المائدة، الآية (68).

وقد قرر الله أن رحمته الواسعة هي للمتقين المؤمنين الذين يخرجون زكاة أموالهم ويتبعون الرسول ﷺ الذى وصفه الله بأنه نبي أُمِّيٌّ (والأمي يطلق على من لا يعرف الكتابة ويطلقه اليهود على من ليس منهم)، وأن اسمه مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، وأنه يدعوهم إلى عمل الخير، وتجنب الشر، ويحل لهم بعض أطايب الطعام التي حرمها الله عقابًا لهم على عصيانهم، كما يحرم عليهم المطاعم الخبيثة مثل لحم الخنزير والميتة، ويخفف من قيود الأحكام الثقيلة التي كانت مفروضة عليهم، ثم يعد الذين اتبعوه وناصروه واتبعوا هدى قرآنه بأن لهم الفوز والفلاح، يقول تعالى: ﴿ .....وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

كما ذكر القرآن الكريم وصف التوراة والإنجيل لأصحاب الرسول ﷺ فالتوراة وصفتهم بأنهم أشداء على أعدائهم من الكفار، لكنهم رحماء فيما بينهم، وهم يكثرون من الركوع والسجود تعبدًا لله وطلبًا لرضوانه، حتى طبع كثرة السجود علامة على جباههم تميزهم عن غيرهم. وأما الإنجيل فقد شبههم- في بدايتهم القليلة العدد، الضعيفة القوة، ثم كثرة عددهم بعد ذلك وقوتهم- بزرع في بداية إنباته عندما يخرج أغصانه الصغيرة الضعيفة لكنها لا تلبث أن تقوى وتشتد، وتغلظ، وتستوى على سيقانها فيكون منظرًا معجبا للزراع، وقد فعل الله بهم ذلك ليغيظ بهم الكفار، يقول تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ

---

(1) سورة الأعراف، الآيتان (156، 157).

فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾[1].

وكما حرَّف اليهود التوراة حرَّف النصارى الإنجيل كما أخبرت بذلك بعض الآيات السابقة: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ... ﴾، فالآية تفيد أنهم لم يقيموهما، ولم يلتزموا بأحكامهما، بل ادعى النصارى عكس ما جاء في الإنجيل، فالإنجيل نزل من الله على عيسى (عليه السلام) داعيًا إلى عبادة الله الواحد، واتباع نهجه، وقد قال عيسى ذلك لأتباعه مرارًا: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾[2]، وقال لهم: ﴿ ....إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾[3]، ولكنهم حرفوا ما قاله عيسى، وقالوا: إنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة مع الله، فحكم الله بكفرهم حيث قال: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ..... ﴾[4]،﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾[5].

والإنجيل الذى بين أيدينا الآن يشهد بأنه محرف، فهو ليس إنجيلًا واحدًا، بل أربعة أناجيل: إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، وهذه الأناجيل الأربعة فرضت على النصارى من أناجيل كثيرة لم يعجب ما فيها أعضاء المؤتمر المسكوني الأول الذي عقد للنظر في هذا الأمر- ربما لأن فيها ما ينكر ألوهية عيسى إنكارًا صريحًا وتعتبره عبد الله، ويبشر برسالة محمد ﷺ مثل إنجيل برنابا الذي صودر

(1) سورة الفتح، الآية (29).

(2) سورة آل عمران، الآية (51).

(3) سورة مريم، الآية (31).

(4) سورة المائدة، الآية (72).

(5) سورة المائدة، الآية (73).

وأخفى، ثم ادُّعى بعد ذلك أنه إنجيل مزور، واختفت الأناجيل الكثيرة بأمر الكنيسة.

والأناجيل الأربعة لا توحي لقارئها بأنها من عند الله فهي روايات عن حياة عيسى (عليه السلام)، ومواعظه، ومعجزاته، فما أشبهها -عندنا- بكتب السيرة النبوية والأحاديث، بل إن بين بعضها تضاربًا صارخًا لا يمكن التوفيق بينه إلا بالإقرار بأن أحدهما كاذب، فقد ذكر إنجيل متى أن بين داود والمسيح ستة وعشرين جدًّا، وذكر لوقا أن بينهما واحدًا وأربعين جدًّا، وأورد كل منهما أسماء هؤلاء الأجداد، وهكذا سقط خمسة عشر جدا عند (متى)، فأيهما الصحيح؟ وذكر متَّى أن عيس من نسل سليمان بن داود، وقال لوقا: إنه من نسل ناثان بن داود فأيهما الصحيح؟ وقد أحصى الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) مائة وأربعة وعشرين اختلافًا في التوراة والأناجيل كما أحصى فيها أغلاطًا كثيرة.

القرآن:

هو كتاب الله المعجز الخالد على مر الزمان، أنزله الله على نبيه محمدﷺ ليكون معجزة له، ودليلًا على صدق رسالته، وتحدى البشرية جمعاء أن يأتوا بمثله وأن يستعينوا بالجن في ذلك، ولكنهم لن يستطيعوا ذلك مهما بذلوا من جهد: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1].

ثم تحدى العرب أن يأتوا بعشر سور مثله- مفتريات كزعمهم-: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ..... ﴾[2]، وزيادة في التحدي سمح لهم أن يستعينوا بكل من يستطيع معاونتهم في ذلك: ﴿...وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ

(1) سورة الإسراء، الآية (88).

(2) سورة هود، الآية (13).

ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

وأخيرًا يتحداهم بالإتيان بسورة من مثل هذا القرآن، وأن يدعوا آلهتهم المزعومة لتعينهم في ذلك إن كانوا صادقين في زعمهم أن محمدًا ﷺ افترى القرآن من عنده: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[2]، ولكنهم عجزوا عن الإتيان بأي من هذه التحديات، ويعجبني رأى أبداه الكاتب توفيق الحكيم وهو أنهم- حتى لو أتوا بشيء مماثل له- لم يكونوا قد فعلوا شيئًا لأنهم يكونون- حينئذ- مقلدين للأصل، والتقليد- مهما بلغ إتقانه- لن يزحزح الأصل عن مكانته من السبق والابتكار.

ولكن ما وجه إعجاز القرآن؟ وهل هو حجة على العجم كما هو حجة على العرب؟ كان الأقدمون يقولون: إن إعجازه يرجع إلى سمو بلاغته، وفصاحة ألفاظه، واتساق نظمه، وتناسق عباراته، وتنوع معانيه، وأصالة أفكاره، وخلوه من التنافر والتباين على الرغم من نزوله على مدى أكثر من عشرين عامًا وقد ذكر الله ذلك في قوله تعالى: ﴿ ....وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[3]، ولكن هذه أمور تجعله حجة على العرب وحدهم، يقول الأقدمون: إنه إذا كان قد عجز العرب عن الإتيان بمثله وهم أساطين البلاغة، وأمراء البيان، فإن ذلك دليل على أنه ليس بقول البشر، وهذه حجة ملزمة للبشرية جمعاء.

ولكن بعد التقدم العلمي في العصر الحديث أدرك العلماء أن في القرآن إشارات إلى حقائق علمية لم يكشفها العلم إلا في عصر متأخر. فهذا دليل على أن القرآن معجز للبشرية في كل زمان ومكان، وأن كل عصر من العصور يكتشف فيه دلائل على

---

(1) سورة هود، الآية (13).

(2) سورة البقرة، الآية (23).

(3) سورة النساء، الآية (82).

صدقه، وأنه من عند الله، وأنه لم يكن في طوق بشر في زمن محمد ﷺ أن يذكر مثل هذه الحقائق.

كيفية نزول القرآن:

لم ينزل القرآن كما نزلت الكتب السابقة دفعة واحدة، بل نزل منجمًا تنزل الآيات منه على حسب ما يقتضيه موقف من المواقف، وقد أنكر مشركو قريش ذلك وتساءلوا: لِمَ ينزل دفعة واحدة؟ وأجابهم الله: بأن في نزوله منجمًا حكمًا بالغة، فهو ينزل ليثبت به قلب الرسول ﷺ كلما اشتدت عليه المحن، وقد أنزله على تؤدة وتمهل ليتيسر فهمه وحفظه، وكذلك ليجيب على تساؤلات المشركين واعتراضاتهم، يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا * وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴾[1].

وكان ينزل به جبريل (عليه السلام) الذي وصفه الله بالروح الأمين في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ * عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴾[2].

وكلما نزل عليه بآيات أرشده إلى المكان الذي يضعها فيه من السورة، وكان يقرأ معه ما نزل عليه من القرآن في كل سنة في شهر رمضان- وهو الموعد الذي بدأ فيه نزول القرآن: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ .... ﴾[3]- وفي السنة الأخيرة من حياة الرسول ﷺ قرأه جبريل (عليه السلام) عليه مرتين.

يروى البخاري ومسلم: (أن جبريل (عليه السلام) كان يلقى الرسول ﷺ في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن)، وكان الرسول ﷺ عندما يلقنه جبريل (عليه السلام) ما أوحى الله به إليه يحرك لسانه بما يقوله جبريل حرصًا على حفظه، فنهاه الله عن

---

(1) سورة الفرقان، الآيتان (32، 33).

(2) سورة الشعراء، الآيات (192-194).

(3) سورة البقرة، الآية (185).

ذلك لأنه تكفل بجمعه له في صدره دون جهد منه، يقول تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾[1].

أسماء القرآن:

وللقرآن أسماء عدة توحي بمكانته وبرسالته، فمن هذه الأسماء ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ يقول تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[2]، وسمى بذلك لأنه فرق بين الحق والباطل، وبين الإيمان والشرك.

ومن أسمائه: ﴿ٱلذِّكْرَ﴾ ، يقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[3]، وسمى بذلك لأن فيه ذكر الله، ولأن من معاني الذكر الشرف كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[4]: شرف لك ولقومك.

ومن أسمائه أيضًا: ﴿التَنزِيلُ﴾، يقول تعالى: ﴿...وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5]، وذلك لأنه منزل من عند الله.

ومن أسمائه ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾، يقول تعالى: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[6].

وقد أشاد الله بالقرآن الكريم فقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ

---

(1) سورة القيامة، الآيات (16-18).

(2) سورة الفرقان، الآية (1).

(3) سورة الحجر، الآية (9).

(4) سورة الزخرف، الآية (44).

(5) سورة الشعراء، الآية (192).

(6) سورة البقرة، الآيتان (1، 2).

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وتتضح عظمة الثناء في الآيات السابقة في عدة أمور:

أولًا: أنه بدأ الثناء بالقسم على ما يقول.

ثانيًا: جعل القسم بأمور عظيمة، وإن كان لا يدرك عظمتها الناس في تلك العصور، وهي (مواقع النجوم)، ولكننا الان أصبحنا ندرك نتيجة للتقدم العلمي في عصرنا عظمة هذه المواقع، وتباعد بعضها عن بعض بمسافات تقدر بآلاف السنين، وربما ملايين السنين الضوئية، وعظمة المقسم به تدل على عظمة المقسم عليه.

ثالثا: وصفه بالكرم: أي أنه حوى كل المعاني المجيدة العظيمة.

رابعًا: جعله في كتاب مكنون: أي مصون عن التغيير والتبديل، قال بعض المفسرين: يعني اللوح المحفوظ، وقال آخرون: المصحف الذي كتب فيه القرآن.

خامسًا: قرر ألا يمس هذا الكتاب إلا المطهرون وهم الملائكة على التفسير الأول، والناس على التفسير الثاني، بمعني أنه لا يمس المصحف إلا الذي على طهارة وهو المتوضئ، وأخيرًا ذكر أنه منزل من سيد العالمين ومالكهم ومربيهم.

كما جعل الله القرآن المهيمن على الكتب السابقة، والمصدق لما فيها، فما جاء في هذه الكتب، فإذا كان معناه موافقا لما جاء في القرآن حكمنا أنه من عند الله، وإذا كان مصادمًا لما جاء في القرآن الكريم حكمنا أنه من وضع البشر، أما إذا كان لم يأت مثله في القرآن ولم يصادم شيئًا مما ورد في القرآن توقفنا عن الحكم عليه، فقد يكون من عند الله، وقد لا يكون.

يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ

---

(1) سورة الواقعة، الآيات (75-80).

﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾[1]، والمراد بقوله: ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أي ما تقدمه من الكتب السابقة.

وعد الله بحفظ القرآن:

تكفل الله بحفظ القرآن الكريم من أي تحريف أو تغيير أو تبديل، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[2]، وهو وعد لم يحظ به إلا القرآن الكريم من بين الكتب السابقة، إذ وكل حفظها إلى أصحابها إذ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾[3]، فالنبيون، والربانيون، والأحبار استحفظهم الله على التوراة: أي وَكَّل إليهم أمر حفظها، وجعل مراقبة أي تغيير أو تبديل فيها مسئوليتهم، ولكن - لأنهم بشر - لم يتيسر لهم ذلك، فحرفت وبدلت كما ذكرت. وأما القرآن فمسئولية حفظه موكولة إلى الله، والله خير حافظًا؛ لذلك لم يلحق القرآن أي تغيير وتبديل، وكان الله يوفق كل جيل منذ عهد الرسول ﷺ أن يضع لبنة في صرح هذا الحفظ، فالرسول ﷺ لم يكتف بحفظ ما أوحاه جبريل (عليه السلام) إليه من الله، وجمعه في صدره، ثم تلقينه لمن يريد حفظه، بل كان له كُتَّاب يسمون (كُتَّاب الوحي) معروفون بنزاهتهم وأمانتهم وصدقهم، فيكتبون ما يوحي به إلى الرسول ﷺ أولًا فأولًا ويكتبونه على ما يتيسر لهم من جلد أو عظم أو حجارة وهو المتاح للكتابة في هذا الوقت. ولما توفي رسول الله ﷺ وخلفه أبو بكر (رضى الله عنه) أمر بجمع هذه المواد المكتوب عليها القرآن لتوضع في مكان أمين، وَوَكَّل هذه المهمة إلى بعض حفاظ القرآن الموثوق بأمانتهم وصدقهم وعلى رأسهم زيد بن ثابت

---

(1) سورة المائدة، الآية (48).

(2) سورة الحجر، الآية (9).

(3) سورة المائدة، الآية (44).

(رضي الله عنه)، وحفظت هذه المواد بعد وفاة أبى بكر وعمر في بيت حفصة بنت عمر أم المؤمنين (رضوان الله عليهم جميعًا).

وفي عهد الخليفة عثمان (رضي الله عنه) اتسعت الفتوحات الإسلامية، وبدأ يظهر اختلاف في قراءة بعض المسلمين، فدفع ذلك عثمان إلى أن يكتب مصحفًا يضم القرآن كله كما ورد عن الرسول ﷺ، وسمِّي بالمصحف الإمام، وكتب منه ست نسخ أرسلها إلى الأمصار لتكون مرجعًا للمسلمين.

وكان المصحف قد كتب – كعادة الكتابة العربية – دون وضع نقط فوق الحروف، أو تشكيل هذه الحروف، اعتمادًا على فهم العرب للكلمة في سياقها، ولكن لما كثر المسلمون من غير العرب، وخُشِيَ من التحريف، لجأوا إلى النقط والشكل بالطريقة التي نعرفها الآن.

ثم كان التقدم العلمي الهائل في عصرنا، فاستغل لحفظ القرآن على أشرطة التسجيل، وعلى أقراص الحاسوب، وصدق الله في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1]

---

(1) سورة الحجر، الآية (9).

الرُّسُـل

كان من عدل الله ورحمته بعباده، أن أرسل إليهم رسلًا، يهدونهم إلى الدين الحق، ويرشدونهم إلى عبادة الله، وكمال صفاته، وشمول ربوبيته للعالمين، وذلك أن البشر مهما سمت مداركهم، وارتقت معارفهم، واستنارت بصائرهم فلن يهتدوا بعقولهم القاصرة إلى معرفة الله، ومعرفة ما يريده من خلقه، بل تظل رؤيتهم للدين، ولعبادة الله رؤية ضبابية، والله قد اقتضت حكمته عندما خلق هذا النوع من المخلوقات البشرية - وكلفه المسئولية، وحمله الأمانة التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها إشفاقًا من تبعاتها – أن يحاسب كل امرئ على ما قدمت يداه، فيجزى المحسن خيرًا على إحسانه، ويجزى المسيئ نكالًا على إساءته، وكي لا يكون للناس على الله حجة أرسل إليهم الرسل، وقد صرح القرآن بذلك في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾[النساء: 163-165].

فمهمة الرسل الأولى هي التبشير والإنذار، التبشير بالجنة والنعيم المقيم لمن آمن بالله وعمل صالحًا، والإنذار بالعذاب الأليم لمن كفر بالله وجحد وحدانيته وأساء عمله. وقد قرر الله في القرآن أنه لن يعذب أحدًا من البشر إلا بعد إرسال الرسل إليهم،

يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [1] وهذا عدل من الله وفضل. ولكى يظل الإيمان بالله متصلًا كانت الرسل تترى على البشرية تدعوهم إلى الإيمان بالله، وتخوفهم سوء العاقبة إن لم يثوبوا إلى رشدهم، ويؤمنوا بربهم، يقول: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [2]: أي لم تمض أمة من الأمم إلا جاءهم رسول منهم يبين لهم ما يريد الله منهم.

ومعنى هذا أن الله – عز وجل – أرسل رسلا لا يعرف عددهم إلا الله، وأنه أرسلهم إلى جميع أرجاء المعمورة شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، وإذا كان الله قد اقتصر على ذكر عدد محدد منهم فما ذلك إلا لأن القرآن – مع دعوته الشاملة لجميع الأمم– قد نزل على قوم معينين هم العرب وأراد أن يقيم عليهم الحجة أولًا، فكان من المناسب أن يذكر لهم رسلًا من البيئة المحيطة بهم، لعدم جدوى ذكر رسل من أماكن لم يسمعوا عنها، فيكون مجال الإنكار لديهم أوسع.

وقد ذكر الله في القرآن الكريم خمسة وعشرين رسولًا، أولهم آدم (عليه السلام)، ورسالة آدم مؤكدة، فهو رسول إلى ذريته يبشرهم وينذرهم، ويهديهم إلى الدين القويم، وقد تضمنت آيات في سورة الأنعام أسماء ثمانية عشر رسولًا، وهذه الآيات هي: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۞ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الآيات (83 – 86).

(1) سورة الإسراء، الآية (15).

(2) سورة فاطر، الآية (24).

بقي ستة رسل وردت أسماؤهم في أماكن متفرقة في القرآن، وهم أربعة من العرب هم: هود (عليه السلام): ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾[1]، وصالح (عليه السلام): ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾[2]، وشعيب (عليه السلام): ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾[3]، ومحمد ﷺ ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾[4]، واثنان آخران هما: إدريس، وذو الكفل (عليها السلام): ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾[5] ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴾[6].

والرسل هم أفضل خلق الله على الإطلاق، ومع ذلك فإن بعضهم أفضل من بعض عند الله، وترتفع درجات بعضهم عن بعض كما صرح بذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾[7]، وقد صرحت الآية بأفضلية اثنين من الرسل وهما موسى (عليه السلام) الذى لم تذكر الآية اسمه، وإنما حددته بأفضلية لم ينلها غيره من الرسل وهي تكليم الله إياه، وعيسي (عليه السلام) الذي صرحت بذكر اسمه وبينت ما خصه الله به من فضل وهو المعجزات الباهرات من إحياء الموتى وشفاء الأكمه والأبرص، ومن تأييده من الله بروح القدس وهو جبريل (عليه السلام).

وأما فضل محمد ﷺ فالقرآن فيه مديح كثير له يبين فضله، ورفع الله من شأنه،

---

(1) سورة الأعراف، الآية (65).

(2) سورة النمل، الآية (45).

(3) سرة العنكبوت، الآية (36).

(4) سورة الفتح، الآية (29).

(5) سورة مريم، الآية (56).

(6) سورة ص، الآية (48).

(7) سورة البقرة، الآية (253).

ويكفى أنه جعله خاتم النبيين: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[1]

ووصفه بالخلق العظيم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[2] .

وذكر أنه يصلى عليه هو وملائكته، ودعا المؤمنين إلى الصلاة والسلام عليه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[3] .

كما خص الله بالذكر خمسة رسل عند حديثه عن أخذه من النبيين ميثاقهم وهو الالتزام بأداء رسالتهم على خير وجه، ودعوة الناس إلى عبادة الله وحده، وهؤلاء الرسل الخمسة كما بينت الآية: (محمد، ونوح، وإبراهيم، وموسي، وعيسي – عليهم الصلاة والسلام–)، ويطلق على هؤلاء الخمسة: أولو العزم لأنهم جاهدوا في الله حق جهاده، ولم تلن عزيمتهم أمام جبروت قومهم، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾[4]

وقد أشاد الله برسل آخرين وامتدحهم منهم إدريس (عليه السلام) ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾[5]

وإسماعيل (عليه السلام): ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾[6] وداود (عليه السلام): ﴿وَٱذْكُرْ

---

(1) سورة الأحزاب، الآية (40).

(2) سورة القلم، الآية (4).

(3) سورة الأحزاب، الآية (56).

(4) سورة الأحزاب، الآية (7).

(5) سورة مريم، الآيتان (56، 57).

(6) سورة مريم، الآية (54).

عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[1] وقد امتن عليه بإعطائه (الزبور): ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾.

وسليمان (عليه السلام): ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[2].

فهؤلاء الرسل الخمسة والعشرون هم الذين ذكرهم القرآن، ولكنه بين أن هناك رسلًا آخرين لم يقصصهم، فعلى المسلم أن يؤمن أن الله أرسل رسلًا كثيرين، لكل أمة رسول، وأن هؤلاء الرسل كانوا يأتون متتابعين ليبشروا ولينذروا، وأن يؤمن بهؤلاء الخمسة والعشرين إيمانًا محددًا بكل رسول منهم.

وقد قرر الله في القرآن أنه كان يبعث الرسول من نفس الأمة المرسل إليها حتى يكون مألوفًا لديهم، معروفًا بسجاياه الحميدة، عالمًا بلسان قومه فيخاطبهم به ليفهموه، يقول تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[3]

وكان القرآن – وهو يقص قصة الرسول يذكر أنه أخوهم ليكون أقوى في الحجة عليهم، يقول تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ الآية (65)، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ الآية (73)، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ الآية (85).

واعتبر الله إرسال الرسول من نفس قومه منة امتن الله على عباده بها، يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[4].

وكانت دعوة الرسل جميعهم واحدة هي الدعوة إلى عبادة الله وحده، وقد تكرر ذكر ذلك في القرآن في عدة سور:

---

(1) سورة ص، الآية (17).

(2) سورة ص، الآية (30).

(3) سورة إبراهيم، الآية (4).

(4) سورة آل عمران، الآية (164).

ففي سورة الأعراف يقول الله – عز وجل – عن نوح (عليه السلام): ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ الآية (59).

وعن هود (عليه السلام): ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ الآية (65).

وعن صالح (عليه السلام): ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ الآية (73).

وعن شعيب (عليه السلام): ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ الآية (85).

وكان رد كل الأمم على رسلها هو الإنكار والتوبيخ والرمي بالجنون، فيُعَجِّب الله في سورة (الذاريات) من تلك الأمم التي تَجْبَهُ رسولها بالاتهام بالسحر أو الجنون، ويسأل: هل أوصى بعضهم بعضا بهذه التهمة؟ ثم يقرر أن سبب ذلك هو ما اتصفوا به من طغيان، يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۞ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ الآتيان (52، 53)، كما كان التقليد الأعمى للآباء سببًا من أسباب عصيانهم الرسل: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[1]. فيوضح الرسول لهم أن ما جاء به خير مما كان يسير عليه آباؤهم، فيركبهم العناد ويصرون على كفرهم: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[2].

وقد ذكر الله حوارًا دار بين الرسل وقومهم يوضح منطق الرسل الواضح المستقيم وعناد الكافرين ومكابرتهم، وهذا الحوار لم يجر في وقت واحد بين الرسل مجتمعين وبين قومهم، بل هو فحوى حوار كل رسول مع قومه، وهو يسير على نسق واحد،

---

(1) سورة الزخرف، الآية (23).

(2) سورة الزخرف، الآية (24).

لأن طبيعة الدعوة واحدة، وطبيعة الكافرين متشابهة، فالرسل حينما جاءوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان ردت أقوامهم أيديهم إلى أفواههم، أي أظهروا علامات تدل على ضيقهم وغيظهم من هؤلاء الرسل، وأعلنوا الشك في دعوتهم، وأصروا عليه دون أن يتيحوا لهم فرصة للبيان والتوضيح فلا ييأس الرسل، بل يسألونهم سؤالًا لا يمكن لعاقل أن يجيب عليه بالإيجاب وهو: هل في الله شك وهو الذي خلق هذا الكون العظيم بأرضه وسمائه، والذي يدعوهم إلى الإيمان به ليغفر لهم ذنوبهم، ويبقيهم إلى أن يحين أجلهم يستمتعون بنعمه؟ فلا يجيبون على السؤال، بل يتهمونهم بأنهم بشر مثلهم يدعون كذبا الرسالة ليصدوهم عن عبادة آلهة آبائهم، ويتحدونهم أن يأتوهم بمعجزة واضحة تبين صدق دعواهم، فيرد عليهم رسلهم غير نافين تهمة البشرية عنهم، بل يثبتونها ويبينون لهم أن من فضل الله أن يمن على من يشاء من عباده بالرسالة، وأما الإتيان بمعجزة فهي بيد الله إن شاء أذن بها وإن شاء لم يأذن، وليس لنا إلا أن نتوكل على الله، ونترك الأمر له يوجهنا حيث نشاء، وما الذي يمنعنا من التوكل على الله وهو صاحب الفضل علينا؟ فقد هدانا إلى طريق الإيمان، وإننا لن نكف عن دعوتكم إلى عبادة الله وحده، وتذكيركم الدائم بأحقيته بهذه العبادة، ولئن آذيتمونا بسبب هذه الدعوة لنصبرن على أذاكم حتى يحكم الله بيننا، وسنظل في توكلنا عليه، وترك الأمر له يصرفه كما يشاء، ونستمر في جهادنا ضد الكافرين به.

يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۞ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ

وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [1].

فيلجأ الكافرون إلى سلاح التهديد، سلاح العاجز عن مقارعة الحجة بالحجة، فيهددونهم بإخراجهم من أرضهم إلا أن يعودوا إلى ملتهم.. ملة الكفر والضلال، ولكن الله يوحى إلى رسله ألا ييئسوا ولا يحزنوا فسوف يهلك هؤلاء الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم، وستكون هذه الأرض التي يهددونهم بإخراجهم منها ملكا للرسل والمؤمنين بهم الذين آمنوا بالله واتقوه، يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۞ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [2].

لقد وعد الله رسله بالنصر في نهاية الأمر إما بإهلاك المكذبين وتدميرهم، وإما بهدايتهم إلى الإيمان بهم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ [3].

وكان الإهلاك والتدمير هو النتيجة الحتمية لكثير من الأمم المكذبة لرسلها كما حدث مع قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وقو لوط، وآل فرعون وغيرهم، يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [4].

ويقول تعالى ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۞ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [5].

---

(1) سورة إبراهيم، الآيات (9 – 12).

(2) سورة إبراهيم، الآيتان (13 – 14).

(3) سورة الصافات، الآيات (171 – 173).

(4) سورة المؤمنون ، الآية (44).

(5) سورة فاطر، الآيتان (25 – 26).

ويقول تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾[1].

فعقيدة المسلم التي أمر بها القرآن هي الإيمان برسل الله جميعهم دون تفريق بين أحد منهم في أصل الرسالة بمعني أن يقو: هذا رسول، وذاك غير رسول، بل الإيمان بهم جميعا كما ذكروا في القرآن الكريم. وقد وعد الله المؤمنين الذين آمنوا برسله ولم يفرقوا بين أحد منهم بالأجر العظيم وغفران الذنوب، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[2].

ولا يتنافى هذا مع تفضيل بعض الرسل على بعض، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء من رسله كما ذكر في القرآن الكريم، فعلينا أن نقف عندما جاء في القرآن الكريم، ولا نفاضل نحن بين الرسل اقتداء بقول الرسول الكريم ﷺ لأصحابه: (لا تفضلوني على يونس بن متى)، وقد اختار (يونس) (عليه السلام) لأنه النبي الذي فر من قومه لما كذبوه، وعاقبه الله على ذلك بإلقائه في البحر، وابتلاع الحوت له، فقد يظن بعض المسلمين أن ذلك مدعاة لنقصان قدره عند الله، ولكن الله أخبرنا أنه كان من المسبحين، وأنه من أجل ذلك عفا عنه، وكافأه بأن أرسله إلى قومه مرة أخرى ليسعد بإيمانهم جميعًا بالله: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[3].

***

---

(1) سورة الفرقان، الآيات (37-39).

(2) سورة النساء، الآية (152).

(3) سورة الصافات، الآيات (143 – 148).

اليوم الآخر

وهذا هو الركن الخامس من أركان العقيدة كما ورد في الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [١]، وقد استغرق الحديث عنه أجزاء كثيرة من القرآن الكريم، بسبب جحود المشركين وكفرهم بالبعث.

وقد سمى الله هذا اليوم أسماء كثيرة، أشهرها ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إذ ورد هذا الاسم في القرآن الكريم ما يقرب من سبعين مرة مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾[2]، يليها في الكثرة ﴿السَّاعَةَ﴾، فقد وردت في القرآن الكريم حوالي أربعين مرة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [3].

كما ذكر القرآن الكريم له أسماء أخرى تعبر عن معنى من معاني الحساب أو العذاب أو اليقين أو الفجاءة، منها: ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ[4]﴾[5]، ﴿يَوْمُ الْفَصْلِ[6]﴾: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[7]، و ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ[8]﴾: ﴿رَفِيعُ

(1) سورة النساء، الآية (136).

(2) سورة البقرة، الآية (85).

(3) سورة الحجر، الآية (85).

(4) الدين: الجزاء والحساب.

(5) سورة الفاتحة، الآية (4).

(6) الفصل بين العباد وصدور أحكام السعادة والشقاوة.

(7) سورة الصافات، الآية (21).

(8) التلاق: أي التلاقي، أي تلاقي العباد للفصل بينهم وحسابهم

ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[1]. ﴿ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾[2]: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾[3]، و﴿ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾[4]:﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾[5]، كما سماه الله﴿ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ...﴾[6]، والتغابن: تفاعل من الغبن، وهو أخذ حق الآخرين. والمعنى مجازى؛ فكأن المؤمنين عندما أخذوا أماكنهم في الجنة، ولم يتركوا للكافرين مكانًا فيها فكأنهم غبنوهم وأخذوا حقهم الذي كان لهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر.

وسماه ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴾ ، والحاقة: هي التي تظهر الحق وتوضحه، فعندما يبعثون يتأكد لهم أن البعث حق: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾[7]. كما سماه الله ﴿ ٱلطَّآمَّةُ ﴾ ، وهي الداهية التي تفوق ما سواها: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ *يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾[8]، وسماه ﴿ ٱلصَّآخَّةُ﴾ ، وهي الصيحة الشديدة التي تصم الآذان، وهي النفخة الثانية يوم القيامة: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾[9]، وسماه ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ لشدة هولها، فهي التي تقرع الناس: أي تضربهم بشدة: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ

---

(1) سورة غافر، الآية (15).

(2) الآزفة: من أزف، أي قرب، لأن الساعة قريبة.

(3) سورة غافر، الآية (18).

(4) التناد: أي التنادي: أي ينادى في هذا اليوم على العباد ليلقوا جزاءهم.

(5) سورة غافر، الآية (32).

(6) سورة التغابن، الآية (9).

(7) سورة الحاقة، الآيات (1-3).

(8) سورة النازعات، الآيتان (34، 35).

(9) سورة عبس، الآيتان (33، 34).

﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾[1].

ومن أسمائها الواردة في القرآن: ﴿ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾، لأنها تغشى الخلائق بأهوالها، قال تعالى ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾[2].

وقد تناول القرآن في حديثه عن اليوم الآخر جدال الكفار حول البعث، وإقامة الأدلة لهم على إمكانه، وقيام الناس من قبورهم، واجتماعهم في المحشر، وحساب الله لهم، وجزاء الكافرين وما سيلقونه من عذاب في النار، وجزاء المتقين ووصف النعيم المعد لهم. وسأتناول في هذا الباب كثيرًا من الآيات القرآنية التي تحدثت عن هذا.

---

(1) سورة القارعة، الآيات (1-3).

(2) سورة الغاشية، الآية (1).

البعث

أنكر المشركون البعث إنكارًا شديدًا، وذكر القرآن أقوالهم في هذا الشأن، فقد قال الكافرون- كما حكى عنهم القرآن: ﴿ ...إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾[1]، وأكدوا إنكارهم بالقسم في سورة أخرى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ... ﴾[2]. ورد الله عليهم بأن هذا وعد الله الحق وأن إنكار الكفار هذا بسبب جهلهم: ﴿ ...بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3].

كما كذب الله ادعاءهم إنكار البعث، وطلب من رسوله ﷺ أن يقسم لهم بربه أنهم سيبعثون، ويخبرون بأعمالهم التي سيحاسبهم الله عليها، وذلك أمر هين على الله تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[4].

وكان من أسباب إنكارهم للبعث استبعادهم أن يعودوا إلى الحياة بعدما صاروا عظامًا وحطامًا، ولكن الله يأمر رسوله ﷺ أن يبين لهم قدرة الله العظيمة، فلو صاروا مواد صلبة كالحجارة أو الحديد، أو أكبر من ذلك من الكائنات الجامدة الشديدة الصلابة، والتي تستعصى على قبول الحياة فالله قادر على إعادتهم، فحينما يسمعون هذا الكلام -يخبر الله رسوله ﷺ- يميلون رءوسهم دهشة واستنكارًا ويسألون: متى

(1) سورة الأنعام، الآية (29).

(2) سورة النحل، الآية (38).

(3) سورة النحل، الآية (38).

(4) سورة التغابن، الآية (7).

يكون هذا؟ فيأمر الله رسوله ﷺ أن يجيبهم بأنهم من المتوقع أن يكون قريبًا، قال تعالى ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۞ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾[1].

ومرة أخرى يتعجبون من أن تبعث أجسادهم بعد أن هلكت، وضاعت في الأرض، فيعقب الله على تعجبهم هذا بأن سر إنكارهم وعجبهم هو أنهم لا يؤمنون بلقاء ربهم الذي خلقهم، ويطلب من رسوله ﷺ أن يخبرهم أن هناك ملكًا للموت موكلًا لكل واحد منهم سيقبض روحه، ثم يرجعون جميعًا إلى ربهم بعد البعث ليجازيهم على إنكارهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾[2].

ويسخرون من الرسول ﷺ فيقول بعضهم لبعض: تعالوا لتروا رجلًا يخبر بأن الناس إذا ماتوا، وتمزقوا وتفتتوا ولم يبق منهم أثر سيخلقون من جديد، ثم يتهمونه بعد ذلك إما بالكذب على الله أو الجنون، فيرد الله عليهم بأنه بريء من هاتين التهمتين، ولكن الكافرين منحرفون عن الحق انحرافًا كبيرًا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ۞ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾[3].

ويعجب الكفار أن يبعثوا بعد موتهم هم وآباؤهم الأولون الذين ماتوا من آماد بعيدة بعد أن يصير الجميع عظامًا وترابًا، فيطلب الله من رسوله ﷺ أن يجيبهم بأنهم

---

(1) سورة الإسراء، الآيتان (50، 51).

(2) سورة السجدة، الآيتان (10، 11).

(3) سورة سبأ، الآيتان (7، 8).

سيبعثون وهم صاغرون أذلاء، فالأمر لا يعدو أن يكون صيحة هائلة تحيى الجميع فيقومون ينظرون، قال تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ * قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ * فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾[(1)].

ويقسم الله للكافرين بيوم القيامة الذي ينكرونه، كما يقسم لهم بالنفس المؤمنة ذات الضمير الحي الذي يلومها على أي انحراف عن الحق بأنهم سيبعثون، ثم يستنكر إنكارهم لجمع العظام بعد أن بليت، فيذكر لهم أنه قادر على ذلك، بل على ما هو أدق وأصعب وهو تسوية البنان- أي طرف الإصبع- وخلق خطوطه التي لا يمكن أن تتشابه في شخص مع شخص آخر، وهو ما نعرفه اليوم بالبصمة.

قال تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ * وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾[(2)].

نلاحظ أن القرآن حذف جواب القسم لوضوحه وتقديره: لتبعثن. كما نلاحظ هذه الإشارة العلمية التي لم تعرف إلا في العصر الحديث، وهي تسوية البنان، تلك البصمة العجيبة التي لا تتشابه مع مخلوق آخر منذ بدء الخليقة إلى نهاية الدنيا.

وملاحظة أخيرة: ﴿لَآ﴾ هنا زائدة لتوكيد القسم.

***

(1) سورة الصافات، الآيات (16-19).

(2) سورة القيامة، الآيات (1-4).

الأدلة القرآنية
على إمكان البعث

يحفل القرآن بالأدلة الواضحة على إمكان البعث، وكلها قريبة من الأذهان ملموسة محسوسة. ومن هذه الأدلة الخلق الأول، فالذي خلق الخلق أول مرة قادر على أن يعيدهم مرة أخرى، فالإعادة أسهل من الخلق لأنها تعيد شيئًا له مثال سابق، ولكن الخلق يأتي على غير مثال، يأتي من عدم، فيذكر الله لهم أنه لم يعجزه الخلق الأول، فكيف يعجز عن إعادتهم، لقد التبس الأمر عليهم، فدفعهم إلى الشك في قدرة الله على خلق الناس من جديد، قال تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[1].

وقد ساق لهم أمثلة متعددة تدل على انفساح مدى قدرته التي لا تحدها حدود وتتمثل في مظاهر متنوعة تشمل خلق الإنسان نفسه، وخلق النار من الشجر الأخضر، وخلق الجبال الضخمة، والسموات العالية إلى غير ذلك.

أتى أحد المشركين بعظام إنسان ميت قد بلى وتفتت إلى رسول الله ﷺ وسأله: أيبعث ربك هذا بعد ما بلى واصبح رميمًا!؟ فقال له: (نعم)، وأنزل الله قرآناً يعجِّب من أمر هذا الرجل الذي يأتي بهذا المثل دليلًا على إنكار البعث، وينسى خلق الله إياه من العدم، ويتساءل الكافر: من يمكنه أن يحيى هذه العظام بعد ما رمت وبليت!؟ ويكون جواب الله له: الله يحييها لأنه هو الذي أنشأها أول مرة، وهو قادر على خلق أي شيء يريده، ثم يذكر له بعض الأمثلة التي تدل على طلاقة قدرة الله، فهذا الشجر الأخضر

(١) سورة (ق)، الآية (15).

من يتصور أن تخرج منه نار؟ ولكن هذا هو الواقع الذي يشاهدونه كل يوم، فهناك نوع من الشجر يسمونه المرخ، وشجر آخر يسمونه العفار، ويتخذون من هذين النوعين قطعًا يحكون بعضها ببعض فتخرج نارًا ينتفعون بها، فالذي خلق من هذه الأشجار الخضراء نارًا يستخدمونها للتدفئة أو لإنضاج الطعام ألا يقدر على أن يعيدهم!؟ وهذه السموات والأرض في ضخامتها قد خلقها الله أفلا يقدر خالقها أن يعيدهم!؟ بلى، وهو الخلاق العليم، ثم يذكر الله لهم سر الخلق الذي لا يتطلب أكثر من كلمة واحدة هي: كلمة ﴿كن﴾ فيكون ما أراده الله. يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ۝ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ۝ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ۝ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[2].

ويخاطب الله المشككين في البعث، فيذكر لهم مثلين:

المثل الأول: مأخوذ من حياة الإنسان التي بدأت منذ آدم (عليه السلام) الذي خلقه من تراب، ثم تكرر خلقهم من نطفة من منى وضعت في رحم أنثى، فصارت علقة: أي قطعة متجمدة من الدم، ثم صارت مضغة: أي قطعة من اللحم تشبه اللحم الممضوغ، وبعض هذه المضغ بدأ يتشكل فيه خلق الإنسان وبعضها لم يتشكل بعد، ثم يخرج الجنين إلى الحياة طفلًا، ثم يكبر فينمو ويشتد عوده فيصير شابًا، وبعض الناس يموتون في مرحلة الشباب، وبعضهم يعمر حتى يبلغ أرذل العمر الذي يصير

(1) سورة يس، الآيات (78-82).

(2) سورة الأحقاف، الآية (33).

في المرء عاجزًا مثقلًا بالأمراض، وقد يفقد الذاكرة فلا يعلم شيئًا بعد أن كان يعلم الكثير، فهذا مثل يدل على قدرة الله على البعث، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ ... ﴾[1].

والمثل الآخر معروف لديهم أيضًا وهو الأرض الهامدة الخامدة التي لا يمكنها أن تنبت زرعًا، ولكن إذا أنزل الله عليها الماء اهتزت بالحيوية ونشاط البذور فتخرج زرعًا ينمو ويكبر، وتنبت من كل صنف من النبات ما يبهج النفس ويسر العين، فهذان دليلان على أن الله هو الحق، وأنه يبعث الموتى، وأن الساعة أمر حتمي، وهو قادر على كل شيء: ﴿ ...وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾[2].

ويؤكد ذلك مرة ثانية فيذكر الأرض التي يحييها الله فتنبت بسبب المطر بعد مواتها، ويذكر أن الذى أحياها هو الذي يحيى الموتى، وهو قادر على كل شيء، يقول تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾[3].

وقد ذكر الله ثلاث قصص في القرآن تبين إمكان البعث، وقدرة الله على ذلك، فذكر قصة الرجل الصالح الذى مر على قرية مخربة مهدمة لا أثر للحياة فيها، وأخذ

---

(1) سورة الحج، الآية (5).

(2) سورة الحج، الآيات (5-7).

(3) سورة فصلت، الآية (39).

يتعجب ويتساءل: كيف يحيي الله هذه القرية بعد موتها؟ فتوفاه الله من ساعته ولبث في موته مائة عام، ولما بعث ظن أنه لم يلبث إلا ساعات في نومه ورجح هذا عنده أن طعامه باق على حالته لم يتغير، ولكن الله لفته إلى حماره فوجده عظامًا بالية وطلب الله منه أن يركز نظره على الحمار فوجد العظام تكسى لحمًا، ثم يقوم الحمار من موته كما كان، يقول تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (1).

والقصة الثانية: أن نبي الله إبراهيم (عليه السلام) سأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، فسأله الله: هل هذا السؤال بسبب نقص الإيمان؟ فأجاب: بل لاطمئنان القلب، فطلب الله منه أن يحضر أربعة طيور، ثم يقطعهن أجزاء ويضع على كل جبل مما حوله جزءًا، ثم يدعو هذه الطيور فتحضر إليه بعد أن تضامت أجزاؤها، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (2).

والقصة الثالثة: هي قصة أصحاب الكهف الذين أووا إلى الكهف فرارًا ممن يريدون أن يفتنوهم عن دينهم، فألقى الله عليهم النوم ثلاثمائة سنة وتسعًا، ثم استيقظوا وهم يظنون أنهم ناموا يومًا أو بعض يوم، وأرسلوا أحدهم ليشتري لهم طعامًا، فعرف الناس أمرهم، وعلموا أنهم ناموا كل هذه المدة وكان هذا هو الهدف من نومهم، وهو أن يعلم

---

(1) سورة البقرة، الآية (259).

(2) سورة البقرة، الآية (259).

الناس أن الله قادر على أن يحيي الموتى، وأن وعده ببعث الأموات حق، وأن الساعة لا شك في وقوعها، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ...﴾[1].

علم قيام الساعة عند الله:

فقد جعلها الله ضمن خمسة أمور استأثر بعلمها، وهي: (علم الساعة، وإنزال الغيث، وعلم ما في الأرحام من أجنة، وما تكسبه كل نفس مستقبلًا، ومكان موت كل نفس)، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[2].

وقد عبر الله عن إخفاء الساعة عن سائر المخلوقات في كثير من الآيات، لعل أقواها تأكيدًا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾[3]، فقوله: ﴿...أَكَادُ أُخْفِيهَا ...﴾ مبالغة في شدة الإخفاء، لأن المعنى المراد أكاد أخفيها عن نفسي، وهو تعبير شائع في المبالغات العربية، كقولهم: كتمت السر عن نفسي، وكما جاء في الحديث الشريف: (ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه).

وقد بيَّن الله سر إخفائها عن الناس وذلك ليجتهدوا في الطاعات ويبتعدوا عن المعاصي كي لا يفاجئوا بوقوع الساعة التي لا يدرون موعدها. أما لو عرفوا موعدها فسيتهاونون في الطاعات، ويسرفون في المعاصي حتى يقترب موعدها فيتوبوا، وقد ذكر الله اقتصار علم الساعة عليه في آية أخرى:

---

(1) سورة الكهف، الآية (21).

(2) سورة لقمان، الآية (34).

(3) سورة طه، الآية (15).

﴿...إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ...﴾ (1).

وكان المشركون كثيري الأسئلة عن موعد الساعة إشفاقًا أو سخرية، فقد سألوا رسول الله ﷺ عن موعد حدوثها كما في سورة الأعراف، فطلب الله منه أن يخبرهم بأنه لا يعلم ذلك إلا الله، ولا يملك إظهارها في وقتها إلا هو، وأن أمر الساعة ثقيل على كل من في السموات والأرض لما سوف يحدث فيها من شدائد وأهوال، وأن الساعة لا تأتيهم إلا فجأة، ويقول الله لرسوله ﷺ: إن كثرة أسئلتهم لك عن الساعة لاعتقادهم أنك دائم السؤال عنها، فأخبرهم أنه لا يعلمها إلا الله وإن جهل ذلك أكثر الناس، وأخبرهم أنك لا تعلم الغيب بدليل أنه يصيبك ما يصيب الناس من خير وشر، فلو كنت تعلم الغيب لدفعت الضر عن نفسك، واستجلبت الخير لها، وأعلمهم أن مهمتك هي الإنذار بالعذاب لمن كفر، وتبشير المؤمن المطيع، يقول تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الآيتان (187، 188).

ويسألونه ثانية- ربما مستهزئين هذه المرة- فيجيبهم- بأمر الله-: إنما علمها عند الله ويخبره الله أن ذلك ربما يكون قريبًا: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (2).

ويذكر الله في آية ثالثة أن الساعة قد تكون قريبًا، ويبين أن الذين يتعجلون حدوثها هم الكافرون لأنهم لا يصدقون ما سوف يلقونه فيها من خزى وهوان، وأما المؤمنون فيشفقون من وقوعها لأنهم يصدقون ما أخبر الله عما سيقع فيها، فهم يخشون

(1) سورة فصلت، الآية (47).

(2) سورة الأحزاب، الآية (63).

الحساب والعذاب، ثم يقرر الله أن المتشككين في أمر الساعة في ضلال بعيد عن الحق والصدق: ﴿... وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ۞ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[1].

وفي سورة (النازعات) يذكر الله سؤال الناس رسول الله ﷺ عن موعد حدوث الساعة؟ ويجيب الله عن هذا السؤال: بأنه ليس من مهمة رسوله، فهو لم يرسل ليخبر الناس عن موعد الساعة، فعلم ذلك عند الله لا يعلمه غيره، وما واجب الرسول ﷺ إلا إنذار الناس ليؤمنوا بالله ويخشوا هذا اليوم، وإن هؤلاء المكذبين بالساعة يوم يشاهدون أهوالها ينسون كل ما استمتعوا به في الدنيا، وكأن عمرهم في الدنيا لم يجاوز نصف يوم، يقول تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۞ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ * إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ الآيات (42-46).

وقد ذكر القرآن الكريم إنكار الكافرين صراحة لقيام الساعة في عدة آيات، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[2].

وقال على لسان صاحب الجنتين الذي أخذه الغرور عندما دخل جنته فظن أنه لا يمكن أن يلحقها الخراب أو الفناء، وأعلن شكه في قيام الساعة: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۞ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ...﴾[3].

وقرر الله في سورة الفرقان- وهو يرد على المشركين الذين كفروا برسوله ﷺ -

(1) سورة الشورى، الآيتان (17، 18).

(2) سورة سبأ، الآية (3).

(3) سورة الكهف، الآيتان (35، 36).

بأنهم كذبوا بالساعة، وقد أعد الله نارًا حامية لمن كذب بالساعة، يقول تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ الآية (11).

وقد أكد القرآن الكريم أن الساعة لن تأتي إلا بغته دون أن يتوقع أحد مجيئها، وعندما يفاجئون بمجيئها يتحسرون على تفريطهم عندما لم يؤمنوا برسالة نبيهم: ﴿...حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ....﴾[1].

وفي آية أخرى: يذكر الله أن الساعة ستأتيهم فجأة فتذهلهم وتحيرهم ويعجزون عن ردها، ولا يمهلهم الله ليؤمنوا: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[2].

وفي آية ثالثة: يذكر الله أن الكفار سيظلون في شكهم من القرآن حتى تفجأهم الساعة: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ...﴾[3].

ومع ذلك فإن مجيء الساعة لا يستغرق جزءًا من ثانية، وقد شبه الله سرعة مجيئها بلمح البصر أو هو أقرب من ذلك، لأن الله قادر على كل شيء، ولا يحتاج لأكثر من قول ﴿كن﴾ فيكون: ﴿... وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4].

أشراط الساعة:

وعلى الرغم من أن الساعة تأتي بغتة كما مر، فإنها لها أشراطًا – أي علامات – كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ...﴾[5].

---

(1) سورة الأنعام، الآية (31).

(2) سورة الأنبياء، الآية (40).

(3) سورة الحج، الآية (55).

(4) سورة النحل، الآية (77).

(5) سورة محمد، الآية (18).

ويقول المفسرون: إن هذه العلامات نوعان: علامات صغرى ومن أهمها بعثة الرسول ﷺ، فقد قال ﷺ: (بعثت أنا والساعة كهاتين)، وأشار بإصبعه الوسطى والتي تليها: أي أن المسافة بينه وبين قيام الساعة قصيرة كالمسافة بين إصبعيه المتجاورتين، ولا يفهمن أحد أن قرب الساعة يعنى عشرات السنين أو مئات السنين، لا، فإن القرب مقيس بزمان خلق الكون وهو يقدر بمئات الملايين أو آلاف الملايين من السنين فالقرب نسبى، كما يقول تعالى: ﴿...وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[1]، وكما يقول تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[2]، فإذا قلنا: بقى على قيام الساعة أيام فقد يعنى هذا آلاف السنين.

ومن علامات الساعة الصغرى: كثر المال، وشيوع الترف والانحلال، والفجور، وكثرة الفساد كما هو شائع في عصرنا.

وأما علامات الساعة الكبرى- أي المنذرة بقيام الساعة قريبًا- فقد ورد أنها عشر كما جاء في الحديث الذى رواه مسلم في (صحيحه): عن حذيفة بن أسيد الغفاري (رضي الله عنه) قال: اشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفته ونحن نتذاكر أمر الساعة، فقال: (لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم عليه السلام، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا).

وقد ورد في القرآن الكريم أربع علامات منها: هي نزول عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج، والدابة، والدخان، وسيقتصر حديثي عليها لأنها من موضوع الكتاب:

---

(1) سورة الحج، الآية (47).

(2) سورة المعارج، الآية (4).

نزول عيسى بن مريم:

ورد في القرآن الكريم إشارة غير صريحة عن هذه العلامة في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [1]، وهذه الآية قد يفهم منها أن عيسى (عليه السلام) سينزل، ويؤمن به أهل الكتاب قبل موته- أي عيسى- وقد لا يفهم منها ذلك إذا اعتبرنا أن الضمير في ﴿ مَوْتِهِۦ ﴾ يعود إلى الكافر من أهل الكتاب، ويكون المعنى عندئذ أنه ليس أحد من اليهود والنصارى إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى، وبأنه عبد الله ورسوله، وذلك حين يعاين ملائكة الموت، لكن لا ينفعه إيمانه، قال ابن عباس (رضى الله عنهما): (لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى، قيل له: أرأيت إن ضربت عنق أحدهم؟ قال: يلجلج بها لسانه).

لكن التفسير الأول هو الأصح:

أولا: لأنه يناسب سياق الآيات في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى (عليه السلام) وصلبه، وموافقة النصارى لهم في ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك وإنما شُبِّه لهم فقتلوا الشبه.

ثانيًا: لأن هذا التفسير يتفق مع ما روته الأحاديث المتواترة من أنه سينزل فيقتل المسيح الدجال، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية: أي لا يقبلها من أهل الكتاب، فليس أمامهم إلا الإسلام أو القتل، فمن الأحاديث الدالة على ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: (والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وحتى تكون السجدة له خيرًا من الدنيا وما فيها).

---

(1) سورة النساء، الآية (159).

خروج يأجوج ومأجوج:

وهما قبيلتان مفسدتان في الأرض، استجار منهما قبائل ضعيفة بذي القرنين، وطلبوا منه أن يبنى بينهم وبين هؤلاء المفسدين سدًّا، فبناه لهم من الحديد وذائب النحاس، وأخبرهم أنه سيظل سدًّا منيعًا واقيًا لهم من هجمات المفسدين إلى أن يشاء الله إزالته فيزول، يقول تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا * قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾[1].

ثم قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ الآيتان (96، 97).

فعلم من هاتين الآيتين أن من علامات الساعة خروج قبائل يأجوج ومأجوج المفسدة، وهم يسرعون من كل اتجاه، واقترب الوعد الحق -أي يوم القيامة- فإذا أبصار الكافرين شاخصة إلى أعلى دهشة وتحيرًا، يدعون على أنفسهم بالهلاك لغفلتهم عن هذا اليوم الذى لم يعملوا صالحًا استعدادًا له، ولم يؤمنوا بربهم، وأقروا على أنفسهم أنهم ظلموا أنفسهم بهذه الغفلة.

يروى أبو سعيد الخدري (رضى الله عنه): (سمعت رسول الله ﷺ يقول: تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس كما قال الله عز وجل: ﴿... وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فيغشون الناس، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم،

---

(1) سورة الكهف، الآيات (98-93).

ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يابسًا، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان هاهنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد في حصن أو مدينة، قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقى أهل السماء، ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمى بها إلى السماء، فترجع إليه مخضبة بالدماء -للبلاء والفتنة- فبينما هم على ذلك بعث الله عز وجل دودًا في أعناقهم كنغف[1] الجراد الذي يخرج في أعناقه فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس، فيقول المسلمون: ألا أحد يشرى[2] نفسه لنا فينظر ما فعل هذا العدو، فينحدر رجل منهم محتسبًا نفسه، قد أوطنها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض، فينادى: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويسرحون مواشيهم، فما يكون لهم رعى إلا لحومهم، فتشكر عنهم أحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط) رواه الإمام أحمد وابن ماجه.

وأقف هنا وقفة قصيرة لأسأل: ما المراد بيأجوج ومأجوج؟ هل المراد القبيلتان اللتان كانتا على عهدي ذي القرنين؟ أو المراد المعنى المجازي ليأجوج ومأجوج: أي القوم المفسدون أيا كان نوعهم أو جنسهم؟ الآية تحتمل المعنيين وكذلك الحديث.

فإذا كان المراد المعنى الأول: أي قبيلتي يأجوج ومأجوج فهل تحقق خروجهم أو لم يحن حينه بعد؟ أعتقد أن خروجهم قد تحقق وتكون قبائل يأجوج ومأجوج هي قبائل المغول التي اجتاحت العالم، وأحرقت الأخضر واليابس، ودمرت الممالك الإسلامية، ولم يوقف زحفهم إلا (قطز) سلطان مصر فألحق بهم أول هزيمة في (عين جالوت)، ولعله هو الذي يعنيه الحديث بالرجل الذي شرى نفسه ليعرف خبرهم، ثم

---

(1) دود طوال سود وغبر.

(2) يبيع: أي يضحى بنفسه.

استمر المسلمون في إلحاق الهزيمة بهم حتى زالت قوتهم، ودمرت أركان مملكتهم. وقد يتعرض معترض: كيف يصح هذا المعنى والساعة لم تقم بعد؟ ولكن لا وجه لاعتراضه لأن الزمن نسبى كما قلت. وقد تمر آلاف السنين قبل قيام الساعة ويكون من علامتها مع ذلك خروج يأجوج ومأجوج الذي حدث فعلًا، وهذا شبيه بقوله ﷺ الذي مر: (بعثت أنا والساعة كهاتين).

وأستبعد بل أكاد أنفى- أن يكون يأجوج ومأجوج ما زالوا يعيشون وأنهم سيخرجون بعد ذلك، وذلك لأن التقدم العلمي كشف كل زاوية في الأرض، ولم يترك فيها شبرًا إلا رسمه وصوره، وقوم لهم قدرة على الإفساد بالحجم الذى ذكره القرآن والحديث لا يمكن أن يكونوا من الضآلة بحيث إنهم ليخفون عن أعين الأقمار الصناعية.

وأما المعنى المجازي- وهو أن المرادأقوام مفسدون- فأرجح أنه المراد من الآية، ويتمثل في دولة مثل أمريكا التي لديها من وسائل التدمير والتخريب ما هو كفيل بالقضاء على كل مظاهر الحياة في الكرة الأرضية، وهى دولة تضطهد الإسلام والمسلمين في كل مكان في العالم، وقنابلها النووية كفيلة بتجفيف مياه البحار كما جاء في الحديث، وليس هذا المعنى غريبًا على الاستعمال اللغوي، فنحن نقول أحيانًا: جاء التتار، ونقصد جماعة من طبعها الإفساد.

الدابة:

وقد ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[1]: أي أن الله سبحانه وتعالى إذا قضى بإهلاك الكافرين وتعذيبهم، وعدم قبول توبتهم أخرج لهم دابة من الأرض: أي حيوانًا لم تحدد الآية شكله ونوعه، ولا شك أنها ستكون هائلة غريبة الشكل، يقول ابن كثير في تفسيره: هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله،

(1) سورة النمل، الآية (82).

وتبديلهم الدين الحق، قيل: تخرج من مكة، وقيل من غيرها، فتكلم الناس عن فساد أحوالهم أو تكلمهم بالنص القرآني: ﴿...أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

وقد أورد ابن كثير عدة أحاديث عن الدابة منها هذا الحديث: ذكر رسول الله ﷺ الدابة، فقال: (لها ثلاث خرجات من الدهر، فتخرج خرجة من أقصى البادية، ولا يدخل ذكرها القرية- أي مكة- ثم تكمن زمنًا طويلًا، ثم تخرج خرجة أخرى فيعلو ذكرها في أهل البادية، ويدخل ذكرها القرية، ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها: المسجد الحرام، لم يرعهم إلا وهى ترغو بين الركن والمقام تنقض عن رأسها التراب، فارفض الناس عنها شتى ومعًا، وبقيت عصابة من المؤمنين، وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله، فبدأت بهم، فجلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدري، وولت في الأرض لا يدركها طالب، ولا ينجو منها هارب، حتى أن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة، فتأتيه من خلفه فتقول: الآن تصلى؟ فيقبل عليها فتسمه في وجهه، ثم تنطلق، ويشترك الناس في الأموال ويصطحبون في الأمصار، يعرف المؤمن من الكافر، حتى إن المؤمن ليقول: يا كافر اقضني حقي، وحتى إن الكافر ليقول: يا مؤمن اقضني حقي).

ومنها: (تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان (عليهما السلام)، فتخطم أنف الكافر بالعصا، وتجلى وجه المؤمن بالخاتم، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر).

الدخان:

وقد ورد ذكره في سورة سميت باسمه (الدخان)، قال تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]، فالله تعالى يأمر رسوله ﷺ أن ينتظر اليوم الذي تمتلئ السماء بدخان واضح ظاهر يشاهده الجميع، ويغطيهم من

(1) سورة الدخان، الآيتان (10، 11).

كل جهة فيصبح الناس قائلين: ﴿ ...هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

وقد اختلف المفسرون في أمر هذا الدخان، هل هو آية للرسول ﷺ ينذر بها قريشًا، وتكون هذه الآية قد مضت؟ أو هو علامة من علامات الساعة، ولم يحن حينه بعد، على الرأي الأول الصحابي الجليل عبد الله ابن مسعود (رضى الله عنه) الذي ذهب إليه جماعة يخبرونه أنهم سمعوا قاصًا يفسر هذه الآية، فيقول (أتدرون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام)، وكان ابن مسعود (رضى الله عنه) مضطجعًا ففزع وقعد وقال: إن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [1]. إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم. سأحدثكم عن ذلك؛ إن قريشًا لما أبطأت عن الإسلام، واستعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسنى يوسف (عليه السلام)، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان، فأُتِيَ رسول الله ﷺ وقيل له: يا رسول الله استسق لمضر، فإنها قد هلكت، فاستسقى لهم فسقوا، وأنزل الله قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ [2].

واستدل أصحاب الرأي الآخر بالحديث الذي ذكر علامات الساعة ومنها الدخان، كما رووا أحاديث أخرى منها حديث حذيفة بن اليمان (رضى الله عنه) الذي سأل فيه رسول الله ﷺ عن الدخان؟ فقال ﷺ بعد أن تلا آية الدخان: (دخان يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يومًا وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره).

---

(1) سورة (ص)، الآية (86).

(2) سورة الدخان، الآية (15).

وبتأمل هذه العلامات الأربع نرى أن العلامة الوحيدة التي أجمع المفسرون أنها لم تقع بعد هي: خروج الدابة، أما الدخان فمر ذكر الخلاف فيه، وأما يأجوج ومأجوج فيحتمل الحقيقة والمجاز، وأما نزول عيسى (عليه السلام) فالآية الواردة في شأنه تحتمل معنيين كما ذكرت، ولكن الأحاديث المتواترة صرحت بنزوله.

❊❊❊

أهوالُ القيامة

وتتمثل هذه الأهوال في موقفين يشترك فيهما جميع البشر وهما: الحشر والحساب، وموقف ثالث خاص بالكفار، وهو دخولهم نار جهنم.

النفخ في الصور والحشر:

ومعناه في اللغة: الجمع، والمراد به جمع الخَلْق ليحاسبهم الله على أعمالهم والحشر - كما أخبر القرآن الكريم - لا يكون إلا بعد النفخ في الصور، وهو برق عظيم موكَّل بالنفخ فيه أحد الملائكة وهو إسرافيل (عليه السلام)، وقد ورد ذكر الصور والنفخ فيه عدة مرات سأوردها وأعلق عليها بما يجلِّي معناها.

يقول تعالى في سورة الأنعام: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ الآية (73)، فالآية تنبئنا أن الله لا يقول إلا حقًّا، وأنه مالك الملك يوم ينفخ في الصور فلا ينازعه فيه منازع، فقد مات كل الخَلْق من إنس وجان وملائكة ولم يبق إلا وجه الله الكريم، وذلك بعد نفخة الصعق، وذلك أن الصور ينفخ فيه كما جاء في الحديث الشريف ثلاث نفخات: «نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام». وعندما يموت كل الخلائق يسأل الله إقرارًا بربوبيته وتفرده بالمُلْك: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾[1]، فلا يجيب أحد لأن الجميع موتى، فيجيب الله قائلًا: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[2]، ويقول تعالى في سورة الكهف: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ الآية (99)، وهي النفخة الأخيرة التي تجمع الناس للحساب.

(1) سورة غافر، الآية (16).

(2) سورة غافر، الآية (16).

ويقول تعالى في سورة طه: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ الآيات (102 - 104)، فالآيات تصور المجرمين، وقد قاموا فزعين بعد ما سمعوا النفخ في الصور، وقد ازرقت ألوانهم لشدة الهول، وأخذ يهمس بعضهم إلى بعض: إن إقامتنا في الدنيا كانت قصيرة فكأننا لم نمكث فيها إلا عشرة أيام والله يسمع نجواهم، ويعلم سرائرهم، ويقول أكملهم عقلًا وأنضجهم فكرًا: لا لم نمكث إلا يومًا.

وتصور آية في سورة «المؤمنون» علاقات الناس بعضهم ببعض عند النفخ في الصور، فقد تقطعت العلاقات بينهم فلا أنساب ولا أرحام، وذهل كل منهم عن الآخر فلا يسأل أحدٌ أحدًا شيئًا: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ الآية (101).

ويذكر الله في سورة النمل أن نفخة الصور الأولى إذا حدثت يعم الفزع المخلوقات جميعًا إلا من شاء الله لهم الأمان؛ ولذلك سماها الرسول ﷺ نفخة الفزع، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ[1]﴾، الآية(87).

وقد ذكر الله في آية أخرى بعد ذلك من يؤمنه من فزع هذا اليوم وهم الذين جاءوا بالحسنة - أي كانت أعمالهم كلها مخلصة حسنة صالحة-: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ الآية(89).

كما ذكر أيضًا الذين سيؤمنهم من هذا الفزع يوم القيامة، وهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى بسبب أعمالهم الصالحة مثل الأنبياء والملائكة والشهداء، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا

(1) أذلاء.

وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1]، وقد ذكر الله شيئًا مما يصيب المخلوقات الضخمة بعد هذه النفخة كالجبال، فقال: إنها تسير بسرعة رهيبة، ولشدة هذه السرعة يخيل للرائي أنها جامدة لا تتحرك - كما يحدث عندما تدور عجلة دورانًا سريعًا يخيل لمن يراها أنها لا تتحرك - بينما هي تمر مر السحاب بسرعة وإن كان المشاهد يظنها ثابتة، ولكن النتيجة هي زوالها، كما جاء في سورة طه عندما أخبر الله رسوله ﷺ جوابًا عن سؤال السائلين بعد نفخة الفزع - عن مصير الجبال - فأخبره أنه سينسفها نسفًا فيتركها أرضًا منخفضة مستوية لا عوج فيها ولا بروز، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ الآيات (105 - 107).

وقريب من هذا أيضًا ما ذكره الله في سورة الحاقة: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ الآيات (13 - 17)، فهذه الآيات بينت أن الجبال سترفع من مكانها ثم تُدَكُّ دكة واحدة.

وليست الجبال وحدها التي ستدك، بل معها الأرض أيضًا كما ذكرت الآيات انشقاق السماء، وما أصابها من تفكك، وزادت على ذلك ذكر الملائكة الذين يحيطون بجوانب السماء، ونصب العرش للحساب الذي يحمله ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله. وقد أكد الله النفخة في هذه الآيات بأنها واحدة وذلك لأن الأمر بالنفخات يصدر مرة واحدة وتحدث كل نفخة في موعدها، وليس معناها أنها نفخة واحدة فقط لأن القرآن صرح في آيات أخرى بأن النفخ سيكون أكثر من نفخة كما ورد في سورة الزمر التي ذكرت نفخة الصعق، ثم ذكرت نفخة القيام، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ

(1) سورة الأنبياء، الآيات (101 - 103).

فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ الآية (68).

وأتوقف قليلًا عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فهل يعني الاستثناء أن بعض المخلوقات ينجو من الصعق؟ لا، ولكن ما ورد في حديث طويل لرسول الله ﷺ عن هذا اليوم[1] يفهم منه أن بعض المخلوقات من الملائكة ستبقى بعض الوقت ثم تموت، قال ﷺ «... يأمر الله إسرافيل فينفخ نفخة الصعق، فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، فإذا هم قد خمدوا، وجاء ملك الموت إلى الجبار - عَزَّ وَجَلَّ - فيقول: يارب، قد مات أهل السموات والأرض إلا من شئت، فيقول الله - وهو أعلم بمن بقي -: فمن بقي؟ فيقول: يارب، بقيت أنت الحي الذي لا يموت، وبقي حملة العرش، وبقي جبريل وميكائيل، وبقيت أنا، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ليمت جبريل وميكائيل، فينطق الله العرش فيقول: يارب، يموت جبريل وميكائيل؟ فيقول: اسكت، فإني كتبت الموت على كل من كان تحت عرشي، فيموتان، ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار فيقول: يارب، قد مات جبريل وميكائيل، فيقول له: فمن بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحي الذي لا يموت، وبقي حملة عرشك، وبقيت أنا، فيقول تعالى: ليمت حملة العرش فتموت.. ثم يسأل ملك الموت، فمن بقي؟ فيقول: بقيت أنا، فيقول له: أنت خلق من خلقي، خلقتك لما رأيت فمت، فيموت ملك الموت... ثم يقول الله - بعد تفرده بالمُلْك -: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟ ثلاث مرات، فلا يجيبه أحد، فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[2].

كما ورد ذكر النفخ في الصور في سور أخرى وكلها تتحدث عن النفخة الثالثة، ففي سورة «يس»: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا

(1) «تفسير القرطبي» (ج 7 ص 5893) دار الغد.

(2) سورة غافر، الآية (16).

يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ الآيتان (51، 52)، فعند هذه النفخة يخرج الأموات جميعهم وهم يسرعون إلى لقاء ربهم. وقد عبَّر الله عن ذلك المعنى في قوله تعالى في سورة المعارج: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾، الآيتان (43، 44)، فالآية تصورهم في إسراعهم إلى الموقف بالصورة التي كانوا عليها في الدنيا عندما يسرعون إلى النصب الذي تذبح عليه القرابين للآلهة، ولكن حالهم في الآخرة مختلف، فقد انخفضت أبصارهم، وغشيهم الذل، ويقال لهم تبكيتًا: ذلك اليوم الذي وعدكم الله به ولم تصدقوا.

وفي سورة «ق» يذكر الله هذه النفخة، ويبين أن اليوم هو يوم تنفيذ الوعيد فيمن لم يصدق الإنذار: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾ الآية (20).

وأخيرًا في سورة النبأ يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ الآية (18): أي تجيئون جماعات للوقوف أمام ربكم.

انهيار الكون:

في هذا اليوم الهائل المخوف تنهار كل الكائنات الضخمة الشامخة التي طالما ملأت قلوب البشر مهابة ورهبة، فالسموات تتشقق وتنفرج وتتفتح أبوابًا لتنزل منها ملايين الملائكة، وقد وهت جوانبها، وضعفت أنحاؤها، والنجوم والكواكب والشمس والقمر طمست أنوارها، وانكدرت أضواؤها، والأرض التي كانت مهادًا للبشر، ومعاشًا لهم قد دكت دكًّا، ودكت معها الجبال التي كانت أوتادًا لها، ونسفها الله نسفًا، والبحار فجرت واختلط ملحها بعذبها، ثم ملئت نارًا.

والناس يخرجون من قبورهم بعد أن بعثرت، واختلط بعضها ببعض، يخرجون تكسو وجوههم الذلة، وقلوبهم تضطرب، وأعينهم زائغة، لا يدرون ما يفعل بهم، ولكنهم مع ذلك يسرعون، وهم في كثرتهم كالجراد المنتشر، وقد ذهل كل منهم عن

قريبه، بل عن أمه وأبيه وزوجه وأبنائه. لقد تقطعت بينهم الصلات وزالت الأنساب، بل إن الكافر يتمنى في هذا اليوم أن يقدم بنيه وزوجه وأخاه وعشيرته التي عاش في كنفها، بل كل من في الأرض، فداء لنفسه من العذاب الذي ينتظره في الآخرة: ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾[1].

إنه يوم هائل مروع، لا قبل للناس باحتماله، فعندما يرى الناس الساعة عند نفخة الفزع، يصيبهم ذعر شديد، فترى المرضعة الأم التي هي أشد الناس حنانًا على طفلها، تذهل عن طفلها وتتركه وحيدًا تبحث لها عن مَنْجًى، والحامل تسقط حملها من الفزع، ويصيب الناس ما يصيب السكارى من غياب العقل، وذهاب الفكر، وهم ليسوا سكارى، ولكن فزعهم من العذاب الشديد أسكرهم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[2].

إنه يوم يشيب الولدان كما قال الله عنه: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾[3].

وهو يوم عبوس قمطرير انتشر شره في كل اتجاه كما وصفه الله وهو يتكلم عن المؤمنين الذين كانوا يخشون شر هذا اليوم، فيطعمون الطعام لمن يحتاجه من المساكين واليتامى والأسرى، وقد تقبل الله عملهم فوقاهم شر هذا اليوم:

﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا

(1) سورة المعارج، الآيات (11 – 15).

(2) سورة الحج، الآيتان (1، 2).

(3) سورة المزمل، الآية (17).

﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[1].

وهو يوم تنفتح فيه العيون من الفزع فلا يمكن أن تغمض، ويسرعون، وقد ارتفعت رءوسهم وكفت عقولهم عن التفكير، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[2].

وقد انخلعت قلوبهم من الفزع، فتركت مكانها، وبلغت حناجرهم ولم يبق على خروجها من أجسادهم إلا لحظات ولكن هيهات: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾[3].

وقد صور الله في القرآن الكريم هذه المشاهد الهائلة لهذا اليوم تصويرًا يخلع القلوب، ويملؤها رعبًا وفزعًا تصويرًا حيًّا يجعل القارئ كأنه يعيش هذا اليوم، ويحس لفح جهنم، ويرى مظاهر الطبيعة التي كانت تملأ نفسه مهابة وجلالًا وهي تنهار، وتتفتت.

فهذه السماء الشامخة البالغة الضخامة والارتفاع، يطويها الله يوم القيامة بيمينه كما يطوى الكتاب ما كتب في صحائفه: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[4].

وفي سورة أخرى أضاف إلى السماء الأرض، فجعل الأرض بمن فيها وما فيها في قبضة يده، وطوى السموات في يمينه: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

---

(1) سورة الإنسان، الآيات (7 – 11).

(2) سورة إبراهيم، الآيتان (42، 43).

(3) سورة غافر، الآية (18).

(4) سورة الأنبياء، الآية (104).

وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[1]، وقد جاء الحديث شارحًا هذا الأمر، فقد روى ابن عباس (رضي الله عنهما) عن الرسول ﷺأنه قال: «يطوى الله السموات السبع بما فيها من الخليقة، والأرضين السبع بما فيها من الخليقة، يطوى ذلك كله بيمينه، ويكون في يده بمنزلة خردلة».

وهذه السموات العظيمة التي تحدى الله الكفار أن يجدوا فيها شقًّا أو صدعًا، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[2]. هذه السموات ستتشقق فتصبح كقطع الغمام التي تتناثر منه، وتنزل منها الملائكة ليوم الحشر، كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ الآية (25).

وقد تحدثت عدة سور عن انشقاق السماء يوم القيامة بتعبيرات مختلفة، فعبرت سورة الطور عن الانشقاق بالموْر: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ الآية (9)، وشبه انشقاقها في سورة الرحمن، وتتابع الألوان عليها بالوردة وبالأصباغ التي تتعدد ألوانها: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ الآية (47)، وشبهها في حالة السيولة التي ستصير إليها بالمهل وهو دردى الزيت: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾[3]، وعبَّر عن الانشقاق في سورة المرسلات بالانفراج: ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ الآية (9)، وفي سورة النبأ بالانفتاح: ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ الآية (19)، وعبَّر عنه بالانفطار في سورة المزمل: ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾، الآية (18)، وفي سورة الانفطار التي أعطيت هذا الاسم، والانفطار هو الانشقاق: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ الآية (1)، وسمى سورة بالانشقاق لانشقاق السماء: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ الآية (1).

---

(1) سورة الزمر، الآية (67).

(2) سورة الملك، الآيتان (3، 4).

(3) سورة المعارج، الآية (8).

وذكر في سورة التكوير أن السماء ستكشط يوم القيامة، أي تنزع عن مكانها المعهود، كما يكشط الجلد عن الحيوان المذبوح: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾ الآية (11).

وماذا عن الكائنات المعلقة في السماء كالمصابيح مع اختلافها قوة وإضاءة من السراج الوهاج وهي الشمس، والكوكب الدري كالقمر، والمصابيح الصغيرة المتلألئة كالنجوم. وهذا كله في رأي العين. أما في رأي العلم فهي كائنات هائلة، أو كتل نارية ضخمة تزيد عن حجم الأرض آلاف المرات أو ملايين المرات.

أما الشمس والقمر فيكوران، أي يلف بعضهما على بعض بعد أن يذهب نورهما: ﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾[1]، ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾[2].

وأما النجوم والكواكب فقد محى نورها، ومحق ضوءها، وتناثرت في كل اتجاه: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾[3]، ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾[4]، ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾[5]، وانتثار الكواكب بزوال الجاذبية التي كانت تمسك بها.

وأما الأرض الضخمة الهائلة التي يعيش عليها البشر فيدكها الله دكًّا فيسوى أعاليها بأسافلها: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾[6].

وتذكر آية أخرى أن الأرض وما عليها من جبال تثبتها تحمل جميعها فتدكان دكة واحدة: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾[7]، ويبدل الله بهذه الأرض أرضًا غيرها

---

(1) سورة القيامة، الآيتان (8، 9).

(2) سورة التكوير، الآية (1).

(3) سورة المرسلات، الآية (8).

(4) سورة التكوير، الآية (2).

(5) سورة الانفطار، الآية (2).

(6) سورة الفجر، الآية (21).

(7) سورة الحاقة، الآية (14).

ليجمع عليها الناس في المحشر: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[1].

وقد جاء في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: «يحشر الناس على أرض بيضاء كقرصة النَّقي[2] ليس فيها معلم لأحد».

وأما ما عليها من جبال فقد أخذت تسير بسرعة مذهلة كمر السحاب، ثم ينسفها الله نسفًا، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾[3]، ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾[4]، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾[5]، ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾[6] تفتت الجبال وانهارت كأنها قطع من صوف منفوش: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾[7].

وأما البحار فقد أرسل الله عليها ريحًا شديدة الحرارة أضرمتها نارًا: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾[8]، معنى ذلك أن الظواهر الطبيعية اخْتَلَّتْ، فتحول الماء الذي يطفى النار نارًا تلتهب، وكذلك فجَّر الله بعضها ببعض، فاختلط ملحها بعذبها: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾[9].

---

(1) سورة إبراهيم، الآية (48).

(2) المخ.

(3) سورة الكهف، الآية (47).

(4) سورة النمل، الآية (88).

(5) سورة طه، الآية (105).

(6) سورة النبأ، الآية (20).

(7) سورة القارعة، الآية (4).

(8) سورة التكوير، الآية (6).

(9) سورة الانفطار، الآية (3).

وأما الناس فقد بعثرت قبورهم: ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾[1]: أي تحركت في غير انتظام، وخرج منها آلاف الملايين مثل الجراد، وهم يسرعون نحو الموقف، وقد أخذت قلوبهم تضطرب، وأبصارهم ذليلة منكسرة، ويقول الكافرون: هذا يوم صعب شديد، قال تعالى: ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾[2]، ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾[3].

وقد شُغِلَ كل امرئ بنفسه، وتخلى عن أحب الناس إليه: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[4]، كما شغلوا عن أموالهم، فأهملوا إناث الأنعام العشار وتركوها: ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾[5]، وهذا مثل للأموال التي كانت تعتبر أهم ما لديهم في العصور السابقة، وخصوصًا مجتمعات الرعي كالجزيرة العربية حتى الوحوش أصابها الذعر من هول ذلك، فتجمعت حول الناس - وهي بطبعها نافرة منهم - لعلها تجد لديهم الحماية من هذا الفزع: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾[6].

---

(1) سورة الانفطار، الآية (4).

(2) سورة القمر، الآيتان (7، 8).

(3) سورة النازعات، الآيات (6 - 9).

(4) سورة عبس، الآيات (34 - 37).

(5) سورة التكوير، الآية (4).

(6) سورة التكوير، الآية (5).

الحساب

ثم تأتي المرحلة الخطيرة، مرحلة الحساب، وقد أعد المكان لهذه اللحظات الحاسمة، فقد جاء سبحانه وتعالى، وجاء الملائكة يقودهم جبريل (عليه السلام) فوقفوا صفوفًا يحيطون بالخلائق، كما نصب العرش الذي تحمله الملائكة - كما جيء بجنهم لتلقي الرعب في قلوب المجرمين، يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾[3].

ويُعرض الناس على ربهم، ويخاطب الكافرون بأن ساعة الجزاء قد دنت وأن هذا الجزاء عذاب مخزٍ بسبب إشراكهم بالله وادعائهم عليه غير الحق من الشريك والولد، واستكبارهم عن الإيمان به، لقد وقفوا أمام الله أفرادًا مجردين من كل ما كانوا يستمتعون به في الحياة الدنيا، بل جاءوا كيوم ولدوا، حتى الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تخلت عنهم فلم تشفع لهم، لقد انقطعت بينهم وبين آلهتهم كل الصلات وذهبت عنهم مزاعمهم الفاسدة فعرفوا الحقيقة، يقول تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ

---

(1) سورة النبأ، الآية (38).

(2) سورة الحاقة، الآية (17).

(3) سورة الفجر، الآيتان (22، 23).

زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[1].

وفي سورة الكهف يذكر الله أن الناس ستعرض صفوفًا أمام ربهم، ويخاطب الكافرون بأنهم جاءوا أمام الله وليس معهم أحد ينصرهم، بل جاءوا كيوم ولدوا وكانوا يزعمون أن هذا اليوم لن يأتي لأنهم ينكرون البعث، يقول تعالى: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾[2].

وقد يتساءل بعض من لم يتعمق الإيمان قلبه: كيف يمكن أن يحاسب الله آلاف الملايين بل ربما ملايين الملايين من البشر في لحظة واحدة؟ ولكن هذا التساؤل ينبغي أن يزول إذا علم المرء أن العقل البشري استطاع أن يخترع أنواعًا من الحاسوب (الكمبيوتر) في مقدورها أن تجرى عشرة آلاف مليون مليون عملية حسابية في الثانية، فكيف بخالق البشر سبحانه وتعالى؟

الكتب:

لقد أحصى الله أعمال الخلق من خير وشر في كتاب مبين كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[3]، وكما قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾[4]، والمراد بالإمام: الكتاب الأم، وهو اللوح المحفوظ.

هذه الكتب ستوزع على أصحابها يوم القيامة ويجد فيها الإنسان كل عمل عمله في حياته من خير أو شر ليحاسب هو نفسه، ويعلم أن ما وقع عليه من الجزاء كان

---

(1) سورة الأنعام، الآيتان (93، 94).

(2) سورة الكهف، الآية (47).

(3) سورة يونس، الآية (61).

(4) سورة يس، الآية (12).

عدلًا، يقول تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[1]، والمراد بالطائر: عمله، فهو ملازم له مسجل على عنقه لا يتخلى عنه. ويعجب الناس حينما يقرءون هذه الكتب فيجدونها قد حوت كل كبيرة وصغيرة من أعمالهم، ويتحسر الكفار، ويدعون على أنفسهم بالهلاك، وقد ملأ الخوف قلوبهم، يقول تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[2].

وطريقة استقبال الكتاب تدل على هوية صاحبه ومصيره، فالذي يستقبله بيمينه هو المؤمن الصالح الذي كتبت له الجنة، وأما من يستقبله بشماله أو من وراء ظهره فهو الكافر الذي وجبت له النار، يقول تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾[3]، ولنقارن بين حال الاثنين، فالأول حسابه يسير، وسيجتاز الامتحان بنجاح، ويرجع إلى أهله فرحًا مسرورًا، ولا شك أن أهله كانوا على شاكلته من أصحاب اليمين، فيعمهم جميعًا السرور. وأما الآخر فقد عرف النتيجة فأخذ يدعو بالويل والثبور، وسوف يدخل النار، لقد كان في الحياة الدنيا لاهيًا متمتعًا بحياته يأكل كما تأكل الأنعام ولا يفكر في العاقبة فأبدل الله سروره غمًّا وهمًّا.

وقد صور الله الفرحة التي تستولي على من يتلقى كتابه بيمينه، فهو يتلفت حوله يطلب من أصحابه أن يشاركوه فرحته، فيقرأوا معه كتابه، وصك نجاته من النار، وفوزه

---

(1) سورة الإسراء، الآية (14).

(2) سورة الكهف، الآية (49).

(3) سورة الانشقاق، الآيات (7 – 13).

بالجنة ويخبرهم أنه كان متيقنًا من عدل الله في حسابه وفضله في جزائه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾[1].

ثم ذكر الله جزاءه على ما قدمت يداه فهو في جنة مرتفعة الأركان، ثمارها قريبة لا تكلف طالبها أي عناء، ويطلب الله منه ومن أمثاله أن يستمتعوا بما في الجنة من طعام وشراب، فهو حقهم بسبب ما قدموه من أعمال صالحة في الحياة الدنيا: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾[2].

كما صور حال الكافر الذي تلقى كتابه بشماله، فقد استولت عليه الحسرة، وأخذ يتمنى لو لم يأخذ هذا الكتاب ولم يحاسب هذا الحساب، وأن موتته الأولى كانت القاضية عليه فلا يحيا بعدها. لقد ذهب عنه ماله وسلطانه اللذان كانا له في الدنيا فلم ينفعاه شيئًا: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾[3].

ثم يذكر الله جزاءه وهو أمر ملائكة العذاب بأخذه، ووضع الأغلال في عنقه، ثم قذفه في الجحيم، وتقييده فيها في سلسلة ضخمة طولها سبعون ذراعًا؛ لأنه لم يكن يؤمن بالله العظيم: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾[4].

الشهود:

ولا يُكْتَفَى بالكتب، بل يؤتى بالشهود، والشهود كثيرون، فمنهم الملائكة الذين

---

(1) سورة الحاقة، الآيتان (19، 20).

(2) سورة الحاقة، الآيات (21 - 23).

(3) سورة الحاقة، الآيات (25 - 29).

(4) سورة الحاقة، الآيات (29 - 32).

وكَّلهم الله بكل إنسان ليحصوا عمله كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾[1]. هذان الملكان اللذان يلازمانه في الدنيا يأتيان معه يوم الحساب يسوقه ملك، ويشهد عليه ملك: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾[2].

ومن الشهود الأنبياء يشهد كل نبي على أمته، يقول تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾[3].

ثم يبين الله أن الكفار عندما يسمعون شهادة الرسول عليهم – والمراد محمدﷺ – مع مشركي قومه يتمنون لو انشقت الأرض وابتلعتهم من هول الموقف، ويعترفون بكل ما فعلوا ولا يكتمون الله شيئًا مما عملوا، يقول تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾[4]، وكقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾[5].

ومن الشهود أيضًا على الأمم أمة محمدﷺ ، وذلك أن كتابهم القرآن جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتب والرسل، ومخبرًا عن جهاد الرسل مع قومهم وتكذيبهم إياهم، فيشهدون بذلك يوم القيامة يوم ينكر الكفار تبليغ رسلهم إياهم الدعوة إلى الإيمان بالله وحده، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ

---

(1) سورة «ق»، الآيات (16 – 18).
(2) سورة «ق»، الآية (21).
(3) سورة النساء، الآية (41).
(4) سورة النساء، الآية (42).
(5) سورة النحل، الآية (89).

ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾[1]. وقد ورد حديث شريف يتضمن هذا المعنى[2]، يقول ﷺ: «يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر، فيُدْعَى قومه فيقال: هل بلَّغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته، فيقال لهم: هل بلَّغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلَّغوا، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾[3]».

ومن الشهود أيضًا شهادة الناس على أنفسهم، وذلك حينما يُسْأل الجن والإنس عن مجيء الرسل إليهم وتبليغهم دعوة ربهم، فلا يجدون مفرًّا أمام هذا السؤال إلا أن يشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين، وكانت الحياة الدنيا قد غرتهم فظنوا أن لا بعث ولا حساب، قال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾[4].

ونعرف من هذه الآية أن الجن أيضًا ستبعث وتحشر وتحاسب، وأن الله قد أرسل إليهم رسلاً من أنفسهم، وأن الكافرين منهم سيعذبون كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾[5].

وكان الإنس قد شهدوا على أنفسهم بالكفر عندما جاءتهم ملائكة الموت يتوفونهم

---

(1) سورة البقرة، الآية (143).

(2) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وانظر «تفسير القرطبي» (ج2 ص 154) دار الكتب.

(3) سورة البقرة، الآية (143).

(4) سورة الأنعام، الآية (130).

(5) سورة السجدة، الآية (13).

ويسألونهم: أين آلهتكم التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ لماذا لم يأتوا ليستنقذوكم؟ فيجيبون أنهم قد تخلوا عنهم ولم يعرفوا لهم مكانًا وشهدوا على أنفسهم بالكفر، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾[1].

على أن أخطر الشهود على الكافر هم أعضاؤه الذين يشهدون عليه، فقد ورد في عدة سور أن الله يختم على فم الكافر ويشهد عليه لسانه ويده ورجله:

ففي سورة النور يتوعد الله الذين يقذفون النساء العفيفات بالزنى بأن الله سيلعنهم في الدنيا والآخرة في اليوم الذي تشهد عليهم ألسنتهم بالكذب الذي افتروه على الناس، وأيديهم بالبطش الذي بطشوه بالضعفاء، أو السرقة التي مدوا أيديهم إليها، وتشهد أرجلهم بالمشي الذي مشوه إلى أماكن الحرام وعندئذ يوفيهم الله جزاء أعمالهم بالحق، وعندئذ يعلمون أن الله هو الحق المبين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴾ الآيات (23 – 25).

وفي سورة «يس» يخبر الله أنه سيختم على أفواههم يوم الحساب فلا يستطيعون نطقاً وإنما تتكلم عنهم أيديهم بما عملوا من سيئات بوساطتها، وتشهد عليهم أرجلهم بأنهم استخدموها في السير إلى المعاصي، قال تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ الآية (65).

وفي سورة «فصلت» تذكر الآيات أن الله سيحشر أعداءه إلى النار فيساقون إليها حتى إذا ما وصلوا إليها شهد عليهم سمعهم بما سمعوه من غيبة وحرام وشهد عليهم أبصارهم بما رأوه من محرمات. كما شهدت عليهم جلودهم بما اقترفوه من لمس

(1) سورة الأعراف، الآية (37).

الحرام، ولكن الطريف في هذه الآية الحوار الذي دار بين الكفار وجلودهم، فقد سألوا جلودهم مستنكرين: لم شهدتم علينا؟ فيجيبون كالمعتذرين: لقد أنطقنا الله القادر على إنطاق كل شيء، وهو الذي خلقكم وإليه معادكم، ثم يوبخهم الله بأنهم كانوا يستترون بمعاصيهم مدركين أن الله لن يراها، ولم يخطر على بالهم أن أسماعهم وأبصارهم وجلودهم ستشهد عليهم، وظنهم هذا هو الذي أهلكهم، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ الآيات (20 – 23).

وقد وردت بعض الأحاديث التي تشرح هذه الآيات، فمن هذه الأحاديث ما رواه أنس بن مالك (رضي الله عنه)، قال: ضحك رسول الله ﷺ وتبسم، فقال: «ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت؟» قالوا: يا رسول الله، من أي شيء ضحكت؟ قال: عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أي ربي، أليس وعدتني أن لا تظلمني؟ قال: بلى، فيقول: إني لا أقبل عليَّ شاهدًا إلا من نفسي، فيقول الله تبارك وتعالى: أوليس كفى بي شهيدًا وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال: فيردد هذا الكلام مرارًا، فيختم الله على فيه وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بعدًا لكن وسحقًا فعنكن كنت أجادل».

ومن الأحاديث أيضًا ما رواه أبو موسى الأشعري: «يدعي الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه عَزَّ وَجَلَّ عمله فيجحد، ويقول: أي رب، وعزتك لقد كتب على هذا الملك ما لم أعمل، فيقول له الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا، وعزتك أي رب ما عملته، قال: فإذا فعل ذلك ختم الله على فيه وشهدت عليه جوارحه».

الوزن:

ومن وسائل حساب الله الخلق وزن أعمالهم الصالحة وأعمالهم السيئة، فإذا رجحت الأعمال الصالحة فاز صاحبها وأدخل الجنة، وإذا خفت أعماله الصالحة وزادت عليها أعماله السيئة خسر وأدخل النار، وقد وردت بعض آيات في القرآن الكريم تتحدث عن الوزن، فقد ورد في سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ الآيتان (8، 9).

وذكر الله في سورة الأنبياء أنه سيضع الموازين العادلة يوم القيامة، ولن تظلم نفس أي ظلم، ولن ينقص من أعمالها الطيبة شيء مهما صغر ولو كان في مقدار حبة خردل، فلابد أن يأتي الله بها لأنه خير الحاسبين، يقول تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ الآية (47).

وقد كرر الله هذا المعنى في عدة آيات كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[2]، والفتيل: هو الخيط الذي في شق النواة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[3].

وقد وردت أحاديث نبوية تشرح الآيات السابقة، منها ما رواه عبد الله ابن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عَزَّ وَجَلَّ يستخلص رجلًا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًا (من سيئاته) كل سجل منها مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا: أظلمتك

(1) سورة النساء، الآية (40).

(2) سورة الإسراء، الآية (71).

(3) سورة الكهف، الآية (49).

كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يارب، فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ قال: فبهت الرجل، فيقول: لا، يارب، فيقول الله: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، فيقول: أحضروه، فيقول: يارب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تُظلَم، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» رواه الترمذي وابن ماجه.

وكذلك ورد في سورة «المؤمنون»: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ الآيتان (102، 103).

وفي سورة «القارعة»: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ الآيات (6 – 9).

والمراد بثقل الميزان وخفته كثرة الأعمال الصالحة وقلتها، ولكن كيف توزن الأعمال وهي في معظمها أمور معنوية؟ يقول المفسرون: يجسد الله هذه المعنويات ويجعلها أمورًا مادية كما فعل في شأن شهادة (أن لا إله إلا الله) حيث وضعت في بطاقة، ثم وزنت البطاقة، ويؤيد هذا التفسير أحاديث نبوية تحدثت عن تجسيد المعنويات يوم القيامة، منها قوله ﷺ: «كلمتان ثقيلتان في الميزان خفيفتان على اللسان هما: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»، ومنها ما قاله ﷺ عن القرآن، وإنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرتُ ليلك، وأظمأتُ نهارك.

موقف الكافرين:

يسيطر على الكافرين في هذا اليوم الرهيب مشاعر الحسرة والندم. وقد صور القرآن الكريم بعض هذه المشاعر، فقد جاء في سورة الفرقان أن الظالم، والمراد به

الكافر كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[1]، يعض على يديه حسرة وندمًا ويتمنى لو أنه اتبع نهج الرسول ﷺ وآمن بالله وحده، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ الآية (27).

وفي سورة النبأ يتمنى الكافر حين يرى ساحة الحساب، ورهبة المحشر لو أنه لم يكن كائنًا حيًّا، بل كان ترابًا، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ الآية (40).

وكذلك يتمنى – في سورة الفجر – وهو يرى أعماله السيئة لو أنه استعد لهذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ الآيتان (23، 24).

وتضطرب أحوال الكافرين ويرتبك تفكيرهم، فيحاولون الخلاص بأية وسيلة، والدفاع عن أنفسهم، ولكنهم يتخبطون، فأحيانًا يقرون بذنبهم، فيجيبون على سؤال ربهم لهم: ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ﴾؟ بالإيجاب والإقرار، فيأمرهم الله – تبكيتًا وتقريعًا – أن يذوقوا العذاب بسبب كفرهم: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[2].

وفي موقف آخر يصف الله المجرمين بأنهم وقفوا أذلاء منكسي الرءوس أمام ربهم، وأخذوا يضرعون إليه – معترفين بذنبهم، مقرين بأنهم عرفوا الحقيقة، ويطلبون منه أن يتيح لهم فرصة العودة إلى الدنيا مرة أخرى ليعملوا صالحاً، فقد آمنوا وأيقنوا، ولكن الله يقرر أن حكمته اقتضت أن يكون الناس مختلفين في تفكيرهم واعتقادهم فيؤمن من يؤمن فيفوز، ويكفر من يكفر فيكون نصيبه النار حتى تمتلئ النار من هؤلاء الكفار سواء أكانوا إنسًا أم جنًّا، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ

---

(1) سورة لقمان، الآية (13).

(2) سورة الأنعام، الآية (30).

عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[1].

وأحيانًا يكذبون على ربهم، وينكرون أنهم اتخذوا مع الله آلهة أخرى، فالله يسألهم – كما جاء في سورة الأنعام –: أين آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، ويزعمون أنهم شركاؤه، فيقسمون بالله الذي يصفونه بأنه ربهم: أنهم ما اتخذوا آلهة من دونه، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ الآيتان (22، 23).

ويدعو الله رسوله ﷺ إلى العجب من هؤلاء الكفار الذين يكذبون على أنفسهم – لا على الله لأنه يعلم حقيقتهم – وقد غابت عنهم آلهتهم التي اخترعوها كذبًا وزورًا: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ الآية (24).

الشركاء يتبرءون من عابديهم:

ويستدعى الله الشركاء المزعومين، ويسألهم عن عبادة المشركين إياهم، فيستنكرون هذا، ويتبرءون من هذه العبادة التي كان يتقرب بها إليهم المشركون، وهم لا يدرون عنها شيئًا، يقول تعالى في سورة يونس: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا[2] بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ الآيتان (28، 29)، وهذه الآية تتحدث عن المعبودين من الأصنام التي لا تعقل شيئًا.

وهناك آية أخرى بشأن المعبودين من الشياطين، عندما ينادي الله المشركين، ويسألهم: أين الشركاء الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا؟ فيجيب الشياطين: أنهم هم الذين أغووهم، وقد فعلوا ذلك نتيجة لغوايتهم هم، فأرادوا أن يغووهم مثلهم مصداقًا

(1) سورة السجدة، الآيتان (12، 13).

(2) ميزنا بينهم.

لقول إبليس عندما تحدى الله سبحانه: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[1]، ولكنهم يأتون يوم المحشر فيتبرءون من عبادتهم إياهم، يقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾[2].

وأما المعبودون من الملائكة والأنبياء فيستنكرون هذه العبادة، ويقررون أنه ما كان ينبغي لهم أن يكون لهم أولياء إلا الله سبحانه – ويذكرون السبب في انحراف هؤلاء المشركين عن عبادة الله الواحد؛ فقد اغتروا عندما أملى الله لهم، فتركهم يتمتعون هم وآباؤهم، حتى نسوا ذكر الله، وأصبحوا من الهالكين.

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا[3] ﴾[4].

ويرد الله على المشركين مبكتًا إياهم، فقد كذبهم من كانوا يعبدون من دون الله، ولم يجدوا لهم وليًّا ولا نصيرًا: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ الآية (19).

وقد أخبر القرآن بأن هؤلاء المعبودين سيكفرون بعابديهم، وينقلبون عليهم ويكونون لهم أعداء، كما جاء في سورة مريم: أن هؤلاء المشركين اتخذوا الآلهة من دون الله ليعتزوا بهم، ولكن هؤلاء المعبودين سيكفرون بهذه العبادة، ويقفون ضد

---

(1) سورة الحجر، الآيتان (39، 40).

(2) سورة القصص، الآيتان (62، 63).

(3) هالكين.

(4) سورة الفرقان، الآيتان (17، 18).

الكفار: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ الآيتان (81، 82).

وفي سورة «الأحقاف» ذكر الله أن الآلهة ستكون أعداء للكافرين، وستكفر بعبادتهم: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ الآية (6).

وفي موقف آخر يوم الحشر يسأل الله الملائكة - ليلزم المشركين الحجة -: هل هؤلاء المشركون كانوا يعبدونكم كما يدَّعون؟ فينزه الملائكة الله عن الشريك، ويقررون أنه لا يمكن أن يكون لهم ولي إلا الله، وإنما عبادة المشركين كانت بسبب إغواء شياطين الجن لهم حتى دفعوهم إلى عبادتهم - أي الملائكة - فأكثر الإنس ينقادون لإغواء الشياطين، يقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[1].

وهكذا كذب الله المشركين في إنكارهم، وفند دعواهم في اتخاذ آلهة من دون الله بمواجهتهم بالمعبودين من كل نوع فتبرءوا من هذه العبادة الضالة.

ويتمنون في هذا الموقف العصيب بعد أن عرفوا عاقبة تكذيبهم رسولهم بعد ما جاءهم بكتاب فصل لهم فيه كل شيء لهدايتهم - يتمنون لو وجدوا لهم شفعاء يشفعون لهم عند الله، أو رُدُّوا إلى الدنيا فيعملوا عملًا صالحًا غير الذي كانوا يعملونه، ويؤمنوا بالله، ويعقب الله على ذلك بأن هؤلاء المشركين قد خسروا أنفسهم، وزالت عنهم كل أوهام الشرك، يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا

---

(1) سورة سبأ، الآيتان (40، 41).

أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾[1].

وفي سورة أخرى يذكر الله ندم هؤلاء الكفار على كفرهم وتمنيهم العودة إلى الدنيا بعد ما رأوا العذاب: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾[2].

وقد ظن الضعفاء من المشركين أن سادتهم المستكبرين قد يحمونهم في هذا اليوم العصيب، وأن يدفعوا عنهم عذاب جهنم المحيق بهم، فيسألونهم في رجاء وضراعة: هل يمكن أن ينفعوهم بشيء يريحهم من هذا العذاب، فقد كانوا تابعين لهم يأتمرون بأمرهم، وكفرهم كان بسببهم، ولكنهم يجيبونهم في ذلة ويأس: إن الله لم يرد لهم الهداية، ولو أنه هداهم لهدوا أتباعهم، وأن الجزع والصبر في هذا الموقف يستويان في عدم تحقيق الراحة لهم، فليس هناك مفر من هذا العذاب، قال تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾[3].

ولا يقتصر الحوار بين الضعفاء والمستكبرين على الرجاء من المستضعفين واليأس من المستكبرين، بل يتجاوز ذلك إلى التخاصم، فعندما يقف الكفار بين يدي الله يدور بينهم حوار يعلن فيه المستضعفون اتهامهم للمستكبرين بأنهم كانوا السبب في عدم إيمانهم، فيوبخهم المستكبرون على هذا القول، ويستنكرون أن يكونوا منعوا هؤلاء الضعفاء من الإيمان، بل هم كفروا من تلقاء أنفسهم لأنهم مجرمون، ويرد الضعفاء، مفندين هذا القول، ذاكرين أن المستكبرين بذلوا جهدًا كبيرًا في إغوائهم، وكانوا

---

(1) سورة الأعراف، الآيتان (52، 53).

(2) سورة الشورى، الآية (44).

(3) سورة إبراهيم، الآية (21).

يدبرون لهم الكيد ليلًا ونهارًا ليحملوهم على الكفر، وقد أمروهم أن يكفروا بالله، ويعبدوا آلهة من دونه، وشعر الجميع بالندم يملأ نفوسهم - مستكبرين وضعفاء لما رأوا العذاب محدقًا بهم، ووضع الله الأغلال في رقاب هؤلاء الكافرين، ولم يكن هذا الجزاء إلا جديرًا بأعمالهم السيئة، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

موقف الشيطان:

على أن موقف الشيطان من أتباعه يوم القيامة جدير بأن يثير السخرية منهم ويملأ قلوبهم غيظًا وإحباطًا. فهذا الشيطان الذي أغواهم، وبذل كل جهد ليبعدهم عن عبادة الله يأتي يوم القيامة فيقف خطيبًا في الكفار بعد انقضاء الحساب، ويعترف بأن وعد الله الذي جاء على لسان رسله جميعًا بأنه سيثيب المؤمنين على إيمانهم بالله وحده الجنات ويعاقب الكفار بالله والمشركين به بإدخالهم النار هو الوعد الحق الذي يرون تحققه رأي العين. وأما وعده هو الذي زيَّن لهم به الكفر والفسوق والعصيان، وأن ما أتى به الرسل كذب، وأنه لا حساب ولا عقاب فهو وعد لن يتحقق لأنه كذبة كبيرة كذبها عليهم. وما أشبه هذا القول بما يقوله المخادع بالتعبير العامي: «ضحكت عليكم»! ثم يُوَبِّخُهُمْ ويبكتهم لأنهم استجابوا لدعوته التي لم يكن عليها دليل ولا برهان، فلا ينبغي أن يلوموه، بل عليهم أن يلوموا أنفسهم لأنهم اتبعوه دون روية أو تفكير، ثم يقرر لهم أنه لا نجاة له، ولا لهم، وأنه عاجز عن إنقاذهم، كما أنهم عاجزون عن إنقاذه، وأخيرًا

---

(١) سورة سبأ، الآيات (31 – 33).

يعلن براءته من إشراكهم إياه مع الله في العبادة في أثناء الحياة الدنيا، ويقرر الله تعقيبًا على هذا الموقف أن الظالمين – أي الكافرين – لهم عذاب أليم موجع.

يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

وقد ورد حديث نبوي يذكر مناسبة هذه الخطبة، فقد روى عقبة بن عامر (رضي الله عنه) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين فقضى بينهم ففرغ من القضاء، قال المؤمنون: قد قضى بيننا ربنا فمن يشفع لنا؟ فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم – وذكر نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى – فيقول عيسى: أدلكم على النبي الأمي، فيأتوني فيأذن الله أن أقوم إليه، فيثور من مجلسي أطيب ريح شمها أحد قط حتى آتي ربي فيشفعني، ويجعل لي نورًا من شعر رأسي إلى ظفر قدمي، ثم يقول الكافرون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس، هو الذي أضلنا، فيأتون إبليس فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا؛ فإنك أنت الذي أضللتنا، فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمها أحد قط، ويلقى فيهم هذه الخطبة فيعظم نحيبهم».

وقريب من معنى الآية السابقة قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

الشفاعة:

والمراد بالشفاعة التوسط عند الله لتحقيق نفع أو دفع ضر، وقد قرر الله أنه وحده صاحب الشفاعة كما في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(1) سورة إبراهيم، الآية (22).

(2) سورة الحشر، الآية (16).

﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾[1]، ولكن الله ذكر أنه قد يأذن بالشفاعة لمن يشاء من عباده الذين يرتضيهم من نبي أو ملك. وقد ورد ذلك في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾[2]، وقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾[3]، وقوله: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾[4]، وقوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾[6].

ويفهم من الآيات السابقة أن الشفاعة تكون في الدنيا والآخرة، وأنها في الدنيا تكون للأنبياء والملائكة، ومن يرضاه الله من عباده الصالحين. ولعل من شفاعة الدنيا رفع العذاب عن مشركي قريش مع إيذائهم المستمر للرسول ﷺ وتحديهم له أن ينزل بهم العذاب إن كان صادقًا، ولكن الله لم يعذبهم بسبب وجود نبيه ﷺ فيهم، ودعائه لهم بالهداية كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾[7].

ولكني أريد بالشفاعة هنا الشفاعة في الآخرة، فهي شفاعة صعبة، والخلق جميعًا في أشد الحاجة إليها، وقد حذرهم الله بأن يتقوا هذا اليوم الذي لا تنفع فيه خلة – أي

---

(1) سورة الزمر، الآية (44).

(2) سورة البقرة، الآية (255).

(3) سورة يونس، الآية (3).

(4) سورة مريم، الآية (87).

(5) سورة طه، الآية (109).

(6) سورة النجم، الآية (26).

(7) سورة الأنفال، الآيتان (32، 33).

صداقة – ولا شفاعة، وذلك بالتصدق ببعض ما رزقهم الله: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾(1).

ولم يذكر الله في القرآن من له حق الشفاعة في هذا اليوم، ولكن ذكر أنه قد تنفع الشفاعة في هذا اليوم لمن يأذن له في ذلك، ويرضى قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾(2). فالاستثناء هنا يفيد أن الشفاعة ستقع في هذا اليوم، وأنها ستنفع، وقد تكفل الحديث النبوي ببيان من له حق الشفاعة وكيف يشفع؟ وما نتيجة شفاعته؟ فقد روى الإمام مسلم في «صحيحه» عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك، فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا. قال: فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو الخلق، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لستُ هناكم، فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربَّه منها، ولكن ائتوا نوحًا..» فيذهبون إلى نوح [ويتكرر معه نفس المشهد ويحيلهم إلى إبراهيم فيعتذر بنفس العذر، ويحيلهم إلى موسى فيتكرر المشهد معه ويحيلهم إلى عيسى] «فيأتون عيسى روح الله وكلمته، فيقول: لست هناكم ولكن ائتوا محمدًاﷺ عبدًا قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال رسول اللهﷺ: فيأتوني، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا أنا رأيته وقعت ساجدًا، فيدعني ما شاء الله ثم يقال: ارفع رأسك، قل تُسْمَع، سل تُعطه، اشفع تُشفَّع، فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلِّمنيه ربي، ثم أشفع فيحدُّ لي حدًّا فأخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأقع ساجدًا فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع رأسك يا محمد، قل تُسمع، سل تعطه، اشفع تُشفَّع، فأرفع رأسي وأحمد ربي بتحميد يعلِّمنيه، ثم أشفع فيحد لي حدًّا فأخرجهم من

(1) سورة البقرة، الآية (254).

(2) سورة طه، الآية (109).

النار وأدخلهم الجنة - يقول أنس بن مالك (رضي الله عنه): فلا أدري في الثالثة أو الرابعة قال - فأقول: يارب ما بقى في النار إلا من حبسه القرآن» [أي وجب له الخلود فيها بنص القرآن كالكفار والمنافقين].

فهذا الحديث الصحيح يفصل القول في مسألة الشفاعة، وأنها ستكون خاصة بالرسول ﷺ تكريمًا له ﷺ، ولأنه ادخر الدعوة المستجابة التي منحها الله لكل نبي إلى هذا اليوم كما ورد في الحديث الذي رواه مسلم أيضًا: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا».

ويتضح من الحديث الأول أن هذه الشفاعة تكون بعد أن يدخل أهل النار النار، وأهل الجنة الجنة. ويتضح من الحديث الثاني أن هذه الشفاعة خاصة بأمة محمد ﷺ، وأن كل من مات موقنًا بوحدانية الله ستنفعه هذه الشفاعة.

الجـــــزاء

بعد أن ينتهي الحساب، ولا يبقى لكافر حجة على الله يجازى كل امرئ بما عمل، فللكفار والمشركين النار، وللمؤمنين إن شاء الله الجنة. وسأتناول في هذا الباب ما ورد بشأن النار والجنة من آيات في القرآن الكريم.

النار

أسماء النار:

ذكر الله في القرآن عدة أسماء للنار، والاسم الغالب وروده لها: ﴿جَهَنَّمَ﴾ التي ورد ذكرها أكثر من سبعين مرة، ولكن لها أسماء أخرى، وغالبًا ما توصف هذه الأسماء بما يوضحها، ويبين شدة عذابها.

فمن هذه الأسماء ﴿سَقَرَ﴾، وقد ورد أربع مرات: مرة في سورة القمر في قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾، وذلك في أثناء الحديث عن المجرمين وعما سيلاقونه من جزاء حيث سيلاقون الهلاك، والنيران المسعرة لتعذيبهم، ويلاقون الذل والهول عندما يسحبون على وجوههم، وهم مُلْقَوْن في النار، ويقال لهم تهكمًا وسخرية: ذوقوا عذاب سقر: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ الآيتان (47، 48).

وورد ثلاث مرات في سورة المدثر: مرتين في أثناء الحديث عن عقاب الوليد بن المغيرة الذي ادعى أن كلام الرسول ﷺ سحر مع اعترافه لأصحابه أنه لا يمكن أن يكون من قول البشر، فبين الله أنه سيدخله سقر، ثم سأل للتعظيم والتهويل: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ

مَا سَقَرُ ﴾، ثم ذكر شيئًا من سماتها وهي أنها لا تبقى أحدًا ممن يستحق العذاب بها إلا عذبته، وأحدثت تغييرات وتشويهات في بشرته، وأنه يحرسها تسعة عشر ملكًا، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ الآيات (18 – 30).

والمرة الثالثة عندما يسألهم أصحاب اليمين توبيخًا وإثارة لحسرتهم وندمهم عن سبب دخولهم سقر، فيذكرون سبب ذلك وهو أنهم لم ينخرطوا في سلك المصلين لعدم إيمانهم بالله، وكانوا أشحة على الخير فلا يطعمون مسكينًا، وأنهم كانوا يخوضون في الباطل مع أهل الباطل، وأنهم كانوا يكذبون بيوم البعث والحساب حتى جاءتهم الحقيقة المُرَّة في وقت لم تعد تنفعهم شفاعة أحد، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ الآيات (38 – 43).

ومن أسمائها ﴿ٱلسَّعِيرِ ﴾، والسعير في اللغة: النار الشديدة، وقد ورد ذكره في القرآن مرات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾[1].

وقد ذكر ﴿ٱلسَّعِيرِ ﴾ بعد جهنم ليؤكد شدة عذابها كما جاء في قوله تعالى – وهو يبين جزاء من يصد عن سبيل الله ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾[2].

ومن أسمائها أيضًا ﴿ٱلْجَحِيمُ ﴾ الذي ورد في القرآن الكريم عدة مرات عَلَمًا على جهنم، كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾[3].

---

(1) سورة الشورى، الآية (7).

(2) سورة النساء، الآية (55).

(3) سورة الشعراء، الآية (91).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾[1].

ومن أسمائها ﴿لَظَىٰ﴾، ومعنى اللظى في اللغة: النار الصافية التي لا دخان لها، وقد ورد هذا الاسم عَلَمًا على النار التي سيعذب بها الكفار في سورة المعارج عندما رد الله على الكافر الذي يتمنى أن يفتدي من عذاب يوم القيامة بِكُلِّ أحبته، فيقول الله له: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ الآية (15): أي لن تتحقق أمنيتك أبدًا، فليس أمامك إلا ﴿لَظَىٰ﴾ التي وصفها بأنها كثيرة النزع لجلد الرأس ليذوق الكافر أشد ألوان العذاب، وأنها تدعو إليها كل إنسان أعرض عن الإيمان بالله، وكان همه جمع المال وحفظه عنده، فلا يؤدي منه حق الله، وهذا بيان لحرص ﴿لَظَىٰ﴾ على ألا يفر من مستحقيها أحد، قال تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾[2].

وجاء الفعل من هذا الاسم صفة للنار عند إنذار الله للناس من النار التي تلتهب التهابًا شديدًا، ولا يدخلها إلا أشقى الناس لكفره بالله، وتكذيبه رسله وإعراضه عنهم: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[3].

ومن أسمائها كذلك ﴿هَاوِيَةٌ﴾، وقد وردت مرة واحدة في سورة «القارعة» عند الحديث عن مصير الذي خَفَّت موازينه فلم يكن له عمل صالح يشفع له، ولا إيمان نافع يُنجيه، فمصير هذا الإنسان ﴿هَاوِيَةٌ﴾ لا مناص له من السكنى فيها فهي أمه، ويسأل الله تعظيمًا وتهويلًا «لهاوية» ما هي؟ ثم يجيب بأنها نار حامية، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ الآيات (8 – 11).

ومن أسمائها أيضًا ﴿الْحُطَمَةِ﴾ التي وردت مرة واحدة في سورة «الهمزة»، وقد

(1) سورة التكوير، الآية (12).

(2) سورة المعارج، الآيات (16 – 18).

(3) سورة الليل، الآيات (14 – 16).

جاء بعدها أيضًا استفهام يهول من شأنها، ثم وصفت بأنها نار الله التي أوقدها لتعذيب الكفار، وأنها تحيط بقلوبهم مقر العقول والأفهام فتحرقها وهي مغلقة عليها في عمدة ممددة، وهذه الحطمة سَيُقْذَفُ فيها الطعَّان اللعَّان المغتر بماله، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ الآيات (1 – 9).

الطريق إلى النار:

وردت آيات كثيرة تبين سبب استحقاق الكفار لهذا العذاب الأليم، وأول هذه الأسباب الكفر بالله وتكذيب رسله، وقد ورد هذا المعنى في آيات كثيرة لا يمكن الإتيان بها جميعها كي لا يخرج الكتاب عن نهجه ويتحول إلى كتاب تفسير، فسأكتفي ببعضها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[2]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[3].

وتنفي بعض الآيات دخول المكذبين المستكبرين الجنة، وتبين استحالة ذلك بصورة حسية فهي تعلق دخولهم الجنة على دخول الجمل في ثقب الإبرة، فهل يتصور عاقل هذا؟ وحتى لو فسر الجمل على أنه الحبل الغليظ كما ورد في اللغة فالاستحالة هي هي، كما ذكرت الآية أن السماء لا تفتح لهم لينفذوا إلى ملكوت الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ

---

(1) سورة البقرة، الآية (39).

(2) سورة المائدة، الآية (10).

(3) سورة الأعراف، الآية (36).

ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾[2].

ومن أهم الأسباب أيضًا التكذيب بالبعث وهو فرع من التكذيب بالرسل كما ورد في الآيات السابقة: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾[4].

وكما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[5].

ومن أسباب استحقاق الكافرين جهنم طغيانهم واستكبارهم في الأرض، فالله تعالى يقول مخاطبًا أصحاب النار: ﴿ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾[6]، ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴾[7].

---

(1) سورة الأعراف، الآية (40).
(2) سورة غافر، الآيات (70 – 72).
(3) سورة الفرقان، الآية (11).
(4) سورة الإسراء، الآية (97).
(5) سورة الواقعة، الآيات (41 – 47).
(6) سورة الأحقاف، الآية (20).
(7) سورة النبأ، الآيتان (21، 22).

ومن الأسباب أيضًا ترك الصلاة والزكاة عمدًا استهانة بقدرهما، وعدم الإيمان بشارعهما كالآيات السابقة التي أجاب فيها الكافرون عن سؤال المؤمنين لهم عن سبب دخول النار: ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴾[1].

وكذلك أكل أموال اليتامى ظلمًا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[2].

ومن الأسباب النفاق، وهو أشد من الكفر، لأن المنافق لا يعرف أمره، فلا يخشى كيده، فيتدسس في حياة المؤمنين تدسس السم في الجسم؛ لذلك جعل الله جزاء المنافقين أسفل دركات النار: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[3].

وكذلك قتل المؤمن عمدًا: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[4].

وقد اعتبر الله قتل نفسٍ من غير أن يكون هذا القتل قصاصًا، أو عقابًا على إفساد صاحبها في الأرض، كقتل البشرية جمعاء، كتب ذلك في التوراة، وذكر في القرآن فأصبح الحكم للجميع: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[5].

وقد عد من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشركون بالله إلهًا آخر، ولا يقتلون النفس

---

(1) سورة المدثر، الآيتان (43، 44).

(2) سورة النساء، الآية (10).

(3) سورة المائدة، الآية (145).

(4) سورة النساء، الآية (93).

(5) سورة المائدة، الآية (32).

التي حرم الله قتلها إلا بالحق وبيَّن أن من يفعل أي أمر من هذه الثلاثة يلق عقوبة تتمثل في مضاعفة العذاب له يوم القيامة، وخلوده فيه ذليلًا مهانًا: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾[1].

ومن أسباب دخول جهنم الفرار من المعركة الناشبة دفاعًا عن دين الله وإعلاء كلمته، إلا إذا كان الفرار لحظة تمكن الفارَّ من الجهاد بطريقة أفضل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[2].

وكذلك أكل الربا فقد حرَّمه الله، وأحلَّ البيع، فمن استجاب لهذا النهى وترك الربا، عفا الله عما تقدم منه، وما أخذه من أموال الناس، وأما الذي لا يستجيب لهذا النهى ويعود إلى الربا فمأواه جهنم خالدًا فيها، قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[3].

ومن أسباب دخول الإنسان جهنم، وتعذيبه فيها عذابًا عظيمًا السعي في الأرض بالإفساد وترويع الآمنين، ومحاربة الجماعة المسلمة، فقد جعل الله لذلك عقابًا دنيويًّا، وجعل له عقوبة في الآخرة هي العذاب العظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ

(1) سورة الفرقان، الآيتان (68، 69).

(2) سورة الأنفال، الآيتان (15، 16).

(3) سورة البقرة الآية (275).

وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وكذلك قذف النساء العفيفات الغافلات - عن كل ما يتصل بأمور الفاحشة - بالزنى، فهؤلاء القاذفون - إلى جانب طردهم من حظيرة المجتمع - لهم في الآخرة عذاب عظيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

ومن الأسباب أيضًا كنز الذهب والفضة - والمراد المال أيًا كان نوعه فيدخل فيه الأوراق المالية المتعامل بها في عصرنا - وعدم إنفاقها في سبيل الله فقد توعد الله فاعلي ذلك بالعذاب الأليم، وأمر رسوله ﷺ- تهكمًا بهم - أن يبشرهم بهذا العذاب، وستكون وسيلته المال الذي كانوا يحبونه، ويمنعون إخراج حق الفقراء منه، فَيُحْمَى على الذهب والفضة حتى يتحولا إلى نار فيكوى بهما جباه وجنوب وظهور المكتنزين لهما، ويقال - تبكيتًا لأصحابها - ذوقوا العذاب بهذه المعادن النفسية التي أحببتموها في الدنيا حتى منعتم حق الله فيها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[3].

هذه نماذج مما ورد في القرآن الكريم عمن يستحقون نار جهنم.

❊❊❊

---

(1) سورة المائدة، الآية (33).

(2) سورة النور، الآية (23).

(3) سورة التوبة، الآيتان (34، 35).

العذاب

أوعد الله الكفار والمنافقين والفاسقين بالعذاب كما رأينا - ووعيده حق كوعده - ولكن متى يبدأ عذاب هؤلاء؟ هل يبدأ من القبر أو يبدأ يوم القيامة بعد الحساب، سأحاول شرح هذا الأمر بإذن الله.

عذاب القبر:

لم يرد في القرآن الكريم صراحة ذكر لعذاب القبر، ولكن وردت آيات يفهم منها أن عذاب المستحق للعذاب - ولاسيما المشركين - يبدأ منذ لحظة الوفاة، كالآيات التي مرت بنا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[2].

وهناك آية تتحدث عن عذاب آل فرعون، فتبيَّن أنهم يعرضون على النار في الصباح والمساء، ثم عندما يأتي يوم القيامة يأمر الله الملائكة أن يدخلوا آل فرعون أشد أنواع العذاب، قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[3].

---

(1) سورة الأنفال، الآية (50).

(2) سورة الأنعام، الآية (93).

(3) سورة غافر، الآية (46).

وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على ثبوت عذاب القبر، ورووا في ذلك حديثًا عن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: إن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة (رضي الله عنها) إليها شيئًا من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله عذاب القبر، فسألت عائشة (رضي الله عنها) رسول الله ﷺ قائلة: هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ فقال: «لا، من زعم ذلك؟» قالت له عن أمر اليهودية، فقال: «كذبت يهود وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة»، ثم مكث ما شاء الله له أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بثوبه محمرة عيناه، وهو ينادى بأعلى صوته: «القبر كقطع الليل المظلم.. أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا وضحكتم قليلًا.. أيها الناس، استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق».

والسيدة عائشة (رضي الله عنها) تقول بعد ذلك في هذا الحديث: «فما رأيت رسول الله ﷺ بعد ذلك صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر».

وقد حاول بعض العلماء أن يجد تفسيرًا للآية لا يثبت عذاب القبر قبل يوم القيامة، فقال: إن العرض على النار لا يعني الدخول فيها، فكما أن الشهداء أرواحهم في جوف طيور خضر تسرح في الجنة - كذلك آل فرعون أرواحهم في أجواف طيور سود تغدو على جهنم وتروح عليها فذلك عرضها.

وأرى - والله أعلم - أن عذاب القبر رُبَّما يكون موقوتًا بمدة محددة ينتهي بعدها بدليل قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾[1]، فالآية تبين أن الناس يبعثون من مراقدهم فهم كانوا نيامًا، وكانوا مستريحين في نومتهم، لأنهم أبدوا الذعر والخوف، لأنهم أوقظوا من النوم، كما أرى أن عذاب القبر إذا كان يكون للأرواح لا للأجساد لأن الأجساد تبلى وتفنى وتصبح رميمًا فلا يجدي فيها عذاب على عكس ما سيحدث في عذاب الآخرة، والله أعلم.

---

(1) سورة «يس»، الآيتان (51، 52).

عذاب الآخرة:

وهو العذاب الأكبر، ومكانه جهنم، وقد أخبر الله في القرآن الكريم أن جهنم لها أبواب سبعة، وأن كل باب يختص بمجموعة من المعذبين بها، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[1]: أي أن جهنم ستكون مصير كل من أغواه الشيطان من أتباعه، وأن المراد بهذه الأبواب السبعة منازل لسبعة أنواع من الغاوين، تناسب في درجة عذابها ما اقترفوه من جرائم وآثام، وقد قسمها بعض المفسرين تقسيمًا نوعيًّا تابعًا للدين، فقال: باب لليهود، وباب للنصارى، وباب للمجوس، وباب للصائبين، وباب لمشركي العرب، وباب للمنافقين، وباب لعصاة المسلمين ممن يرجى له النجاة بالشفاعة كما تقدم.

وقبل أن أتناول عذاب جهنم بالتفصيل أتوقف قليلًا عند قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[2]، فهل تعنى هذه الآية أن جميع البشر مؤمنهم وكافرهم سيدخلون النار؟ ثم ينجى الله المتقين، كما جاء في الآية التالية للآية السابقة: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[3].

وقد تعددت آراء المفسرين حول هذه الآية، فقال كثير منهم: إن الجميع سيدخلون النار، فأما المتقى فتكون عليه بردًا وسلامًا، وأما الفاجر فيبقى فيها يعذب بنارها، وقال بعضهم: إن الخطاب موجه للكافرين: أي أن كل الكافرين سيدخلون النار، وذكروا أن هناك قراءة لهذه الآية بضمير الغائبين: «وإن منهم إلا واردها»: لا أحد من الكافرين سينجو من النار، ولكن هذا الرأي لا ينسجم مع النسق اللغوي والتعبيري لهذه الآية، فقد قال الله بعد ذلك: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾، فإن المعنى

---

(1) سورة الحجر، الآيتان (43، 44).

(2) سورة مريم، الآية (71).

(3) سورة مريم، الآية (72).

الذي يفيده هذا التعبير أن جماعة ممن سيردونها سينجون وهم المتقون، وجماعة سيبقون وهم الظالمون.

وهناك رأي ثالث يقول: إن المراد بالورود الوقوف حول النار، والمرور على الصراط، ورووا في ذلك قول عبد الله بن مسعود: «يرد الناس جميعًا الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل، حتى إن آخرهم مَرًّا رجل نوره على موضع إبهامَيْ قدميه يمر فينكفئ به الصراط، والصراط دَحْضٌ مَزَلَّة عليه حسك[1] كحسك القتاد حافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس.

عرض جهنم على الكافرين:

عندما يعد المحشر للحساب تستدعي جهنم لتكون أمام الكفار والمنافقين والفساق كنوع من زيادة تعذيبهم، لتزداد حسرتهم، ويتضاعف هلعهم، وقد وردت آيات في القرآن تذكر ذلك، فمنها قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾[2].

وكذلك ذكر الله عرض الكافرين على النار في آيتين من سورة الأحقاف:

الأولى: يبين الله لهم فيها أنهم أضاعوا حسناتهم في الحياة الدنيا، وأخذوا نصيبهم من طيباتها، فلم يعد لهم نصيب في ثواب الآخرة لكفرهم واستكبارهم في الأرض وفسقهم، فليس أمامهم إلا عذاب الخزي في الآخرة: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ الآية (20).

(١) شوك.

(2) سورة الكهف، الآيات (99 – 101).

والآية الأخرى: يبكتهم الله فيها على إنكارهم الحساب والعذاب فيسألهم حاملًا إياهم على الإقرار: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ فلا يجدون مناصًا من الإقرار بذلك فيأمرهم بدخول النار ليذوقوا عذابها: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الآية (34).

وقد سبق ذكر آيات بهذا المعنى كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾[2].

منظر رهيب يخلع القلوب، روى الإمام مسلم في «صحيحه» عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بجهنم يومئذ لها ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها».

ثم يساق الكافرون إلى جهنم ليلاقوا ألوانًا من العذاب سأذكرها بعد ذلك، وقد سبق ذكر قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾[3] عند الحديث عن خزنة جهنم.

أمنيات زائفة وحسرة وندم:

إن أعز أمنية لدى الكفار حينما يرون سوء موقفهم، ومصيرهم المحتوم، وهو الخلود في النار هي أن يعودوا إلى الدنيا، ولكن هيهات، وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تعبر عن هذه المشاعر، فعندما يقف الكفار على النار تَفْرِي الحسرة والندم أكبادهم ويتمنون لو عادوا إلى الحياة الدنيا، فلا يكذبوا بآيات ربهم، ويكونوا مؤمنين، ويعقب الله على هذه الأمنية بأنها لم تصدر إلا عندما ظهرت لهم الحقيقة التي

---

(1) سورة الشعراء، الآية (91).

(2) سورة الفجر الآيات (21 – 23).

(3) سورة الزمر، الآية (71).

كانوا يعلمونها في الدنيا، ولكن يحاولون إخفاءها عن أتباعهم كي تستمر سيطرتهم عليهم، ولكنهم الآن لا يستطيعون إخفاءها فهي مجسدة أمامهم، ولو أن هذه الأمنية تحققت لهم، وعادوا إلى الدنيا لفعلوا كل ما نهوا عنه من شرك وفسوق، فهم كاذبون في وعدهم هذا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[1].

ويخاطب الله الكفار، بعدما وزنت أعمالهم فخفت وأصبحوا من أهل النار التي أخذت تلفح وجوههم بشدة حرها، وعلت وجههم الكآبة، يخاطبهم مبكتًا وموبخًا فيسألهم مقررًا إياهم: ألم أرسل إليكم الآيات البينات مع رسلي فكذبتم بها!؟ فيجيبون متذللين مبينين سبب كفرهم، وهو غلبة الشقاوة والضلال عليهم، ثم يدعون الله أن يخرجهم من النار، وسيعملون صالحًا فإن عادوا إلى الكفر فقد ظلموا أنفسهم، واستحقوا أشد العذاب، ولكن الله يزجرهم، طالبًا منهم أن يبتعدوا صاغرين أذلاء، وألا يكلموه في شيء، ويذكرهم بما كانوا يفعلونه مع عباده المؤمنين في الدنيا، عندما كانوا يطلبون مغفرة الله ورحمته، من سخرية واستهزاء بهم، حتى شغلهم ذلك عن ذكر الله، والتفكير في آلائه ليؤمنوا به، ثم ذكر لهم - ليزيد في حسرتهم - أنه اليوم قد أنعم على هؤلاء العباد، فجزاهم بسبب صبرهم على ما لاقوه من أذى بسبب إيمانهم أنهم هم وحدهم الفائزون، قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم

---

(1) سورة الأنعام، الآيتان (27، 28).

﴿...مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۝١١٠ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[1].

ويضرعون إلى الله مرة أخرى وهم يرون العذاب أن يؤجل عذابهم ويعيدهم إلى الدنيا، كي يجيبوا دعاء الرسل لهم بالإيمان فيتبعوهم ويؤمنوا، فيسألهم الله مبكتًا: ألم تقسموا في الدنيا أنكم لن تفارقوها لأنه ليس ثمة دار بعدها!؟: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾[2].

وعندما يشتد عليهم العذاب في نار جهنم الذي يعلمون أنه لن يتوقف أبدًا – لأنهم لن يموتوا ولن يخفف عنهم العذاب – حينئذ يعلو صراخهم ويجأرون إلى الله أن يخرجهم من هذه النار ويعدونه أن يغيروا سلوكهم في الدنيا بعد عودتهم فيعملوا الأعمال الصالحة التي لم يكونوا يعملونها من قبل، فيرد الله عليهم – ساخرًا من طلبهم–: ألم تتح لكم الفرصة واسعة في أثناء عمركم الطويل الذي قضيتموه في الدنيا لتتذكروا وتتدبروا في أمر عبادتكم، وجاءتكم الرسل منذرة ولكنكم لم تبالوا!؟ فذوقوا عذاب النار، ولن تجدوا لكم أنصارًا لأنكم ظالمون، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[3].

ولا يكتفون بدعائهم بأنفسهم، فيلجأون إلى خزنة جهنم يرجونهم أن يدعوا الله ليخفف عنهم قليلًا من العذاب – ولو يومًا واحدًا – ولكن خزنة جهنم يقرّعونهم ويوبخونهم سائلين إياهم في صرامة واستنكار: ألم يرسل الله إليكم رسلاً، ومعهم

---

(1) سورة المؤمنون، الآيات (102 – 111).

(2) سورة إبراهيم، الآية (44).

(3) سورة فاطر، الآيتان (36، 37).

الأدلة الواضحة على ألوهيته وحده؟ فيجيبون – في استخذاء -: بلى، قد حدث هذا، فيقول لهم الخزنة: إذن فادعوا وحدكم، ولكن لن يستجيب الله دعاءكم لأنكم كفار، ودعاء الكفار لا قيمة له، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾[1].

وقد ذكرت قبل أنهم لجأوا إلى مالك خازن النار ليدعو ربه أن يقضي عليهم بالموت، حتى يستريحوا من هذا العذاب، ولكنه لم يعبأ بهم، بل أخبرهم أنهم لن يغادروا النار بسبب كرههم للحق، وكفرهم بالله، قال تعالى: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾[2].

تخاصم أهل النار:

لقد خلق الله الناس في الدنيا سادة ومسودين، أقوياء وضعفاء، زعماء وأتباعًا، وكان للسادة الأقوياء سيطرة شاملة على الأتباع والضعفاء، وكان الضعفاء – بحكم طبيعتهم – ينساقون وراء السادة، ويتبعون آراءهم مهما كانت خاطئة، وكان السادة – حفاظًا على مصالحهم الدنيوية – يقفون ضد الرسل، وضد مبادئ الإسلام الحق – مهما اختلفت الرسل – وضد عبادة الله الواحد، وينافحون عن العبادات الموروثة من الآباء والأجداد، فكان الأتباع يسيرون وراءهم في هذه العبادة طائعين أو مرغمين، ولكن يوم القيامة تبصر العيون العمى، وتنكشف الحقائق أمامها، فيحس الأتباع بمدى الخسار الذي لحق بهم باتِّباعهم هؤلاء السادة فيتخاصمون ويتلاعنون، ويقرر الله هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾[3]، وقد أوردتُ نماذج لهذا

---

(1) سورة غافر، الآيتان (49، 50).

(2) سورة الزخرف، الآيتان (77، 78).

(3) سورة «ص»، الآية (64).

الخصام مما ورد في القرآن الكريم وهم بين يدي الله، وسأذكر في هذا الفصل نماذج أخرى.

يأمر الله ملائكته أن يختاروا من كل شيعة وملة وأمة سادة الضلال وزعماء الغواية فيلقوا بهم أولًا إلى النار أمام أعين أتباعهم ومشايعيهم، ليعرفوا مدى ما كانوا فيه من ضلال باتباعهم إياهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾[1].

ثم يقذف بأتباعهم بعدهم إلى النار، مجموعة بعد مجموعة، وكلما دخلت مجموعة لعنت المجموعة السابقة لها لأنها كانت السبب في إضلالها، حتى إذا تلاحقوا فيها بدأ تبادل الاتهامات فيما بينهم والشكوى إلى الله، فالآخرون يشكون الأولين إلى الله أن هؤلاء السادة المتبوعين هم سبب إضلالهم، ويدعون الله أن يعطيهم نصيبًا مضاعفًا من العذاب، فيجيبهم الله بأن لكل فريق من الأتباع والمتبوعين نصيبًا مضاعفًا من العذاب على قدر كفره وإضلاله لغيره، ولكن لا أحد منهم يعلم ذلك.

ويرد السادة المتبوعون على هذا الاتهام بأن الآخِرين لا فضل لهم عليهم فهم لم يكفروا بسبب إغوائهم إياهم، بل كفروا لأن لديهم استعدادًا لذلك، فالجميع سواء في استحقاق العذاب، فيأمرهم الله توبيخًا وإذلالًا أن يذوقوا جميعًا العذاب بسبب كفرهم، قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[2].

ويستمر التخاصم في النار، فأحيانًا يتبادل الضعفاء والمستكبرون الحوار كما جاء

---

(1) سورة مريم، الآيتان (69، 70).

(2) سورة الأعراف، الآيات (38 - 39).

في سورة «ص» عندما علم السادة المتبوعون بوصول فوج من أتباعهم إلى النار، فيبادرون بشتمهم، ويعلنون عدم ترحيبهم بهم، فقد دخلوا النار مثلهم، فيرد عليهم الأتباع التحية المعكوسة بمثلها معلنين أن الذين يستحقون عدم الترحيب هم هؤلاء السادة السابقون، لأنهم السبب في إغوائهم وإضلالهم حتى دخلوا النار معهم، وبئس المصير مصيرهم، ثم يضرعون إلى ربهم أن يضاعف لهم العذاب: ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ الآيات (59 – 61).

ثم يلتفتون حولهم ليروا: هل المؤمنون من معاصريهم يعذبون مثلهم؟ فلا يجدونهم، فيتساءلون: لماذا لا يرون هؤلاء الرجال الذين كانوا يعتبرونهم من الأشرار، لأنهم انحرفوا عن دين آبائهم، وكانوا يتخذونهم مادة للسخرية، أين ذهبوا؟ هل انحرفت أبصارهم عنهم فهم لا يرونهم [فهم لا يتصورون أن يدخلوا النار – وهم السادة الكبراء– وهؤلاء المستضعفون لا يدخلونها]. ويختم الله الآيات التي تصور هذا الموقف بتقرير أن تخاصم أهل النار حق: ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ الآيتان (62، 63).

وكما جاء في سورة «غافر» فيذكر الله أن الجدل ينشب بين المستضعفين والمستكبرين، فيسأل المستضعفون في ضراعة ورجاء المستكبرين: هل في إمكانهم أن يمنعوا عنهم جزءًا من عذاب جهنم؟ فقد كانوا أتباعًا لهم لا يخالفون لهم أمرًا، وواجب المتبوع أن يدافع عن تابعه، فيردون عليهم في ذلة أن أمر الله قد نفذ في الجميع، فأصبحوا جميعًا متساوين في العذاب فلا سيد ولا مسود: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ الآيتان (47، 48).

والأسوأ من هذا أن يتبرأ المتبوعون من تابعيهم عندما يرون العذاب الشديد ويشعرون أن القوة والسلطان ليسا لأحد إلا لله، وتنقطع بينهم كل أسباب المودة، فلا يرى التابعون حيلة إلا تمنى العودة إلى الحياة الدنيا، فيأخذوا بثأرهم منهم، ويتبرءوا منهم، ولكن هيهات فلن يخرجوا من النار، وليس أمامهم إلا الحسرة والندم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1].

وأحيانًا يكون الحديث من طرف واحد، وهم المستضعفون التابعون، فهم يشعرون بمدى الخديعة التي وقعوا في حبائلها، فعندما يُبْرزُ الله الجحيم للذين ضلوا عن طريقه ويُسْألون: أين الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله؟ هل يمكنهم الآن أن ينصروهم، ويحموهم من العذاب؟ ثم أُلْقِيَ بالآلهة، وعبادها، وكل أتباع إبليس من شياطين الإنس والجن في النار، وقد ألقوا إلقاء فيه مهانة وتحقير، فوقعوا في جهنم محدثين صوتًا شديدًا بسبب اصطدام بعضهم ببعض وبالأصنام التي كانوا يعبدونها، حتى إذا استقروا في قعر جهنم أخذوا يتخاصمون ويتحاورون - وتُغْفِل الآيات حديث السادة المتبوعين فليس له قيمة في هذا السياق - ولكن تبرز الآيات حديث الأتباع فهم يعجبون مما كانوا فيه من ضلال، وكيف جاز في عقولهم أن يسووا هذه الأصنام وأشباهها بالله رب العالمين!؟ ولكن السبب هو هؤلاء المجرمون من السادة جنود إبليس، ويتلفتون حولهم فلا يجدون لهم شفيعًا ولا صديقًا حميمًا فلا يملكون إلا تمنى العودة ليكونوا من المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾

---

(١) سورة البقرة، الآيتان (165، 166).

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وعندما تقلب وجوههم في النار لتشوى من كل جانب يملأ الندم نفوسهم، ويتمنون لو أنهم أطاعوا الله والرسول، فآمنوا بالله وحده، واتبعوا نهج رسوله، ثم يتذكرون الذين كانوا سبب إغوائهم، وهم سادتهم وكبراؤهم، فيسألون الله أن يضاعف لهم العذاب في النار، وأن يصب عليهم أكبر اللعنات، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[2].

وفي سورة «فصلت» يسألون الله أن يمكنهم من الذين كانوا سبب إضلالهم جنًّا أو إنسًا ليدوسوهم بأقدامهم فيكونوا في أسفل الدركات: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ الآية (29).

ألوان العذاب في جهنم:

العذاب النفسي:

يتسم عذاب الكفار في جهنم بسمتين: عذاب النفس المخزي المهين، وعذاب الجسد الموجع الأليم، وقد وصف الله عذاب الكفار في الآخرة في آيات كثيرة بأنه عذاب مهين، منها قوله تعالى: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا

---

(1) سورة الشعراء، الآيات (91 – 102).

(2) سورة الأحزاب، الآيات (66 – 68).

(3) سورة البقرة، الآية (90).

﴿خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾[2].

كما وصف بالخزي في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾[5].

ويتمثل الخزي والمهانة في الطريقة التي يعامل بها الكفار قبل دخول النار وفي أثناء عذابهم فيها، فهم يسحبون مقيدين بالسلاسل، والأغلال في أعناقهم، إلى جهنم، ثم يلقون فيها ليكونوا حطبًا لها، ولا يكتفي بهذا، بل يسألون للتبكيت والتوبيخ: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله!؟ فيقولون في ذل: لقد غابوا عنا، والحقيقة أننا لم نكن نعبد شيئًا فما هذه الآلهة إلا أوهام زينت لنا، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[6].

---

(1) سورة النساء، الآية (14).

(2) سورة الأنعام، الآية (93).

(3) سورة التوبة، الآية (63).

(4) سورة النحل، الآية (27).

(5) سورة فصلت، الآية (16).

(6) سورة غافر، الآيات (70 – 74).

وفي آيات أخرى يذكر الله أن الكفار سيدفعون بعنف إلى نار جهنم، وتقول لهم الملائكة: انظروا.. هذه جهنم التي كنتم تكذبون بها، ها هي ذي أمام أعينكم فهل هي سحر كما كنتم تتهمون في الدنيا رسلكم، وتزعمون أن ما يخوفونكم به من عذاب جهنم ما هو إلا كذب وسحرا؟ إنكم ترونها الآن بأعينكم أم تراكم لا تبصرون!؟ ادخلوا هذه النار، إنها مأواكم الذي لن تفارقوه، وسواء لديكم أن تصبروا على العذاب أو لا تصبروا فلا مفر لكم وليس هذا إلا جزاء كفركم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

ومنظر آخر يصوره القرآن بلغت المهانة فيه أقصاها، والإذلال منتهاه، فهذا سيد في قومه، ذو سطوة وسلطان عليهم، لا يغلبه منهم غالب، ولكنه كان كافرً بالله، مستكبرًا في الأرض، فيأمر الله ملائكته بعد انتهاء الحساب أن تأخذه إلى جهنم أخذًا عنيفًا يستخدم فيه كل ألوان الإذلال والإهانة من دفع في الظهر، وسحب على الوجه، حتى يلقوه في وسط جهنم حيث يلقى العذاب الأليم الموجع، مثل أن يصبوا فوق رأسه عذاب النار، وأن يقولوا له تهكُّمًا وسخريه: ذق هذا العذاب الأليم أيها الرجل الذي كان عزيزًا كريمًا في الدنيا، ثم قال له ولأمثاله: إن هذا هو العذاب الذي كنتم تشككون في وقوعه، قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[2].

ولنتأمل هذه الألفاظ: [فَاعْتِلُوهُ -صُبُّوا - ذُقْ] فسنرى أنها أفادت بِجَرْسِها ومعناها وإيحائها الكثير، فالعَتْل: يعني الجذب العنيف، ويوحي باستخدام كل أنواع الشدة، والصب: يعني إلقاء الماء بغزارة، ويوحي بأن العذاب يحيط بالكافر من كل وجهة،

(1) سورة الطور، الآيات (13 - 16).

(2) سورة الدخان، الآيات (47- 49).

فهو يصب عليه الماء، وذق من تذوق الطعام وأكله، ويوحي استخدامه هنا بأن عذاب النار صار كالطعام للكافر، كما يوحي بالسخرية.

وكافر آخر يأمر الله ملائكته أن يأخذوه ويضعوا الأغلال في عنقه، وأن يدخلوه النار، وأن يقيدوه في سلسلة ضخمة طولها سبعون ذراعًا، وذلك لأنه كفر الدنيا بالله العظيم، ولم يكن يسعى في عمل خير كالحث على طعام المسكين، فاليوم يأتي وحيدًا لا نصير له، ولا صديقًا مخلصًا، يقول تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴾[1].

وفي النار يعامل هؤلاء الكفار بأشد المهانة فهم يجرون على وجوهم في النار، تلك الوجوه التي كانت مظهر كبريائهم وأنفتهم، ويقال لهم تقريعًا وتهكمًا: ذوقوا مس العذاب التي كتب عليكم: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾[2].

هذه نماذج من العذاب النفسي أوردها القرآن الكريم، فما بال العذاب الجسدي. إنه عذاب لا يمكن احتماله، ولا يمكن الفرار منه، إن عذاب الحريق في الدنيا مهما بلغت شدته فسينتهي بعد احتراق الجلد مكان الإحساس بالألم، فلا يشعر المحترق بشيء، ثم يدركه الموت فينتهي عذابه تمامًا، وأما في الآخرة فهو مختلف كلية، فالجلود كلما احترقت أُبْدِل الكافر بها جلودًا أخرى شديدة الإحساس بالألم، فيستمر إحساسهم بالعذاب: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾[3].

وأما الموت فقد حرموا منه أيضًا فلن يموتوا، بل سيظلون مخلدين في العذاب،

---

(1) سورة الحاقة، الآيات (30 -35).

(2) سورة القمر، الآية (48).

(3) ◂ سورة النساء، الآية (56).

ولن يخفف العذاب عنهم أبدًا: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾[1].

صور من العذاب الجسدي:

كثيرة هي الآيات التي تصور عذاب أهل النار من نار تحرقهم، وشراب يشوي وجوهم، وطعام يفري أمعاءهم، وسأذكر فيما يلي كثيرًا من هذه الآيات.

ففي سورة الأعراف يذكر الله أن فراش الكافرين من نار جهنم وأغطيتهم كذلك من نار جهنم، فهم يتقلبون بين النار، وهي تحيط بهم من كل جانب، لأنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم، وهذا جزاء الظالمين: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الآية (41).

وفي سورة إبراهيم (عليه السلام) صورتان للعذاب:

الأولى: لعذاب الجبار العنيد الذي استكبر على عبادة ربه، وعاند رسله فعذابه جهنم، وشرابه فيها من ماء صديد، وهو ما يسيل من جوف أهل مختلطًا بالقيح والدم، ويجبر على بلعه، ولا يستطيع أن يزدرده لمرارته وقبحه، ويحس في أثناء ذلك بكل ألوان الموت في جميع أعضائه ولكنه لا يموت، وينتظره بعد ذلك عذاب أشد ألمًا وقسوة: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ الآيات (15- 17).

والصورة الأخرى: يرسمها القرآن للمجرمين، فقد قيدوا في السلاسل مع أقرانهم من الغاوين، وارتدوا قمصانًا من قطران ليكون اشتعال النار فيها أسرع وأشد، وذلك جزاؤهم العادل فالله يجزي كل نفس على عملها من خير أو شر وهو سريع الحساب:

---

(1) سورة فاطر، الآية (36).

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ الآيات (49- 51).

وفي سورة الكهف يصور الله لنا النار التي تغشى الكافرين في جهنم بأنها كالسرادق المنصوب الذي يحيط بهم من كل جانب، وعندما يزداد التهابها عليهم يستغيثون طالبين شيئًا يبرد لهم من حرها فيقدم لهم شراب أشد حرًّا، فهو في شدة حره، كالزيت الذي غلي كثيرًا، فلا يجدون مناصًا من شربه، فإذا شربوه شوي وجوههم، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ الآية (29).

وفي سورة الحج يذكر الله أن الكفار فُصِّلَتْ لهم ثياب من نار يلبسوها فتحيط بهم النار من كل جانب، ويصب فوق رءوسهم الماء المغلي المتناهي الحرارة، فيذوب من شدته ما في بطونهم من شحم وغيره، كما تذوب منه جلودهم، وقد أعد الله لتعذيبهم مقامع من حديد: أي آلات من حديد لضربهم ويروى عن الرسول ﷺ أنه قال: « لو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان» فيحاولون محاولة اليائس الخروج من النار بسبب ما يصيبهم من غم، فتعيدهم الملائكة بهذه المقامع، وأجبروا على البقاء للعذاب في النار، قال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ الآيات (19- 22).

وفي سورة الفرقان يبين الله أن جهنم إذا رأت الكفار من بعيد، اشتد غيظها عليهم، فازداد غليانها، وارتفع صوت فورانها، ويسمع الكافرون ذلك فيملأ الرعب قلوبهم وعندما يُلْقَون فيها، وقد ضيق عليهم فيما أشدَّ الضيق، وقرنت أيديهم بأعناقهم

بالسلاسل والأغلال، فلا يملكون إلا أن يصيحوا داعينَ على أنفسهم بالويل والهلاك، فيقال لهم: أكثروا من هذا الدعاء فما أسوأ مصيركم، قال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ الآيات (11- 15).

وفي سورة الصافات- بعد أن يذكر الله ما ينعم به المؤمنون من لذائذ في الجنة- يسأل الكفار سؤال تهكم وسخريه: هل ما ذكر من لذائذ أهل الجنة خير أو شجر الزقوم!؟ ثم يذكر أن شجرة الزقوم تنبت في قعر جهنم، وثمرها بشع كأنه رؤوس الشياطين في بشاعتها وشناعتها، ومع ما يتميز به هذا الثمر من قبح وبشاعة ومرارة طعم ترى الكفار يقبلون عليه بشراهة لشدة جوعهم فيملئون منه بطونهم، ثم يكون شرابهم بعد ذلك ماء شديد الحرارة يختلط بالطعام الذي أكلوه فيكون معه مزيجًا، ثم إنهم يعودون بعد ذلك إلى الجحيم بعد أن تركوه لحظات لتناول طعامهم من شجرة الزقوم، ثم يبين الله سبب كفرهم الذي ساقهم إلى هذا المصير، وهو تقليد آبائهم الكافرين، قال تعالى: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ الآيات (62- 70).

فقد ذكر الله أن شجرة الزقوم فتنة للظالمين، وذلك أنهم تعجبوا من أن ينبت الشجر في النار، وقد علموا أن من طبع النار إحراق الشجر فازداد كفرهم فكانت بذلك فتنة لهم، وقد أشار الله إلى هذا المعنى في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾ الآية (60)، فالشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، وقد جعلها الله مع الرؤيا- وهي حديث الإسراء- فتنة للناس،

وقد شبهها الله برؤوس الشياطين للتبشيع، وقيل: رءوس الشياطين نوع من الحيات، ويقول المفسرون: هل هي شجرة واحدة في النار تمد فروعها إلى جميع دركات جهنم؟ أو أنها اسم جنس يشمل أشجارًا كثيرة؟ رأيان للعلماء.

وقد ذكر الله شجرة الزقوم أيضًا- في سورة الدخان- وبيَّن أنها طعام الكافر المملوء ذنوبًا، وأنها- في شدة حرارتها- كالزيت المغلي الشديد الحرارة، وهي تغلي في البطون كما يغلي الماء الشديد الحرارة، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ الآيات (43- 46).

كما ذكرها أيضًا في سورة الواقعة ضمن ألوان من العذاب سيعذب بها أصحاب الشمال وهم الكافرون «يسمى الله المؤمنين أصحاب اليمين وأصحاب الميمنة، ويسمى الكافرين أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة»، فَهوَاؤُهمْ شديد الحرارة، وماؤهم حار شديد الغليان، والظل الذي يلجئون إليه هو الظل الذي يحدثه الدخان الأسود المنبعث من النار، وهذا الظل لا يحقق شيئًا مما يحققه الظل الذي نعرفه، فهو حار لا برودة فيه، وهو كريه المنظر، قال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾[الواقعة: 44-41].

ثم يبين الله سبب هذا العذاب الأليم، لقد انغمسوا في الترف، وأصروا على شركهم وكفرهم، وأنكروا حدوث البعث لهم ولآبائهم الأولين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ الآيات (45- 48).

ويجيب الله على إنكارهم للبعث وتكذيبهم أخباره بأنهم سيبعثون هم وآباؤهم الأولون في موعد محدد معلوم لله سبحانه، ثم يكون عقاب هؤلاء المكذبين لرسلهم المنحرفين عن طريق الهداية أنهم يأكلون من شجر الزقوم، فيملئون منها بطونهم، ثم يكون شرابهم بعد ذلك الماء المغلي الشديد الحرارة، وهم يشربونه بنهم كما تشرب

الإبل الشديدة العطش، هذه الألوان من الطعام والشراب هي ضيافتهم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ الآيات (49– 56).

ويذكر الله لونًا آخر من ألون الشراب سيشربه أهل النار وهو الغساق، وهو الماء الشديد البرودة الذي لا تطاق برودته، وهو مع ذلك منتن أشد النتن، فقد ذكر الله الذين تجاوزوا الحد في تمردهم على الله وكفرهم به، ومآلهم شر مآل، وهو جهنم التي ستحيطهم من كل جانب فكأنها مهاد لهم يتقلبون عليه، وما أسوأ هذا المهاد، وسيذوقون الماء المغلي الذي تناهت حرارته، والماء البارد الذي بلغت الغاية برودته، وسيكون عذابهم بأشياء أخرى مضادة متباينة شبيهة بالحميم والغساق في تضادهما، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾[1].

وفي سورة الزمر تذكر الآيات أن الكافرين ستكون لهم ظلل يستظلون بها من حرارة جهنم، ولكن من أية مادة هذه الظلل؟ إنها من نار، فيكون كما يقول المثل (كالمستجير من الرمضاء[2] بالنار)، وهذه الظلل لا تكون من فوقهم فقط كما هو شأن الظلل، بل تكون من تحتهم أيضًا لتحاصرهم النار من كل جانب: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ الآية (16).

وفي آية أخرى يذكر صورة تبين شدة حرارة النار، فالكافر يحاول أن يحمي نفسه من النار فيتقيها بوجهه، أي أهم شيء يحاول الإنسان حمايته من النار، ولكن الكافر محاصر بالنار مرتبك لا يدري ما يفعل: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

(1) سورة «ص»، الآيات (55 -58).

(2) الرمل الشديد الحرارة.

وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ الآية (24)، فهم الذين جروا ذلك على أنفسهم بكفرهم.

وفي سورة محمد ﷺ - بعد أن يذكر الله ألوان النعيم التي يتمتع بها المؤمنون من أنهار من ماء عذب، وأنهار من لبن، وأنهار من خمر، وأنهار من عسل- يذكر في مقابل ذلك شراب الذين كتب عليهم الخلود في النار، فهو ليس إلا الماء المغلي المتناهي الحرارة يشربونه فيقطع أمعاءهم: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ الآية (15).

وفي سورة التحريم يدعو الله المؤمنين أن يفعلوا كل ما يجنبهم ويجنب أهليهم عذاب النار التي يشعلها ويزيد ضرامها ويكون وقودًا لها الناس المعذبون فيها والحجارة، ويصف المفسرون الحجارة بأنها حجارة سوداء من كبريت منتنة الرائحة شديدة الاشتعال، ثم يذكر الله أن النار يحرسها ملائكة غلاظ شداد لا يمكن أن يتخلوا عن حراستها أو يتهاونوا فيها لأنهم لا يعصون ما أمرهم الله في ذلك، ويفعلون كل ما يؤمرون به: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ الآية (6).

وفي سورة الملك يصور الله النار وهي تتلقى الكافرين، وقد علا شهيقها وزفيرها، وهي تفور، يقول المفسرون: تغلي بهم كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير، وقد بلغ بها الغيظ من هؤلاء الكفار والغضب عليهم حدًّا يجعلها تكاد ينفصل بعضها عن بعض، وقد وقف خزنتها يلتقون الأفواج التي يلقى بها إليهم، ويسألونهم موبخين: ألم تجئكم الرسل لتدعوكم إلى عبادة الله وحده؟ فيجيبون في ذله: بلى جاءتنا الرسل وأنذرونا ولكن كذبناهم، واتهمناهم بالكذب والضلال، ثم يملؤهم الندم والحسرة فيعترفون بعصيانهم، وفقدهم البصيرة والتمييز، وأنهم لو كان لديهم عقل ما كفروا بالله واستحقوا عذاب السعير هذا، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ

ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ الآيات (6– 10).

ويذكر الله في سورة «الحاقة» لونًا آخر من طعام أهل النار، فبعد أن يتحدث عن الذي يتلقى كتابه بشماله وما يعاينه من مشاعر، وما يلقاه من عذاب– كما مر ذكره– يذكر الله أن هذا الكافر ليس له في هذا اليوم صديق يناصره، وليس أمامه من طعام يأكله إلا الغسلين، الذي لا يأكله إلا العصاة المذنبون، يقول تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ الآيات (35– 37).

وقد تعددت آراء المفسرين في الغسلين، فقيل: هو شر طعام أهل النار، وقيل: هو شجرة في جهنم، وقيل: إنه الزقوم، وقيل: الدم والماء يسيل من لحومهم، وقيل: صديد أهل النار، والله أعلم.

وفي سورة المزمل يذكر الله أنه أعد لتعذيب الكافرين قيودًا يقيدون بها، ونارًا ملتهبة تحرقهم، وطعامًا ينشب في حلوقهم فلا يدخل أمعائهم، ولا يخرج من أفواههم وعذابًا موجعًا لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ الآيتان (12– 13).

وأما في سورة المرسلات فيذكر الله أنه يأمر الكفار زاجرًا وموبخًا لهم وساخرًا منهم أن ينطلقوا ليروا بأعينهم حقيقة ما كانوا يكذبون به، وهي جهنم التي أعدت لتعذيبهم، وأن ينطلقوا إلى ظل يستظلون به ولكنه لا ينفعهم شيئًا، فهو ظل ضخم له ثلاث شعب منبعث من نار جهنم، فليس فيه من مَعْنَى الظل شيء، فهو لا ينفع المستظل به، ولا يحميه من لهب النار، ذلك اللهب الذي يندفع شرره من نار جهنم كالقصور الضخمة، أو الجبال السفن الضخمة الصفراء الملتف بعضها ببعض[1]، قال

(1) وهو أحد تفسيرات الجمالة الصفر. انظر: «تفسير القرطبي» (ج 8 ص 7142) دار الغد.

تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ (29- 33).

قال المفسرون: إن القصر معناه الحصن، وقال ابن عباس (رضي الله عنهما): كنا نَعْمَدُ إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك فنرفعها للبناء فنسميها القصر، وقال عن الجمالة الصفر: إنها قطع من النحاس، وقيل: القصر المعروف، والجمالة: جمع جمل، فالشرر في ضخامته يشبه القصر أو الجمال.

وفي سورة النبأ يذكر الله جزاء الطغاة الكافرين بالله فسيجدون جهنم مرصودة لهم، لا يستحقها أحد غيرهم، وهي معدة للطغاة الكافرين، وهي شر موجع لهم، وسيمكثون فيها أحقابًا غير متناهية، فكلما انتهى حقب تبعه حقب آخر فهم خالدون فيها أبدًا- كما نصَّت على ذلك آيات أخرى- وهم في عذاب جهنم قد حرموا من أي هواء بارد، أو شراب مرطب، وليس لهم إلا الحميم- أي الماء الحار المتناهي في حرارته، والغساق: أي السائل البارد المتناهي في برودته، المنتن الرائحة وذلك جزاء مساوٍ لما اعتقدوه في الدنيا من إنكار للبعث والحساب، وتكذيب بآيات الله التي كانت تتلى عليهم، وقد أحصى الله عليهم أعمالهم كلها في كتاب، وسيقال لهم، ذوقوا ألوان العذاب، ولا ترجوا شيئًا إلا زيادة العذاب ومضاعفته، قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ الآيات (21- 30).

سئل رسول اللهﷺ عن أشد آية نزلت في عذاب الكفار؟ فأجاب إنها: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾. وهذا حق لأن الله توعدهم بأن كل عذاب يزيد عما قبله على أبد الآبدين.

وفي سورة الغاشية تذكر الآيات عذاب الكافرين، فتصف أولًا وجوههم بأنها وجوه

تعاني أشد مشاعر الذل لما وجدت نفسها في عذاب يوم القيامة، وقد عمل أصحابها كثيرًا في الدنيا وتعبوا في محاربة الحق، وتأييد الباطل، ثم تذكر الآيات عذابهم، فهم يدخلون نارًا حامية شديدة اللهب، وإذا شربوا فلا يجدون أمامهم إلا عين ماء قد تناهت حرارته حتى جاوز درجة الغليان كثيرًا، وإذا طعموا فلن يجدوا أمامهم إلا شر طعام، فهو الضريع نوع من النبات الشائك المر المذاق، وإذا أكلوه فلن يحقق لهم شيئًا مما يحققه الطعام، فلن يسمن آكله، ولن يذهب عنه ألم الجوع، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ الآيات (1– 7).

وهذه معظم الآيات التي تحدثت عن العذاب الجسدي في جهنم، وقد ذكرتُ آيات أُخرى في مواضع سابقة، فلم أر ضرورة لإعادتها.

❊ ❊ ❊

الجنَّة

الجنة دار المتقين، ومثوى المؤمنين الصالحين، والجنة في اللغة: الحديقة ذات الأشجار والثمار، وقد وردت بهذا المعنى في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾[2]، ولكنها إذا أطلقت صارت عَلَمًا على دار الجزاء في الآخرة، وأصبح يطلق على جنة الدنيا الاسم المصغر للجنة، فيقال: (الجُنَيْنة).

أسماء الجنة وصفتها:

ورد للجنة عدة أسماء في القرآن الكريم : (عدن، والفردوس، والمأوى، والنعيم، والخلد، وطوبى، ودار السلام)، وهذه الأسماء معظمها تأتي مضافة إلى جنة أو جنات، ولا تأتي مجردة إلا الفردوس، فقد أتت مضافة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾[3].

ومجردة من الإضافة كقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ

(1) سورة الكهف، الآيات (32 - 35).

(2) سورة القلم، الآية (17).

(3) سورة الكهف، الآية (107).

﴿ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1]، و﴿ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ كلمة أعجمية تعني «الجنة»، ودخلت العربية قبل نزول القرآن، وأصبحت من مفرداتها، وكذلك (طوبى ودار السلام) وَرَدَتَا مجردتين، وأكثر الأسماء ورودًا هي ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾، فقد وردت حوالي خمس عشرة مرة مضافة في الغالب إلى ﴿جَنَّٰتِ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[2]، وأحيانًا إلى الجنة كقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾[3]. يليها ﴿عَدْنٍ﴾ فقد وردت خمس مرات، وكلها مضافة إلى ﴿جَنَّٰتِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾[4]، و﴿عَدْنٍ﴾ في اللغة معناها: الإقامة، فالمراد جنة الإقامة الدائمة.

وأما ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ فقد جاءت في القرآن الكريم مضافة مرتين: أضيفت مرة إلى ﴿جَنَّٰتُ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[5]، وأضيفت مرة إلى ﴿جَنَّةُ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾[6]، و﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ معناه: المسكن والمستقر.

و﴿ٱلْخُلْدِ﴾ وردت مرة واحدة مضافة إلى ﴿جَنَّةُ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ

---

(1) سورة المؤمنون، الآيتان (10 – 11).

(2) سورة الحج، الآية (56).

(3) سورة الشعراء، الآية (85).

(4) سورة التوبة، الآية (72).

(5) سورة السجدة، الآية (19).

(6) سورة النجم، الآية (15).

خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1]، و﴿ ٱلْخُلْدِ ﴾ معناه: الخلود.

ومن أسمائها ﴿ طُوبَىٰ ﴾: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾[2].

و﴿ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ ﴾: ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[3]، لكن الاسم الغالب الذي ورد في القرآن الكريم مئات المرات هو: ﴿ جَنَّةُ ﴾ و﴿ جَنَّٰتُ ﴾ دون إضافة.

ومن الأوصاف التي تكاد تكون ملازمة للجنات هو وصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار كقوله تعالى ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾[5].

والمراد بقوله تعالى: ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أنها تحيط بها من كل جانب، وتجري من تحت أشجارها، وغرفها، وهذا الوصف هام للجنات، لأن في الماء حياة الأشجار والثمار وريًّا للنفوس، وجمالًا للمنظر، وقد وصفت بأن عرضها السموات والأرض في سورتين[6].

كما ورد وصف للجنة في سورة الرعد، بالإضافة إلى جريان الأنهار من تحتها، بأن

---

(1) سورة الفرقان، الآية (15).

(2) سورة الرعد، الآية (29).

(3) سورة الأنعام، الآية (127).

(4) سورة البقرة، الآية (25).

(5) سورة آل عمران، الآية (195)

(6) سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ الآية (133)، والأخرى سورة الحديد ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآية (21).

ثمارها دائمة لا تنقطع، وظلالها مستمرة لا تزول، فساكنها لا يجوع فيها ولا يَضْحَى، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾[1].

وفي سورة الزمر ذكر الله أن الجنة مكونة من عدة طبقات في كل طبقة غرف فوقها غرف مبنية، وأن الأنهار تجري من تحتها، قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ الآية (20).

وكذلك وصفها في سورة محمد ﷺ بأن فيها أنهارًا من ماء عذب، وأنهارًا من لبن طازج، وأنهارًا من خمر تلذ لشاربها، وأنهارًا من عسل مصفًّى، ولهم فيها كل ما يريدونه من ثمار وفواكه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الآية (15).

وهناك صفات أخرى كثيرة سأتناولها عند الحديث عن نعيم الجنة.

الطريق إلى الجنة:

من الذي سيحظى بهذه الجنة ونعيمها؟ لقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تجيب على هذا السؤال، والذي سيحظى بهذه الجنة- بوجه عام- هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فمعظم الآيات التي تتحدث عن أصحاب الجنة تذكر أنهم هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالإيمان والعمل الصالح شرطان أساسيان في دخول الجنة ولا يكاد يذكر الذين آمنوا إلا ويتبعه الذين عملوا الصالحات أو ما في معناه.

أما الإيمان فهو أساس قبول العمل الصالح، وإذا جاء العمل الصالح من غير مؤمن ذهب أدراج الرياح، ولم يغن عن صاحبه شيئًا، وقد شبه الله أعمال الكفار الصالحة مرة بالرماد الذي اشتدت به الرياح، فأطارته كل مطار، فكأنه لم يكن، قال تعالى:

(1) سورة الرعد، الآية (35).

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾[1].

وشبهه مرة بالسراب الذي يظنه الظمآن ماء حتى إذا جاء عنده لم يجد شيئًا، كذلك الكافر يظن عمله الصالح سينفعه في الآخرة، ولكنه عند الحساب لم يجد منه شيئًا ينفعه، وإنما وجد الله الذي جازاه على كفره، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[2].

أما الأعمال الصالحة فتشمل جميع العبادات من صلاة وصيام وصدقة وحج، وكل أنواع المعروف من بر الوالدين، والإحسان إلى الناس بالقول والفعل. وقد ذكر الله بعض الأعمال مفصلة، وذلك عندما دعا الناس إلى المسارعة إلى طلب المغفرة، وإلى ضمان دخول الجنة، فذكر أن الجنة أعدت للمتقين، ثم ذكر صفات لهؤلاء المتقين، فهم الذين ينفقون أموالهم تصدقًا على الفقراء والمساكين في حالتي الرخاء والشدة، وهم الذين يكتمون غضبهم فلا تنطلق ألسنتهم وأيدهم سبًّا وضربًا لمن أساء إليهم، وهم الذين يعفون عمن ظلمهم- وهم قادرون على الانتقام منه، وهم الذين يحسنون إلى الناس بالقول والفعل، وهم الذين لا يصورن على معصية، فإذا غلبتهم الطبيعة البشرية، وظلموا أنفسهم بارتكان الفاحشة، ذكروا الله وعقابه، فبادروا إلى الاستغفار، هؤلاء لهم جنة عرضها السموات والأرض، قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ

---

(1) سورة إبراهيم، الآية (18).

(2) سورة النور، الآية (39).

ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾[1].

والهجرة إلى الله والجهاد في سبيله ليس لهما جزاء إلا الجنة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾[2].

فأما الهجرة فقد ذهب وقتها، لأنه كانت لها ظروف خاصة، فالحاجة كانت ماسة لتجميع المسلمين في المدينة عاصمة الإسلام ليقاوموا كفار مكة، فلما تم فتح مكة وجاء نصر الله نهى الرسول ﷺ عن الهجرة من مكة إلى المدينة، لأن المدينتين أصبحتا سواء في وجود الإسلام بهما، فقال ﷺ «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»، ولكن أصبح للهجرة معنى آخر، وهو أن يهجر المسلم ما نهى الله عنه كما جاء في الحديث الشريف: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[3].

وأما الجهاد بالمعنى المعروف في أوائل الإسلام من قتال الكفار دفاعًا عن عقيدة الإسلام، وإعلاء لكلمة الله، فأصبح مستحيلًا لتعقيد النظام الدولي، وسيطرة أعداء الإسلام على مقاليد العالم، وتملكهم للقوى المادية الباطشة، والأسلحة النووية القادرة على إفناء العالم -إذا أراد الله لها ذلك- وضعف المسلمين، وهوان شأنهم من الأمم، مع كثرتهم العددية، ولكنهم كما قال الرسول ﷺ «غثاء كغثاء السبيل». لقد أصبح حكام المسلمين يخشون أن يتهموا بالإسلام من أعداء الإسلام فيحرصوا كل الحرص على أن ينأوا بأنفسهم عن كثير مما يدعو إليه الإسلام في مجالات الحياة العملية، والسياسية الدولية، فماذا يصنع المسلم الذي يريد أن يجاهد في سبيل الله؟

---

(1) سورة آل عمران، الآيات (133 - 136).

(2) سورة التوبة، الآيتان (20 - 21).

(3) رواه البخاري في «صحيحه» عن ابن عمر رضي الله عنهما.

لا يمكنه أن يفعل شيئًا وحده، ويكفيه أن يجاهد نفسه فيكفها عن محارم الله، ويتصدق بما يستطيع لمساعدة المؤسسات الإسلامية التي تسعى حقًّا في خير الإسلام ويبذل ما يستطيع لمساعدة المنكوبين في الأمم الإسلامية -وما أكثرهم!- وحينئذ يكون له أجر المجاهد في سبيل الله إذا كانت نيته صادقة.

ومن حسن حظ المسلمين أن الله قرن دائمًا الجهاد بالنفس بالجهاد بالمال كالآية السابقة، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾[1].

ومن الطرق الموصلة إلى الجنة أيضًا الوفاء بعهد الله، وهو أداء كل ما افترضه الله على المسلمين من واجبات، وعدم نقض الميثاق الذي أخذه الله على الناس جميعًا في عالم الذر في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ﴾[2]، فالمراد هو الإيمان بالله وحده بربوبيته، وصلة ما أمر الله به أن يوصل مثل صلة الرحم، والتعاون على البر والتقوى، وخشية الله وثمرتها أداء أوامره واجتناب نواهيه، والصبر على طاعة الله، ومقاومة الشهوات، والصبر على ما يبتلى الله به الإنسان، ويكون هذا الصبر هدفه الوحيد إرضاء الله، وإقامة الصلاة على وجهها الأكمل في أوقاتها، والإنفاق من رزق الله في السر والعلن، والمسارعة بفعل الحسنات عقب ارتكاب الخطايا، لأن الحسنة تذهب السيئة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[3].

فهذه الأمور عاقبة فاعلها الخلود في الجنة هو ومن صلح من أهله، وتَلَقِّي التحايا من الملائكة الذين يدخلون عليهم من كل باب يهنئونهم على صبرهم على طاعة

---

(١) سورة التوبة، الآية (١١١).

(2) سورة الأعراف، الآية (172).

(3) سورة هود، الآية (114).

الله، ومقاومة شهواتهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾[1].

وقد قدم القرآن عدة نماذج للمسلمين الذين يستحقون دخول الجنة، من هذه النماذج ما جاء في سورة «المؤمنون» حيث ذكر الله أن المؤمنين الجديرين بالفوز بالجنة هم المتصفون بالصفات التالية:

الصفة الأولى: الخشوع في الصلاة: فلا يشغلهم في موقفهم أمام الله شاغل من شواغل الدنيا، ولا يؤدونها بطريقة آلية لا روح فيها، ولو تذكر المؤمن ووضع دائمًا نصب عينيه أنه- في صلاته- إنما يقف بين يدي الله أعظم العظماء، وقارن ذلك بموقفه أمام عظيم من عظماء الدنيا، وكيف أنه يكون عندئذ في منتهى الخشوع لخشع قلبه بين يدي خالقه.

الصفة الثانية: الإعراض عن اللغو، والمراد باللغو: الباطل وما لا فائدة فيه من قول أو فعل.

الصفة الثالثة: تأدية الزكاة لمستحقيها في وقتها.

الصفة الرابعة: حفظ الفرج عن كل محرم من الرجال أو النساء، والمراد بالفرج عضو التناسل في الرجل أو المرأة، فإن الفرج يستعمل للرجل أيضًا. وقد أحل الله للرجال الاستمتاع بنوعين من النساء: الأزواج، والجواري اللاتي في ملك يمينه، وقد بطل الآن نظام الجواري فلم يعد يحل للرجل إلا زوجته فقط، وكذلك المرأة لا يحل لها إلا زوجها، ومن يتجاوز ذلك فقط تعدى حدود الله.

---

(1) سورة الرعد، الآيات (19 - 24).

الصفة الخامسة: أداء الأمانات إلى أهلها، والوفاء بالعهد، وقد اعتبر الرسول ﷺ خيانة الأمانة، والغدر بالعهود من علامات النفاق أو هما ثلثا النفاق، فقد قال ﷺ «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد أخلف، وإذا أوتمن خان»[1].

الصفة السادسة والأخيرة: المحافظة على أداء الصلاة في مواقيتها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾[2]، فلا يكفي في الصلاة الخشوع، بل لابد أيضًا من أدائها في وقتها، وقد قال رسول الله ﷺ حينما سئل: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال ﷺ: «الصلاة على وقتها»، وهكذا تتبين لنا أهمية الصلاة، فقد بدأ الله بها صفات مستحقي الجنة وختم بها.

هؤلاء المتصفون بالصفات السابقة من المؤمنين هم الذين يرثون جنة الفردوس ويخلدون فيها، والفردوس هي أعلى منازل الجنة، قال ﷺ «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن» رواه البخاري ومسلم.

يقول تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[3].

وأتوقف قليلاً عند كلمة ﴿ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾، لقد تكرر هذا المعنى في القرآن، فقال

---

(1) رواه البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) سورة النساء، الآية (103).

(3) سورة المؤمنون، الآيات (1 – 11).

تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

ومعلوم أن الميراث يكون من مالك سبق، فمن المالكون الذين ورث المؤمنون منهم الجنة، لعل الحديث التالي يفسر معنى هذا، فقد روى عن النبيﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإن مات الكافر ودخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾»[3]، وشرح ذلك أن الناس جميعًا لهم حق في دخول الجنة إذا آمنوا بالله وحده، وأخلصوا دينهم له، فإذا أشركوا به غيره، أو كفروا به فقد تخلوا عن حقهم في الجنة وأصبح ميراثاً لغيرهم.

وهذه صورة أخرى رسمها القرآن لمن يدخلون الجنة، وهم عباد الرحمن، وهذه التسمية توحي بالتكريم لهم، لأنهم أخلصوا أنفسهم للرحمن، ووقفوا عبادتهم عليه، وتتضمن هذه الصورة عدة صفات معظمها لم يذكر من قبل، وتتصل بالسلوك الإنساني في الحياة، فأول هذه الصفات التواضع، وذكر من سمات هذا التواضع طريقة مشيهم فهم يمشون بسكينة ووقار، لا اختيالاً وكبرًا مثل أولئك المغرورين الذين يمشون وكأن الأرض لا تسعهم، أو كأنها ما خلقت إلا لهم، وقد علموا أن هناك في الكون كائنات تفوقهم آلاف المرات ضخامة وعظمة، وصدق الله إذ ينهى عباده أن يختالون في مشيتهم: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[4]، فهو مهما كان قويًّا عظيمًا فلن يكون أقوى من الأرض، أو يساوي الجبال في طولها.

وثاني هذه الصفات: الحِلْم، والإعراض عن سباب السفهاء وشتائمهم لهم، بل

---

(1) سورة مريم، الآية (63).

(2) سورة الزخرف، الآية (72).

(3) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) سورة الإسراء، الآية (37).

يتلقون مثل هذا السباب بإعلان المسالمة لهم.

وصفة ثالثة تختص بعبادتهم لله، فهم يسهرون الليل مصلين لربهم، مسبحين له.

والصفة الرابعة: الخوف من عذاب الله، فهم - مهما أحسنوا عملهم - وأخلصوا لربهم يخشون عذابه، لأن عذاب الله كما قال تعالى: ﴿ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾[1]، فهم دائمو الدعاء إلى الله أن يصرف عنهم عذاب جهنم - لأن عذابها هو الخسران المبين، والإقامة فيها ساءت مصيرًا، قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[2].

والصفة الخامسة تتصل بتدبير المعيشة في الحياة، وهي الاقتصاد في الإنفاق، والعمل بمنهج الله المتمثل في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[3]، فخير الأمور الوسط.

ثم تأتي صفات ثلاث سلبية تنفي عن هؤلاء العباد ثلاثًا من الكبائر التي يستحق مرتكب أي واحدة منها الخلود في النار، وهي: تجنب الشرك بالله، وتجنب قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بأحد أمرين: القصاص أو الإفساد في الأرض، وتجنب الزنى، ثم يعقب الله ببيان الجزاء الأليم الْمُعَدّ لمرتكبي هذه الكبائر الثلاث، وهو مضاعفة العذاب لهم يوم القيامة، والخلود فيه أذلاء محتقرين، ولكن الله رحيم بعباده فيفتح أمام هؤلاء المذنبين باب توبته بشرط أن تكون التوبة مقترنة بالإيمان الصحيح، والعمل الصالح، ومن يتحقق له ذلك فإن الله سيبدل سيئاته السابقة حسنات، ثم يؤكد ذلك

(1) سورة المعارج، الآية (28).

(2) سورة الفرقان، الآيات (63 - 66).

(3) سورة الإسراء، الآية (29).

مرة أخرى فيذكر أن من يتب ويعمل صالحًا فإن الله يقبل توبته، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾[1].

ثم يذكر الله صفات أخرى لعباده الذين يستحقون الجنة، وهي عدم شهادة الزور، وعدم الكذب عمومًا، وعدم المشاركة في اللغو - وهو الباطل من قول وعمل مثل مجالس اللهو التي تلهى عن ذكر الله، وتغري بالفاحشة - وإذا اضطروا إلى المرور بها لم يتلبثوا عندها، بل مروا عليها مرورًا سريعًا، كما يمر الكرام على ما يخدش الكرامة.

ومن صفاتهم أيضًا: أنهم إذا ذكّروا بآيات الله خشعت لها قلوبهم، وتأثرت بها نفوسهم ولم يعاملوها كما يعاملها الكفار بالإعراض عنها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2].

ثم تأتي الصفة الخاتمة وهي: الدعاء إلى الله بالتوفيق في الحياة الزوجية وأن تكون ثمرتها أولادًا يشبون في طاعة الله فتقر بهم أعين والديهم، والدعاء بأن تكون كل أعمالهم منسجمة مع منهج الله، فيكونوا بذلك قدوة للمتقين، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ

(1) سورة الفرقان، الآيات (67 - 71).

(2) سورة الأنفال، الآية (2).

أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[1].

ثم يذكر الله جزاء هؤلاء العباد، وهو الغرفة - والمراد بها الجنة - لأن الجنة كما ذكرت مكونة من غرف بعضها فوق بعض - فهو ذكر الجزء وهو الغرفة وأراد به الكل وهو الجنة - وهذا لون من البلاغة يسميه البلاغيون - مجازًا مرسلًا علاقته الجزئية - وهذا الجزاء بسبب صبرهم على تحمل أعباء هذه الصفات، فهي تحتاج إلى صبر وعزم، وليس هذا وحده هو الجزاء، بل هناك التكريم والحفاوة، فهم يتلقون التحية والسلام من الملائكة، وهذا يزيدهم سرورًا، أضف إلى ذلك أنهم سيخلدون في هذه الجنة التي اتصفت بحسن المستقر وحسن المقام، يقول تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[2].

يتضح لنا من تأمل الصفات السابقة أنها جمعت بين العبادة، وبين السلوك الإنساني والاقتصادي والاجتماعي، وهنا ملاحظة هامة هي: أن الإنسان يستطيع أن يجعل سلوكه اليومي منذ أن يصحو إلى أن ينام عبادة ينال عليها حسن الثواب دون أن يكلفه ذلك مشقة، فما على الإنسان إلا أن يحسن عمله قدر ما يستطيع وألا يلحق الأذى بأحد، وأن يتوخى في سائر شئونه ألا يقارف حرامًا، وأن تكون نيته في كل ذلك إرضاء الله، إن سعى الإنسان لتحقيق متع دنيوية إذا قصد من ذلك غايات أخروية ينال عليها أعظم الثواب كهذا الذي يتزوج ليستمتع بزوجته، ولكنه يقصد أيضًا إرضاء الله بالعفة، وأن تلد له أولادًا يسأل الله أن يكونوا في طاعته لتقر بهم عينه، فهو قد استمتع بالزوجة، واستمتع بالبنين، ورضي الله عنه وأثابه لأنه جعل وراء ذلك غاية أسمى وهي رضا الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

---

(1) سورة الفرقان، الآيات (72 - 74).

(2) سورة الفرقان، الآيتان (75، 76).

ومن الطرق الموصلة إلى الجنة أيضًا الإيمان بالله والاستقامة، وقد ذكر الله ذلك في سورتين:

ففي السورة الأولى وهي «فصلت» ذكر أن الذين اعتقدوا أن الله ربهم وليس لهم رب غيره، ثم استقاموا على منهج الله لا يحيدون عنه، تتنزل عليهم الملائكة تطمئنهم أن الخوف لن يلحقهم، وكذلك الحزن في يوم الفزع الأكبر يوم القيامة، وتبشرهم بالجنة التي وعدوا بها من قبل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ الآية (30).

وفي سورة «الأحقاف» نفس المعنى مع البشرى من الله لا من الملائكة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ الآية (13).

وفي سورة «ق» جعل الله الجنة لكل من اتصف بالرجوع إلى الله في كل أحواله، والتوبة إليه كلما قارف ذنبًا نادمًا مستغفرًا، يحفظ العهد مع الله، ويتصف بخشية الله، والخوف من عذابه، وهو وحده لا يراه أحد [لأن هذا ليس فيه شبهة رياء كما قال رسول الله ﷺ: ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه]، وكل من اتصف بقلب سليم خال من كل ما يغضب الله، قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ الآيات (31 – 33).

وأما في سورة الذاريات فقد ورد أن الذين اتقوا الله يعيشون في جنات وحولهم الأنهار والعيون وذلك لأنهم فعلوا في الدنيا ما يستحقون به هذا النعيم، فقد كانوا يحسنون العمل، ويحسنون إلى الناس، وكانوا يسهرون معظم الليل يعبدون الله ويتهجدون، ويستغفرون الله في أوقات السحر، ويخرجون زكاة أموالهم فيعطونها إلى الفقراء، وهم يشعرون أنها حق لهم في أموالهم، وليست تفضلًا منهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾

ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ الآيات (15 – 19).

وقريب من هذا ما جاء في سورة المعارج، فقد ذكر الله أن الإنسان شديد الجزع إذا أصابه شر، وشديد البخل إذا جاءه خير، واستثنى من ذلك مجموعة من الناس لا يتصفون بهذه الصفات: فهم المصلون الذين يداومون على صلاتهم ولا يتركونها كسلًا أو تهاونًا، وهم المزكون الذين يخرجون زكاة أموالهم بقدرها المعلوم لمن يستحقها من الفقراء، وهم المؤمنون بالبعث والحساب، ولإيمانهم هذا فهم يخشون عذابه في هذا اليوم، فهو عذاب غير مأمون، لأن المرء لا يضمن هل أتى من الأعمال ما يهيئه للجنة، أو يعرضه للنار، فهم دائمًا في وَجَل يخشون أن يعذبوا لتقصير منهم، وهم الذين أعَفُّوا أنفسهم عن المحرمات من النساء، واكتفوا بما أحله الله لهم من زوجات وملك يمين، فلهم الاستمتاع بهن دون لوم من أحد، فإن تجاوزوا ذلك إلى المحرمات فقد تعدوا حدود الله، وهم المؤدون لأماناتهم الحافظون لعهودهم، وهم الحريصون على أداء الشهادة كما رأت أعينهم، وسمعت آذانهم دون زيادة أو نقص أو كتمان، وأخيرًا هم المحافظون على مواقيت الصلاة، وعلى أركانها وسننها فهؤلاء يدخلون الجنة مكرمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ الآيات (19 – 35).

ومعظم هذه الصفات وردت في سورة «المؤمنون»، وفي سورة «الذاريات» كما مر ذكره. وهذا من سمات الأسلوب القرآني الذي يستخدم التكرار لتوكيد المعنى

وترسيخه في ذهن المسلم، وأحيانًا يكرر الألفاظ نفسها كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ﴾ وما بعدها، وأحيانًا يكرر المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾، فقد ورد هذا المعنى في سورة «المؤمنون» في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ الآية (60).

وقوله تعالى في «الطور»: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ الآيات (25 – 27).

وقوله تعالى في سورة «الإنسان»: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴿٧﴾ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ الآيات (7 – 11).

❊ ❊ ❊

النعيم

أعد الله للمؤمنين من ألوان النعيم ما يملأ النفس بهجة وشوقًا للاستمتاع به، وقد عبر الله عن نعيم الجنة بعبارة عامة تشمل كل ألوان النعم التي يمكن أن يتصورها الإنسان، فقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[١].

كما عبَّر الرسول ﷺ عن هذا النعيم بأنه شيء غير مألوف، فلم تره الأعين، ولم تسمع بمثله الأُذن، ولم يخطر على قلب أي إنسان تصور مثله: «فيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، وهذا حق فكل ما ذكره الله من ألوان النعيم التي يعهدها البشر إنما قصد به تقريب صورة المتع إلى أذهانهم بتشبيهها بالمتع التي ألفوها. وأما الواقع فهو أعلى وأسمى، وقبل أن أتناول صنوف المتع التي تحفل بها الجنة، أذكر في عجالة سريعة:

نعيم القبر:

لقد تحدثت من قبل عن عذاب القبر وما ذكر فيه من آراء، فهل في القبر كذلك نعيم؟ لم يصرح القرآن بذكر ذلك، إلا في حالة واحدة هي حالة الشهيد، فقد صرح الله بأنه لم يمت، وأنه حيٌّ يرزق عند ربه، وإن كان لم يفصل نوع هذه الحياة وإنما بين أنهم يعرفون ما يجرى في الدنيا لإخوانهم المجاهدين، ويفرحون بما يحققون من نصر، فقد قال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ الآية (154).

---

(١) سورة زخرف، الآية (71).

وقال في سورة «آل عمران»: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآيات (169 – 171).

فقد بينت هذه الآيات بصراحة ووضوح أن الشهداء لم يقتلوا بل هم أحياء، وذكرت سورة «البقرة» أن هذه الحياة لا يشعر بها أحياء الدنيا، وزادت سورة «آل عمران» أن الشهداء يرزقون عند ربهم، وأنهم فرحون بالفضل الذي تفضل الله به عليهم، وأنهم يستبشرون بأخبار المجاهدين ممن لم يموتوا – وذلك في غزوة أُحد – فقد اطمأنوا إلى أنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، كما أنهم يستبشرون بنعمة الله وفضله عليهم وعلى إخوانهم المجاهدين، وأن أجر المؤمنين لن يضيع عند الله، ولكن ما نوع الحياة التي يحياها الشهداء؟ وما الرزق الذي يرزقونه؟ لم تبين الآيات ذلك، ولكن وردت أحاديث تبين ذلك، فقد ورد في «صحيح مسلم» أن رسول الله ﷺ قال: «إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلاعة، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا أي شيء نبغي، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يُتْركون من أن يُسْألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى – لما يرون من ثواب الشهادة – فيقول الرب جَلَّ جَلَاله: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون».

هذا عن الشهداء، فماذا عن غيرهم من الموتى؟ ورد أيضًا حديث شريف يعم المؤمنين جميعًا، فقد قال: «نسمة المؤمن – أي روحه – طائر يَعْلَق – أي يأكل – في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه»[1] والله أعلم.

(1) رواه الإمام أحمد، وانظر «تفسير ابن كثير» (ج 1 ص 197).

ألوان النعيم في الجنة:

والنعيم في الجنة – كالعذاب في النار – منه ما هو نفسي وما هو جسدي.

نعيم النفس:

ويتمثل النعيم النفسي في الجنة في عدة أمور منها: الشعور بالأمن، وزوال الخوف والحزن عن نفوسهم، وهذه أكبر منة؛ لأن الخائف أو الحزين لا يهنأ له بال مهما تعددت ألوان المتع أمامه، وامتلك خزائن الأرض، وقد وردت آيات كثيرة تعد المؤمنين الصالحين بألا خوف عليهم ولا هم يحزنون مثل قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾[3]، وهم يحمدون الله في الجنة أن أذهب عنهم الحزن، ووهبهم الجنة التي لا نصب فيها ولا تعب، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[4].

ومن ألوان النعيم النفسي: التحية والسلام التي يقابلون بها في كل مكان، فعندما تتوفاهم الملائكة، وهم في حال الصلاح والتقوى يحيونهم بالسلام، ويدعونهم إلى دخول الجنة لما امتازوا به من عمل صالح: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[5].

---

(1) سورة البقرة، الآية (112).

(2) سورة الأعراف، الآية (112).

(3) سورة فصلت، الآية (30).

(4) سورة فاطر، الآيتان (34، 35).

(5) سورة النحل، الآية (32).

وعندما يستقبلهم خزنة الجنة يحيونهم بالسلام ويثنون على أعمالهم الصالحة، ويبشرونهم بالخلود في الجنة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[1].

وعند دخولهم الجنة تقول لهم الملائكة: ادخلوها بسلام، ولن تجدوا فيها إلا الأمن والطمأنينة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾[2].

وبعد دخولهم الجنة تدخل عليهم الملائكة من جميع أبوابها يحيونهم بالسلام الذي استحقوه بصبرهم على معاناة العبادة، والبعد عن الشهوات: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[3].

وتحيتهم فيما بينهم السلام، يقول تعالى: ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾[4]، ويقول تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾[5]، وكل ما يسمعونه في الجنة هو قول: (السلام) المتكرر. وأما اللغو وأما الكلام الذي يسيئ فلا يسمعونه أبدًا، قال تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾[6].

وحتى أصحاب الأعراف الذين يقفون بين الجنة والنار، يطمعون في دخول الجنة يحيون أصحاب الجنة بالسلام: ﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ

(1) سورة الزمر، الآية (73).
(2) سورة الحجر، الآيتان (45، 46).
(3) سورة الرعد، الآيتان (23، 24).
(4) سورة إبراهيم، الآية (23).
(5) سورة الأحزاب، الآية (44).
(6) سورة الواقعة، الآيتان (25، 26).

ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾[1].

ومن ألوان النعيم النفسي أيضًا: الجلسات الأخوية التي تجمعهم بأحبائهم في الدنيا، وهي جلسات صافية لا يكدرها حسد أو تنافس كما كان يحدث في الدنيا، فقد نزع الله من صدورهم كل غل، وجلسوا على الأسرة متقابلين، والأنهار تجري من تحتهم، وهم يحمدون الله على ما هداهم إليه من إيمان به وعمل صالح، ويزيد في سرورهم أنهم يسمعون المنادى يناديهم أن هذه هي الجنة التي أورثتموها بسبب أعمالكم الصالحة، ويسعدهم أنه لن يصيبهم ألم أو تعب ولن يخرجوا من هذه الجنة، قال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[3].

ويدور الحديث ناعمًا حلوًا حول ذكريات الدنيا، فهذا واحد منهم يخبر أصحابه أنه كان له صاحب، وكان دائم السخرية منه لإيمانه بالبعث ويقول له: أأنت تصدق أننا نبعث بعد أن صرنا ترابًا وعظامًا، ونحاسب على أعمالنا في الدنيا!؟ ثم دعا أصحابه لينظروا في النار، ونظر فرأى صاحبه في وسط الجحيم، فخاطبه متهكمًا ومقرِّعًا: والله لقد كدت تهلكني، وتصحبنى معك في جهنم لولا ما أنعم الله به عليَّ من تثبيت على الإيمان، ثم ينظر بعضهم إلى بعض في سعادة وجذل قائلين: ألن نموت أبدًا إلا تلك الموتة التي متناها، ولن نعذب أبدًا؟ ما أروع هذا! إن هذا لأعظم الفوز، يقول تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ

---

(1) سورة الأعراف، الآية (46).

(2) سورة الأعراف، الآية (43).

(3) سورة الحجر، الآيتان (47، 48).

ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1].

وقد يسأل البعض: كيف يرى أهل الجنة من في النار، وهم بعيدون عنهم في جنات عرضها السموات والأرض؟ لكن الأمر أيسر من هذا، ففي قدرة الله أن يجعل منظر من في النار قريبًا من مرأى أهل الجنة، واضحًا أمام أعينهم أشد الوضوح، ولاسيما إذا تذكرنا مخترعاتنا الحديثة من أجهزة مرئية ومسموعة كالتلفزيون والهاتف أيعجز الله أن ينقل المنظر بتمامه أمام من يريد المشاهدة من أهل الجنة؟.

وهذه جماعة أخرى من الأصدقاء تستعيد ذكريات الماضي، ومدى ما كان يساورهم من خوف وإشفاق من أن يعذبهم الله على ما قصروا فيه من عمل، ولكنهم يسعدون حينما اطمأنوا إلى عفو الله عنهم، وتجنيبهم عذاب النار الشديدة الحرارة، ويذكرون أنهم كانوا دائمي الدعاء لله ليقيهم هذا العذاب حتى استجاب لهم لأنه مصدر الخير الرحيم بعباده، قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾[2].

ومن ألوان النعيم النفسي: تهكمهم على الكافرين، وما هم فيه من عذاب فيخبرونهم على سبيل السخرية والاستهزاء، بأن الله قد وعدهم دخول الجنة، وقد تحقق وعد الله لهم، فهل تحقق وعد الله لأصحاب النار بدخول النار؟ سؤال تهكم وسخرية، فيجيبون في استخذاء: بأن وعد الله قد تحقق لهم، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ

---

(1) سورة الصافات، الآيات (50 – 60).

(2) سورة الطور، الآيات (25 – 28).

أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

والمنظر الآتي الذي تصوره سورة المطففين يملأ نفوس أصحاب الجنة غبطة وبهجة، فهو منظر المجرمين الذين كانوا يسخرون في الدنيا من المؤمنين ويضحكون عليهم، وإذا مر بهم المؤمنون في مجالسهم أخذ يغمز بعضهم بعضًا سخرة من هؤلاء المؤمنين الضعاف العقول، وإذا عاد هؤلاء المجرمون إلى بيوتهم، عادوا مسرورين لما فعلوه بالمؤمنين، وكلما رأوا المؤمنين عجبوا من ضلالهم وحماقتهم بهذا الإيمان وهم ليسوا وكلاء عليهم، فما بال هؤلاء المجرمين الآن؟ إنهم ملقون في قعر جهنم ينظر إليهم المؤمنون - وهم جالسون على الأرائك - فيضحكون منهم، ويذكرون ماضيهم معهم فيزداد سرورهم، فهل لقي الكفار جزاء سخريتهم الدنيوية؟ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[2].

ويزيد من هذا السرور أن هؤلاء الكافرين المستكبرين يلجأون إليهم مستغيثين أن يمدوهم بالماء، أو بعض ما أنعم الله عليهم به، فيردون عليهم ساخرين أن الله منع هذا: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[3].

ومن ألوان السرور أن الله يرفع الذرية المؤمنة مع الآباء في نفس درجتهم من الجنة، وإن كانت درجتهم أقل، وذلك حتى يكتمل سرورهم، ولا ينقص ذلك من درجتهم

---

(1) سورة الأعراف، الآية (44).

(2) سورة المطففين، الآيات (29 - 36).

(3) سورة الأعراف، الآية (50).

شيئًا، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ ﴾[1].

ومن أعظم ألوان النعيم النفسي للمؤمن: رؤية الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴾[2]، فوجوه المؤمنين يوم القيامة بلغت الغاية من الحسن والإشراق، وهم ينظرون إلى ربهم فيجدون في هذا النظر أقصى درجات النعيم النفسي.

وقد اختلف علماء المسلمين حول مسألة رؤية الله فأنكرها بعض العلماء، لأن الله الذي ليس كمثله شيء لا يمكن الإحاطة به، ولا تحديد حيز له، فكيف يمكن للمؤمن أن يراه؟ ويُؤَوِّلون قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴾ بأن المراد إلى نعم ربها ناظرة، ويقول كثير من العلماء: إن الآية صريحة في أن النظر سيكون لله، فما حاجتنا إلى التأويل، ولو أراد الله النعم لصرح بها، ثم إن هناك أحاديث كثيرة حول هذا الموضوع بلغت حد التواتر، وكلها تفيد أن المؤمنين سيرون ربهم يوم القيامة، من هذه الأحاديث ما جاء في «الصحيحين» أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟ قالوا: لا. قال: إنكم سترون ربكم كذلك».

وجاء فيهما أيضًا أن رسول الله ﷺ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم ألا تُغْلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا».

---

(1) سورة الطور، الآية (21).

(2) سورة القيامة/ الآيتان (22، 23).

وقد فسر المفسرون الزيادة في قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[1] بأنها رؤية الله.

وأرى أن الرؤية إذا كانت تحدد شكلاً أو حجمًا أو تفاصيل فهي مستحيلة لأن الله ليس له أجزاء، ولا يتحيز في مكان، ولكني أعتقد –والله أعلم – أن الرؤية تكون نورًا يغشى المؤمن من كل جهة، ويُلْهم بأن هذا هو نور الله، فيمتلئ سرورًا وغبطة، ولعل في الحديثين ما يشير إلى ذلك، فقد كان المشبه به في الحديثين الشمس والقمر.

وإذا كان العلماء اختلفوا حول الرؤية، فإن هناك أمرًا مؤكدًا وهو رضوان الله عليهم الذي يسعد نفوسهم، ويبهج قلوبهم.

وقد ذكر الله في سورة «التوبة» أن رضوان الله على المؤمنين أكبر من أي نعيم جسدي يحصلون عليه، فقد وعد الله المؤمنين والمؤمنات بدخول جنات عدن، حيث يسكنون في مساكن طيبة، ولكن رضوان الله أكبر من كل ذلك، وذلك هو أعظم الفوز، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ الآية (72).

كما ذكر الله تعالى في جزاء المتقين أن لهم الجنات التي تحيطها الأنهار من كل جانب، والأزواج المطهرة، ورضوان الله، قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[2].

وهذا الرضا متبادل بين الله والمؤمنين فقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، فقد ورد

---

(1) سورة يونس، الآية (26).

(2) سورة آل عمران، الآية (15).

في سورة المجادلة أن الله يدخل المؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار، وأنه قد رضي عنهم ورضوا عنه، وأنهم حزب الله، وحزب الله هم المفلحون: ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ[1] ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الآية (22).

وفي سورة «البيِّنة» ذكر الله أن المؤمنين هم خير خلقه، وأن جزاءهم عنده جنات تجري من تحتها الأنهار، وأنه رضي عنهم ورضوا عنه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ الآيتان (7، 8).

وهناك النور الذي يسعى بين أيديهم وأيمانهم، فيميز المؤمنين عن غيرهم، ويضيء لهم الطريق إلى الجنة، ويحاول المنافقون أن يستفيدوا بهذا النور مع المؤمنين الذين يدَّعي المنافقون الآن أنهم كانوا معهم في الدنيا، ولكن المؤمنين يفندون هذا الادعاء، ثم يحال بين المؤمنين والمنافقين، فالأولون دخلوا الجنة والآخرون ألقوا في النار: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ[2] فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝١٣ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾[3].

وهذا النور كان الله قد وعد به المؤمنين من أصحاب محمد ﷺ إذا ما اتقوا الله، فائتمروا بما أمرهم الله، وانتهوا عما نهى الله عنه، وإذا ما آمنوا برسوله ﷺ، فوعدهم

---

(1) ومعنى رضا الناس عن ربهم اتباع دينه، وسلوك طريق الحق والخير.

(2) أي ارجعوا إلى الدنيا فآمنوا بالله ورسوله ﷺ ليكون لكم هذا النور، وهذا مستحيل.

(3) سورة الحديد، الآيات (12 - 14).

الله أن يضاعف لهم نصيبهم من رحمته، وأن يعطيهم نورًا يمشون به، وقد نفذوا ما أمروا به، فصدقهم الله وعده، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

صور من نعيم الجسد:

تحفل آيات القرآن الكريم بألوان من المباهج والمتع التي سيحظى بها المؤمنون في الجنة، وتتمثل كلها في الطعام والشراب، والأزواج المطهرة، وينبغي لنا أن نفهم أن هذه المباهج نماذج تقريبية لنعيم الجنة الذي لا يمكن إدراكه إلا بتذوقه والاستمتاع به كما ذكر في الحديث الذي سبق ذكره: «في ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، وقد يؤيد هذا الرأي ما جاء في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ الآية (25)، فهذه الآية فسرها بعض العلماء بأن ألوان الطعام التي تقدم لأصحاب الجنة تشبه في شكلها أطعمة الدنيا، فيقولون: لقد أكلنا هذا من قبل، ولكن عندما يذوقونه يتضح لهم أن التشابه في الشكل فقط.

وكذلك الأزواج فلم يذكرها الله إلا ووصفها بأنها مطهرة؛ إذن فهن لسن كزوجات الدنيا، والاستمتاع بهن ليس بلازم أن يكون مثل الاستمتاع بنساء الدنيا، بل لابد أن يكون أرقى وأروع، قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2].

ومن الجدير بالذكر أن القرآن لم يذكر في استمتاع أصحاب الجنة لفظ «النساء» بل ذكر الأزواج المطهرة، أو حور العين، ففي سورة «آل عمران» عندما ذكر حب أهل الدنيا للشهوات، وفصلها بأنها النساء والبنون والمال، ثم بين أن عند الله ما هو أفضل،

---

(1) سورة الحديد، الآية (28).

(2) سورة البقرة، الآية (25).

فلم يذكر النساء مقابلة بالنساء في الدنيا، بل ذكر الأزواج المطهرة، قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ الآية (15)، فهل يعني عدم ذكر النساء إبعاد الذهن عن التفكير في المتعة الجنسية المعروفة في الدنيا؟ أعتقد ذلك، وأعتقد أن المتعة المتحصلة من العلاقة بين الرجل والأزواج المطهرة أو حور العين، تفوق العلاقة الدنيوية بين الرجل والمرأة أضعافًا مضاعفة.

وسأعرض بعض الآيات التي وصفت المتع الأخروية من طعام وشراب وأزواج مطهرة، ففي سورة النساء يذكر الله أنه سيدخل المؤمنين الصالحين جنات تجري من تحتها الأنهار ويمتعهم بأزواج مطهرة، وبظل ظليل يجدون فيه الرَّوح والراحة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ الآية (57).

ويذكر الله في سورة الكهف ثياب أهل الجنة وحليهم، فبعد أن يذكر أن المؤمنين الصالحين جزاؤهم جنات عدن وأن الأنهار تجري من تحتهم يذكر أنهم يتحلون بأساور من ذهب، وأن ثيابهم خضر اللون، وأن نسيجها من سندس، وهو الحرير الرقيق، ومن إستبرق وهو الحرير الغليظ النسيج، وأنهم يجلسون جلسة المترفين المتكئين على الأرائك، وهي جلسة استرخاء تضاعف من سعادة المتكئين، فما أعظم ثوابهم! وما أحسن الجنة دار إقامة لهم! قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ الآيتان (13، 32).

وفي سورة العنكبوت يذكر الله مساكن أهل الجنة وأنها الغرف العالية التي تجرى من تحتها الأنهار، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ

غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ الآية (58).

وجدير بالذكر أن الأنهار ترد دائمًا جمعًا، وذلك لبيان كثرتها من حولهم، ولبيان أنها تشمل أنهار: الماء، واللبن، والعسل، والخمر التي ذكرت من قبل.

أما في سورة فاطر فيذكر الله حليهم وثيابهم. أما الحلي فهي أساور من ذهب وأنواع أخرى من اللؤلؤ، وأما الثياب فهي من الحرير: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ الآية (33).

زادت هذه الآية اللؤلؤ ولكن لم تبين أين سيكون موضعه منهم، وأجملت الكلام على الحرير، فلم تبين نوعه كما بينته في سورة الكهف.

وذكرت في سورة «يس» أن لهم شغلًا يشتغلون به، ويملؤهم سرورًا وبهجة ولكن لم تحدد طبيعة هذا الشغل، واكتفت بشعورهم نحوه، فلا شك أنه شغل لذيذ بهيج يختلف باختلاف أصحابه وما يحبون، ومما يضاعف سرورهم أن معهم أزواجهم، وقد يكون المراد بالأزواج النساء، وقد يكون المراد من يشاكل الرجل ويشابهه من الأصحاب، وفي الحالين صحبتهم تجلب السرور - وذكرت السورة أيضًا أماكن جلوسهم وطريقته، والطعام الذي يتناولونه، فأماكن جلوسهم في الظلال الوارفة التي تضفي على الجلسة جو المتعة والجمال، وفوق الأرائك، قد استرخوا في جلستهم مستريحين هانئين، تدور عليهم ألوان الفاكهة، وكل ما يرغبونه مما كان يصعب إحضاره في الدنيا، ثم يضاعف السرور والبهجة تسليم ربهم عليهم تحية لهم ورضوانًا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ الآيات (55 - 58).

وفي سورة الصافات مشهد رائع للمتعة والهناءة اللتين يحظى بهما أهل الجنة، فرزقهم من الله معلوم يعرفونه، فلا يصيبهم بشأنه قلق، ومن هذا الرزق الفواكه المتنوعة

التي تقدم لهم بطريقة فيها تكريمهم، وجناتهم هي جنات النعيم، وهم يجلسون فيها مع أصحابهم وأحبابهم على أسرَّة يقابل بعضها بعضًا كي يستمتعوا برؤية بعضهم وجوه بعض، ثم تطوف عليهم الخمر - وهي حاضرة إليهم من معين لا ينضب لأنه نهر جار، وهذه الخمر بيضاء اللون: أي صافية ليس فيها أي أثر للتغير، وهي تكسب شاربها لذة لا توصف، وقد خلت من مكدرات خمر الدنيا من صداع في الرأس أو وجع في البطن، أو ذهاب للعقل، وعندهم النساء الجميلات العفيفات الواسعات الأعين، المصونات عن كل أذى، قال تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ الآيات (40- 49).

ملاحظة: الكأس هي القدح المملوء خمرًا، فإذا لم يكن به خمر فلا يسمى: «كأسًا» وإنما يقال له: قدح.

ملاحظة أخرى: يتحدث القرآن دائمًا عن نعيم أهل الجنة في حال كونهم جماعات وذلك لأن وجود الجماعة المتآلفة المتحابة يضاعف من لذة المتع التي يستمتعون بها.

وفي سورة «ص» تتحدث الآيات عن جنات عدن التي هيئت لاستقبال المؤمنين، وأن أبوابها مفتحة ليدخلوها، وتتحدث أيضًا عن الفواكه الكثيرة التي يجدونها أمامهم وعن الخمر، ولكن تذكرها بصفة عامة وهي «الشراب» وربما يدخل معها أنواع أخرى من الشراب الذي يريدونه كاللبن والعسل والعصائر المتنوعة، كما تذكر أيضًا قاصرات الطرف - أي الأزواج العفيفات، ولكنها تصفهن بصفة مختلفة عما في سورة الصافات، فتصفهن بأنهن مساويات في العمر لرجالهم، وهذا يجعل الإيناس بهن أكثر، ثم يذكر الله أن هذا النعيم هو ما سيتحقق للمؤمنين يوم الحساب، ويطمئن المتمتعين بهذا النعيم أن نعيمهم لن ينفد أبدًا لأنه رزق الله الواسع، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ

لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ الآيات (49 – 54).

وفي سورة فصلت تتنزل الملائكة لتبشر المتقين بالجنة التي وعدوا بها ولا تذكر تفصيلات ما فيها من نعيم، وإنما تذكر وصفًا عامًّا شاملًا، ففي الجنة كل ما تشتهيه نفوسهم، وكل ما يطلبونه مهما صعب مناله، وهذه ضيافة الغفور الرحيم لهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ الآيات (30 – 32).

وفي سورة الزخرف يدعو الله عباده الذين آمنوا به وبآياته أن يدخلوا الجنة هم وأزواجهم ليجدوا فيها كل ألوان السرور والمتع؛ فالطعام يطاف عليهم به في أطباق من ذهب، والشراب في أكواب من ذهب، ولهم في هذه الجنة كل ما تشتهيه أنفسهم، أو تستلذه أعينهم، ويضاف إلى هذه المتع أنهم خالدون فيها لا يفارقونها أبدًا، وهذه الجنة صارت ميراثًا لهم لحسن عملهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الآيات (69 – 72).

وفي سورة الدخان يسيطر الأمن والسلام على المشهد، فالمتقون في دار إقامة آمنة، في جنات وأنهار، وقد لبسوا ثيابًا من سندس وإستبرق وجلسوا متقابلين وأزواجهم معهم من الحور العين – والحور هن النساء البيضاوات والعين واسعات الأعين في جمال – وهم في الجنة يطلبون أطايب الفاكهة من كل نوع وشكل، وقد أمنوا من

الخوف، الخوف من مثل آلام الدنيا وأحزانها، أو الموت، فهم لن يذوقوه بعد موتتهم الأولى، أو الخوف من عذاب الجحيم فقد وقاهم الله إياه، وهذا من فضل الله، وهذا هو الفوز العظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الآيات (51 – 57).

وفي سورة «الطور» تذكر الآيات الكثير من ألوان المتع التي يتمتع بها أصحاب الجنة فهم يجلسون متكئين على سرر صُفَّ بعضها أمام بعض فجلسوا متقابلين ومعهم أزواجهم من الحور العين، وهم سعداء بما آتاهم الله من نعم، وأزال عنهم العذاب الشديد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ الآيات (17– 20).

ومن المتع التي ذكرت في هذه الآيات الفاكهة مما تشتهيه أنفسهم، وكذلك اللحم وتبادل كئوس الخمر بين الصحاب، وهي خمر خلت من تأثير خمر الدنيا من القول الباطل والهذيان والتلفظ بالفاحشة أو الكذب، وهذه الأطايب يطوف بها عليهم صبية صغار كأنهم في جمالهم ونفاستهم لؤلؤ مصون عن كل عبث: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ الآيات (22 – 24).

وهذه الآيات أضافت جديداً من المتع وهو اللحم، وطواف الغلمان عليهم.

وفي سورة الرحمن ذكر الله جزاء من يخشى الله، ويقدره حق قدره فيطيعه في كل ما أمر، ويتجنب كل ما نهى عنه، فجزاء هذا المتقى جنتان وصف الله ما فيهما من نعيم، فهما حافلتان بالشجر ذي الأغصان الوارفة، وفيهما عَيْنَا مَاءٍ تجريان بين

أشجارها، ولا ينضب معينهما، وفي الجنتين من كل فاكهة صنفان مختلفا الشكل واللون والمذاق، ويجلس هذا المتقى مع أقرانه وأحبابه متكئين على فرش بطانتها من إستبرق وهو الحرير الغليظ النسج، فإذا كانت البطانات التي لا ترى من هذا الحرير الثمين فكيف تكون الظواهر، وقريب منهم وفي متناول أيديهم ثمار الجنة يقطفونها دون عناء.

ومن ألوان المتع في هاتين الجنتين قاصرات الطرف - أي النساء اللاتي قصرن أعينهن على أزواجهن: أي عفيفات - لم يمسسهن إنس أو جان قبل أن يَهْدَيْن إلى أزواجهن، وهن في حسنهن ونفاستهن يشبهن الجواهر الثمينة مثل الياقوت والمرجان، وهذا كله جزاء إحسان هؤلاء المتقين، والله لا يجازي الإحسان إلا بالإحسان.

قال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الآيات (46 - 59).

وهناك جنتان أخريان أقل من الجنتين السابقتين، وهذا يعني أن الجنتين السابقتين معدتان للمقربين إلى ربهم، والجنتان الأخريان معدتان لمن هم أدنى منهم في القرب من الله كما سيأتي ذكره عند الحديث عن نعيم سورة الواقعة، ومع ذلك فهاتان الجنتان فيهما من النعيم الكثير، فهما شديدتا الخضرة لكثرة أشجارهما وأغصانهما، وفيهما عينان تفوران بالماء، وفيهما أنواع الفاكهة وخصوصًا النخل وثمره، والرمان، وفيهما نساء صالحات حسان الوجوه، من حور العين اللائي لا يطلع عليهن أحد لأنهن مقيمات في خيام لا يراهن أحد، وهذه الخيام كما وصفها الرسول ﷺ «خيام من

لؤلؤ مجوف» وهؤلاء الحور لم يمسسهن أحد من الإنس أو الجن قبل أزواجهن، ويجلس هؤلاء المتقون متكئين على وسائد خضر، وطنافس ثخينة مزخرفة محلاة بأنواع الصور والزينة، قال تعالى: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ الآيات (62 – 78).

وتتميز المجموعة الأولى عن الثانية في أُمور: فالأولى وارفة الظلال كثيرة الأغصان، ولم يذكر ذلك في الثانية، وعينا الماء فيها دائمة الجريان، بينما في الثانية هما فوارتان، والماء الدائم الجريان أفضل من الماء الفوار، وقد ينقطع جريانه، والفاكهة في الأولى من كل صنف زوجان، ولكن في الثانية فاكهة خص منها البلح والرمان، والنساء في الأولى شبههن بالياقوت والمرجان، ولم يشبههن بشيء في الثانية، ومع ذلك فالمجموعة الثانية حوت من النعيم الشيء الكثير.

وقد فصلت سورة الواقعة الحديث عن ألوان النعيم في المجموعتين وبيَّنت أصحاب النعيم في كل مجموعة، فقد قسمت البشر جميعاً إلى ثلاث مجموعات: اثنتان مؤمنتان، يستحقان النعيم، وثالثة كافرة تستحق عذاب النار، وقد مضى الحديث عنها، فالمجموعة الأولى هم السابقون، السابقون إلى كل خير إلى الإيمان إلى الجهاد، إلى الإنفاق في سبيل الله.. وقد ذكر الله أنهم هم المقربون إليه، وأن مسكنهم جنات النعيم، وكثرتهم من الأولين الذين عاصروا الرسل، واتبعوا نهجهم، واقتدوا بسيرتهم، فهم كثرة لأن النموذج والمثل الأعلى أمامهم، وهم قلة ممن جاءوا بعد ذلك لغياب

القدوة، وكثرة المغريات على الشهوات.

ثم يصف الله حياتهم في الجنة، فهم يجلسون على أسرَّة منسوجة بقضبان الذهب مرصعة بالدر والياقوت، ويجلسون متكئين عليها، وهي جلسة المترفين الناعمين الذين لا يشغلهم أمر، ولا يقلقهم هَمٌّ، وقد جلس بعضهم في مقابلة بعض ليكتمل أنسهم، ويتم سرورهم وهم في هذه الجلسة الهانئة يطوف عليهم خدم الجنة – وهم صبية في نضارة الصبا، لا يموتون ولا يهرمون، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ فسيبقون دائمًا على هذه الحالة الجميلة المريحة للنفس، الممتعة للعين – بأكواب الماء وأباريق الشراب المتنوع، وكئوس الخمر التي لا ينضب معينها، وهذه الخمر قد خلت من أضرار خمر الدنيا، فلا تسبب صداعًا ولا ذهابًا للعقلِ، كما يطوفون بألوان من الفاكهة مما يحبون ويتخيرون، وبلحم الطير الذي تشتهيه أنفسهم.

ومن ألوان النعيم المتاحة أيضًا: الحور العين – أي النساء البيضاوات الجميلات الأعين – وهؤلاء الحور في صفائهن ونَفَاسَتِهِن يشبهن اللؤلؤ المصون بعيدًا عن الملمس والنظر، وهذا النعيم بسبب عملهم الصالح.

ومن ألوان النعيم في هذه الجنات أيضًا: أن أصحابها لا يسمعون فيها ألفاظ الهذر والفحش، فلا يسمعون إلا ما يملأ نفوسهم راحة وسلامًا، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ الآيات (10 – 26).

وأما المجموعة الثانية فهم أصحاب اليمين – وسماهم الله كذلك لأنهم يؤتون صحائفهم في أيمانهم كما مر ذكره – ويفخم الله من أمرهم بإعادة ذكرهم مسبوقًا

باستفهام التعظيم، ويذكر الله ألوان المتع التي يتمتعون بها فهم يعيشون بين أشجار النبق الذي قطع شوكه كي لا يؤذيهم، وبين أشجار الموز المتراكم قد نضد بالحمل بعضه فوق بعض، والظل فوقهم دائم لا تنسخه الشمس لأن الجنة ظل كلها لا شمس فيها، وقد روى أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها واقرءوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ الآية (30)»[1]، والماء من حولهم جار لا ينقطع يجري في غير أخدود، ويتمتعون بالفاكهة الكثيرة التي لا تنقطع عنهم، ولا يمنعون منها، وفُرُشُهم المعدة لنومهم عالية، ناعمة وَثِيرَة.

وأما نساؤهم[2] فقد خلقهن الله خلقًا آخر، فقد أنشأهن إنشاءً جديدًا يلائم الجنة ونعيمها، وكلهن أبكار لم يلمسهن أحد قبل أزواجهن، وهن دائمًا متحببات لأزواجهن، عاشقات لهم، مساويات لهم في السن، كل هذه المتع لأصحاب اليمين، وهم كثيرون من الأمم المتقدمة، وكثير أيضًا من الأمم المتأخرة: [لأن الأعمال التي استحقوا بها هذا النعيم لا تكلف الإنسان كثير جهد، ولا تجشمه كبير عناء، على عكس السابقين المقربين الذين يقومون الليل، ويصومون النهار، ويصبرون كثيرًا على مشقة العبادة].

يقول تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ الآيات (27 - 40).

وفي ختام السورة يلخص الله موقف الفئات الثلاث: فالمقربون يعيشون في راحة بال، ويرزقون رزقًا حسنًا، في جنات واسعة من النعيم، وأصحاب اليمين سلام لك يا

---

(1) رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) يقول بعض المفسرين: إن المراد بالفرش المرفوعة النساء.

انظر «تفسير القرطبي» (ج 7 ص 6567) دار الغد.

محمد ﷺ منهم، فهم في السعادة والنعيم، وأما الفئة الثالثة، فئة المكذبين الضالين، فضيافتهم الماء الحار المتناهي الحرارة، ودخول جهنم، يقول تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ الآيات (88– 94).

وفي سورة الحاقة يذكر الله بعض ما يلقاه من يتلقى كتابه بيمينه من متع، فهو يعيش عيشة يرضى عنها من يعيشها، في جنة عالية يشرف منها على الأنهار والأشجار والأزهار، وكل ثمار الأشجار قريبة منه يقطف منها ما يشاء دون أي عناء، وتقول لهم الملائكة تحية لهم وتكريمًا: كلوا واشربوا هانئين منعمين بسبب ما قدمتموه من عمل في الأيام الماضية: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ الآيات (19– 24).

وفي سورة الإنسان ألوان من نعيم أصحاب الجنة الذين وصفهم الله بالأبرار: أي القائمين على فعل كل ألوان الخير، فقد بين أن مما يتمتعون به شرب الخمر الممزوجة بالكافور، وهذا الكافور من عين خاصة يشرب بها عباد الله، وهم يستطيعون إنْباع هذا الماء في أي مكان ومتى يشاءون، وذلك لأنهم كانوا دائمًا يوفون بنذورهم التي يتقربون بها إلى الله، وكانوا يخافون عذابه يوم الحساب، وكانوا يقدمون الطعام لمن يحتاجه من يتيم أو مسكين أو أسير على حبهم لهذا الطعام، وكانوا يذكرون لمن يطعمونهم أنهم يفعلون ذلك لوجه الله لا طلبًا منهم أو شكر، فقد كانوا يخافون اليوم العابس المكفهر، يوم الحساب، فتقبل عملهم، ووقاهم شر ذلك اليوم، وأبدلهم بعبوسه نضارة وسرورًا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ

حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ﴾ الآيات (5– 10).

وتستمر الآيات في وصف النعيم الذي يتمتعون به، فقد جزاهم الله على صبرهم على معاناة العبادة، الجنة، وأحاطهم بالحرير من كل جهة، وهم يجلسون في الجنة جلسة هانئة متكئين على أرائكهم، لا يعانون حر الشمس ولا برد الزمهرير، وظلال الأشجار قريبة منهم تظلهم دائمًا، وثمارها سهلة قريبة في متناول أيديهم، ويطوف عليهم خدم الجنة من الغلمان المخلدين بأواني الطعام من الفضة الخالصة، وأكواب الشراب من الفضة أيضًا، ولكنها شفافة كالزجاج، ويشربون الخمر ممزوجة بالزنجبيل– وقد مر أنهم يشربونها ممزوجة بالكافور، ومعنى ذلك أنهم يشربونها بالكافور أحيانًا وأحيانًا بالزنجبيل– والزنجبيل يؤخذ من عين في الجنة تسمى ﴿سَلۡسَبِيلٗا﴾ .

والولدان الذين يطوفون بالأواني والأكواب والكئوس، ينتشرون في الجنة ويخدمون أصحابها، فيحسبهم الرائي لصباحة وجوههم، وجمال هيئتهم لؤلؤًا انتثر في طرقات الجنة، وحيثما يوجه المشاهد بصره لا يرى إلا النعيم، وفخامة المُلْك الكبير الذي يحوزه أصحاب الجنة، وثيابهم التي تعلو أجسادهم من سندس أخضر وإستبرق، ويتحلون بأساور من الفضة– وقد مر في آيات سابقة أنها أساور من ذهب، وكذلك الأواني، وربما يكون المراد أنهم يجمعون بين النوعين، وربما يكون المراد أن الذهب للمقربين، والفضة لمن هم أقل درجة، والله أعلم– وقد سقاهم ربهم عند دخولهم الجنة شرابًا طهرهم من جميع نوازع الشر والحسد والحقد، وهذا النعيم كله جزاء ما عملوا، ومكافأة لهم على السعي الذي سعوه في إرضاء الله فشكره الله لهم، قال تعالى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ﴿١٦﴾ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ

سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ الآيات (12– 22).

وفي سورة «المرسلات» يذكر الله بعض ما يتنعم به المتقون، فهم في ظلال الأشجار، ومن حولهم الأنهار والعيون، وتقدم لهم الفواكه من كل ما يشتهونه ويقال لهم تكريمًا وتحية: كلوا واشربوا هنيئا بسبب عملكم الصالح وإحسانكم، فإننا نجزي المحسنين هكذا: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ الآيات (41– 44).

وأما في سورة «النبأ» فيبين الله أن جزاء المتقين هو فوزهم بالجنة، واستمتاعهم بما فيها من نعيم يتمثل في الحدائق وأشجار العنب، والحسان اللاتي برزت نهودهن، ويتساوين في السن مع أزواجهن، وكئوس خمر مترعة، ولا يؤذي أسماعهم في الجنة كلام الهذر أو الشر أو الكذب. وهذا الجزاء هو عطاء من الله كاف وواف لهم: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ الآيات (31– 36).

وفي سورة «المطففين» يذكر الله أن كتاب الأبرار: أي صحيفة أعمالهم، يحفظها الله في أعلى درجة عنده، وهو كتاب سطرت فيه أعمالهم الصالحة، ويشهده المقربون من الملائكة، وجزاء هؤلاء الأبرار هو النعيم في الجنة يجلسون على الأرائك ينظرون إلى ما يحيط بهم من مباهج ووسائل الترف والنعيم، ومن يتأمل وجوههم يرى فيها النضارة والحسن الناتج عن التنعم والترف، وشرابهم من خمر مختوم ختم بالمسك فأعطاه أطيب رائحة، ومزج من عين تسمى تسنيمًا، وشرابها لا يدانيه في مذاقه شراب ولذلك خص به المقربون، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ

﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ الآيات (18- 28).

وأما سورة «الغاشية» فقد ذكرت أن المؤمنين يوم القيامة تكون وجوههم ناعمة لإحساسهم بالفرح والسرور لفوزهم بالجنة، وأن الله قد قبل سعيهم وهم في جنة عالية البنيان، رفيعة الأركان، لا يُسْمع فيها صوت صاخب، أو كلام فاحش، وفي هذه الجنة عين ماء دائمة الجريان، والسرر التي يجلس عليها المنعمون سرر عالية مرفوعة، وقد صفت حولهم الأكواب لشربهم، ووسائد صف بعضها إلى جانب بعض ليستندوا عليها، وطنافس فاخرة مبسوطة في أنحاء الجنة:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ الآيات (8- 16).

❊ ❊ ❊

أصحاب الأعراف

بعد الفراغ من الحديث عن أصحاب النار وأصحاب الجنة يبقى أمامنا الحديث عن أصحاب الأعراف، فقد تحدث القرآن عنهم، وسميت سورة من طوال سوره باسمهم، فما الأعراف؟ ومن أصحابها؟.

أما الأعراف فهي كما ذكر القرآن: حجاب بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، وفسر المفسرون الحجاب بالسور الذي ذكره القرآن في قوله تعالى:

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾[1].

وأما أصحاب الأعراف، فقد تعددت أقوال المفسرين فيهم، وإن كانت كلها قريبة المعنى، وخلاصتها أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فلم تبلغ بهم حسناتهم الحد الذي يتيح لهم دخول الجنة، ولم تبلغ بهم سيئاتهم الحد الذي يدخلهم النار، فتركوا واقفين على هذا السور حتى يفصل الله بين العباد، فيدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقضي بين أصحاب الأعراف.

وقد ذكر بعض العلماء مثلًا لذلك: شبابًا خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله وهم عاصون لآبائهم فقتلوا، فجهادهم يعطيهم الحق في دخول الجنة، كما وعد الله، ولكن عصيانهم آبائهم يعتبر عقوقًا، وعقوق الوالدين جزاؤه النار، فاستوى الأمران.

وقد ذكر القرآن أن هؤلاء الرجال - أصحاب الأعراف - يقفون على الأعراف فيعرفون أهل الجنة ببياض وجوههم وإشراقها، ويعرفون أهل النار بسواد وجوههم

---

(١) سورة الحديد، الآية (13).

وزرقتها، فينادون أصحاب الجنة محيين إياهم بقولهم: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾، وحينئذ يجيش في صدورهم الأمل أن يدخلوهم أيضًا الجنة التي لم يدخلوها بعد، فإذا اضطروا إلى النظر إلى أصحاب النار استغاثوا الله أن يجنبهم مصير هؤلاء الكافرين الظالمين، ثم ينادون أصحاب النار مبكتين وموبخين: ماذا نفعكم جمعكم وكثرتكم واستكباركم في الدنيا؟ انظروا إلى أصحاب الجنة وما هم فيه من نعيم، هل هؤلاء المنعمون السعداء هم من أقسمتم بأن الله لن يعبأ بهم يوم القيامة ولن يرحمهم؟ ثم يلتفتون إلى أهل الجنة قائلين: ادخلوا الجنة جزاء أعمالكم الصالحة في الدنيا: ﴿ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ الآيات (46– 49).

القَـــــدَر

وهو الركن السادس من أركان الإيمان كما جاء في الحديث الشريف عندما سأل جبريل (عليه السلام) رسول الله ﷺ عن الإيمان - بهدف تعليم المسلمين - فأجابه ﷺ بأن الإيمان: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره»، ولكن لم يرد في القرآن الكريم نص صريح يدعو إلى الإيمان بالقدر، ولكن وردت آيات كثيرة تقرر أن كل ما يحدث في الكون بمشيئة الله وإرادته، كما وردت آيات تؤكد مسئولية الإنسان عن عمله، والمسئولية مبنية على القدرة والاختيار، من أجل ذلك اختلف علماء المسلمين في أمر القدر اختلافًا كبيرًا سأذكره في إيجاز لكن بعد أن أذكر نماذج من الآيات التي استند إليها كل فريق لتأييد رأيه.

وقبل أن أتحدث عن الآيات الواردة في هذا الشأن أحب أن أشرح المراد بالقدر وكثيرًا ما يقرن بالقضاء، فيقال: القضاء والقدر، والمراد بهما إرجاع كل ما يحدث في الكون إلى علم الله وإرادته، وهذا حق، فعلم الله محيط بكل شيء كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى عددًا والتي تقرر أن علمه لا يخفى

(1) سورة البقرة، الآية (255).

(2) سورة طه، الآية (7).

(3) سورة الحديد، الآية (4).

عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وكذلك إرادة الله نافذة لا تحدها حدود، ولا يعترضها عائق: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[2].

لكن المشكلة التي حاول العلماء حلها هي: كيفية التوفيق بين العلم المحيط لله والإرادة النافذة له، وبين إرادة الإنسان وأفعاله، ولاسيما الأفعال المرتبطة بالإيمان والطاعات والمعاصي، فقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تذكر أن الهداية والإضلال من الله، وأن إيمان الناس مرتبط بمشيئة الله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3]، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[4]، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[5].

ومن الآيات التي تؤكد أن إيمان الناس مرتبط بمشيئة الله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[6]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[7]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[8]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[9]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن

(1) سورة يس، الآية (82).

(2) سورة هود، الآية (107).

(3) سورة إبراهيم، الآية (4).

(4) سورة النساء، الآية (88).

(5) سورة الكهف، الآية (107).

(6) سورة الأنعام، الآية (35).

(7) سورة الأنعام، الآية (107).

(8) سورة الأنعام، الآية (112).

(9) سورة هود، الآية (118).

فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾[1]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[2]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[3].

هل الإنسان مُسَيَّر؟

من أجل هذه الآيات - ومثلها كثير في القرآن - ذهبت طائفة من علماء المسلمين إلى أن الإنسان مجبر في كل أفعاله، فهو مجبر إذا آمن، ومجبر إذا كفر، ومجبر إذا أطاع، ومجبر إذا عصى، ولذلك سميت هذه الطائفة بالجبرية، وقد استدلوا أيضًا على رأيهم بالعقل أيضًا وبالمنطق، فإذا كان الله خالق الخلق جميعًا، وعلمه محيط بكل شيء، وإرادته نافذة في كل شيء، وله ملك السموات والأرض فلا يمكن أن يقع في ملكه إلا ما يريده، فالإنسان كريشة في مهب الريح، وإذا قيل لهم: فعلى رأيكم يكون تعذيب العاصين ظلمًا، والله حرم الظلم على نفسه، وقد وردت آيات كثيرة تؤكد ذلك منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾[4]، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[5]، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[6]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[7] وإذا قيل لهم ذلك تطاول بعضهم على الذات العلية وردد قول أحدهم:

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

مما يوحي بنسبة الظلم إلى الله تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

---

(1) سورة يونس، الآية (99).

(2) سورة السجدة، الآية (13).

(3) سورة الإنسان، الآية (30).

(4) سورة النساء، الآية (40).

(5) سورة النساء، الآية (49).

(6) سورة النحل، الآية (33).

(7) سورة فصلت، الآية (46).

لكن المتقين منهم يقولون: إن جميع المخلوقات من الإنس والجن عبيد الله، وللسيد أن يتصرف مع عبيده كيف يشاء، ولا يوصف بالظلم في أي تصرف يأتيه معهم.

لكن رأي هؤلاء الجبرية لا يقوم على دعائم متينة، فهم لم يفقهوا المراد من الآيات التي استشهدوا بها، وتغافلوا عن آيات أخرى تثبت نوعًا من حرية الإرادة للإنسان، وتؤكد أن إيمان الإنسان أو كفره، ينبع من إرادته، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ﴾[2].

وسفه الله قول من زعم من المشركين أن شركهم بالله وعبادتهم آلهة من دونه إنما هي بمشيئة الله، فرد عليهم بأن هذه هي طريقة الأولين في الجدال، وأنه ليس لديهم دليل على ما يقولون، ولو أن عندهم دليلًا فليأتوا به، قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[4].

كذلك وردت آيات في القرآن تذكر أن الله لا يمكن أن يأمر الناس بفعل الفواحش، وأنه لا يرضى لعباده أن يكفروا به - وإن كان في غنى عنهم - ولكنه يرضى منهم أن يشكروه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ

(1) سورة الكهف الآية، (29).

(2) سورة سبأ، الآية (50).

(3) سورة الأنعام، الآية (148).

(4) سورة النحل، الآية (35).

ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ ﴾[2]. فالذي لا يأمر بالفحشاء لا يدفع عباده إلى ارتكابها، والذي لا يرضى من عباده الكفر لا يوصلهم إليه.

وكثير من آيات القرآن توضح أن دخول المؤمن الجنة إنما هو جزاء لعمله الصالح، وإن دخول الكافر النار جزاء لعمله السَّيِّء، ولأعرض بعض هذه الآيات: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[3]، ﴿ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾[4]، ﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴾[5]، ﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴾[7]، ﴿ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴾[8]، ﴿ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾[9]، فهذه الآيات ومثلها كثير - تشهد بأن كل إنسان مجزي بعمل يعمله هو - ولا بد أن يكون مختارًا فيه - إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، ولا يصح في الأذهان أن يكون العمل كله من الله ويختلف الجزاء للعباد، فبعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار.

---

(1) سورة الأعراف، الآية (28).

(2) سورة الزمر، الآية (7).

(3) سورة الأحقاف، الآية (14).

(4) سورة المؤمنون، الآية (117).

(5) سورة الحاقة، الآية (24).

(6) سورة الطور، الآية (19).

(7) سورة سبأ، الآية (17).

(8) سورة النجم، الآية (13).

(9) سورة إبراهيم، الآية (51).

هل الإنسان مُخَيَّر؟

من أجل هذا نشأ مذهب آخر أقرب إلى العدل، وأرجح في العقل هو رأي طائفة من علماء الكلام [وهو العلم الذي يبحث في شئون العقيدة] وهم المعتزلة، فقالوا: إن العبد يخلق أفعاله الاختيارية بنفسه - بقدرة أودعها الله فيه - وتفصيل ذلك أن أفعال الإنسان نوعان: نوع لا دخل للإنسان فيه، وإنما تفرض عليه قبل أن يولد كطبيعته التي يكون عليها من ذكورة وأنوثة، وطول وقصر، وبياض أو سواد أو ما بينهما، وحسن أو قبح، وصحة أو مرض، وذكاء أو غباوة، وكالبيئة التي يجد نفسه فيها، والجنس الذي ينتمي إليه، والوالدين اللذين يكونان سبب ولادته، وقد أشار الله إلى شيء من ذلك في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[2]. فهذه الأفعال كلها وغيرها كثير مخلوقة لله وحده، ولا إرادة للعبد فيها، وإنما الإرادة كلها لله وحده، ولذلك لم يقع فيها تكليف لأنها غير مقدورة للإنسان: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[3]، كما قرر ذلك في أكثر من آية.

النوع الآخر: أفعال للإنسان فيها دخل وإرادة كالأكل والشرب والقيام والقعود والمشي، فهذه أفعال يفعلها الإنسان بإرادته، ولا يستطيع عاقل أن ينكر إرادة الإنسان فيها، فأنا آكل حينما أريد، وأتحرك كيف شئت، وأفعل ما أشاء من الأفعال التي في قدرتي. ومن الأفعال المقدورة للإنسان، والتي لإرادته دخل فيها الأمور الاعتقادية، فعندما يعرض على أي إنسان عاقل مذهب من المذاهب أو دين من الأديان لديه القدرة

---

(1) سورة آل عمران، الآية (6).

(2) سورة لقمان، الآية (34).

(3) سورة البقرة، الآية (286).

على التفكير فيه، وتمييز الحسن فيه من القبيح، وفي قدرته الإيمان به أو رفضه، وله في ذلك كل الاختيار.

ولكن - قبل أن أستمر في هذا الحديث - أبدي ملاحظة هامة: وهو أن الإنسان أحيانًا يخطط لفعل أمر من الأمور فيحسن التخطيط، ويعد له كل عدة ممكنة، ويعمل حسابًا لكل صغيرة وكبيرة، ويكون من المؤكد أن هذا الأمر سيتم على حسب ما يريد صاحبه، ولكن يفاجأ بعقبة لم تكن في الحسبان، وهي خارجة تمامًا عن إرادته، وبعيدة عن تخطيطه، فيفشل العمل، فما معنى ذلك؟ معناه: أن الإنسان ليس مطلق الإرادة في الكون، وأن هناك إرادة عليا تسيطر على كل الإرادات، وقد تتدخل أحيانًا فتبطل إرادة الإنسان لحكمة يعلمها صاحب الإرادة العليا، وهو الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ولكن في هذه الحالة لا يلام الإنسان على عدم إتمام العمل، ويتحول الفعل إلى نوع من الأفعال التي ليست في قدرة الإنسان، فلا يحاسب الفاعل على إخفاقه فيها إن كانت من أمور الإيمان، كمن سمع برسالة الرسول ﷺ فعزم على أن يذهب إليه ليسمع منه، ويؤمن به، فمات في الطريق، أو حبسه حابس لم يمكنه من الوصول إلى غايته، فهذا يحاسب على نيته، ولا يعاقب على تقصير. وقد حدثنا القرآن عن المهاجر الذي يخرج من مكة قاصدًا المدينة ليعلن إسلامه فمات في الطريق، فهذا قد ثبت أجره على الله، وغفرت ذنوب كفره السابقة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

كما حدثنا عن أن الذي يُكْرَه على إعلان الكفر، فيضطر إلى إعلانه، لكن قلبه مطمئن بالإيمان فهذا لا ذنب عليه، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ

(1) سورة النساء، الآية (100).

مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1]، فهذه الآية تثبت الإرادة للإنسان، لأنها تناولت شخصين أحدهما كفر راضيًا مختارًا، والآخر وقعت عليه إرادة مكرهة فكفر بلسانه، فلو كان كفر الثاني بإرادته لاسْتَوَي الشخصان في استحقاق العذاب أو المغفرة.

خلاصة القول إن للإنسان إرادة حرة تمكنه من التمييز بين الإيمان والكفر، وبين الخير والشر فيختار أحدهما ويفعله، ولكن هذا لا ينفي إرادة الله العليا التي تتدخل لتيسير ما أراده الإنسان لنفسه، وعونه على السير في الطريق الذي اختاره، وقد وردت نصوص قرآنية توضح هذا، من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾[2]، فهذه الآيات تبين بكل جلاء أن الإنسان يختار طريقه أولًا فيساعده الله بعد ذلك على السير فيه، فالذي اختار الإنفاق في سبيل الله، وتقوى الله والإيمان به سيسهل الله السير في هذا الطريق حتى يبلغ به الجنة، والذي اختار طريق الشح والبخل عن إعطاء حق الله في ماله، وشعر بغناه وعدم حاجته إلى خالقه، وكذب بالدين الحق، فسيساعده الله في اجتياز هذا الطريق حتى يبلغ به النار.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾[3]، فالإنسان يختار أولاً ثم يأتي عون الله له فيما اختاره.

ولكن كيف نوفق بين هذا الرأي وبين ما أعلنه الله من أنه لو شاء الله لآمن من في الأرض جميعًا إلى مثل ذلك مما أوضحته الآيات السابقة؟ من الممكن أن نقول: إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أنه كان في قدرته أن يخلق جنسًا من البشر ليس

---

(1) سورة النحل، الآية (106).

(2) سورة الليل، الآيات (5 – 10).

(3) سورة مريم، الآيتان (75، 76).

في قدرته الكفر أو العصيان كالملائكة، فهم كما أخبر الله عنهم: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1]، ولكنه لم يشأ ذلك وآثر أن يخلق جنسًا في إمكانه الطاعة والمعصية لأن الله ركب فيه إرادة حرة قادرة على الاختيار، ويؤيد هذا الرأي ما جاء في الحديث الشريف من أن الناس لو لم يذنبوا ويتوبوا لأهلكهم الله وأتى بآخرين يذنبون ثم يتوبون فيتوب الله عليهم.

وقد يسأل سائل: كيف يكون للإنسان إرادة مع إرادة الله؟ وكيف تعمل إرادة الإنسان مع علم الله بمصيره إلى الجنة أو إلى النار؟ أقول: إن إرادة الإنسان لا تتعارض مع إرادة الله، لأن إرادة الله هي العليا، وهي المهيمنة على كل أمور البشر، ولكن الله بإرادته شاء أن تكون للإنسان إرادة في أفعاله الاختيارية، وهو بهذه الإرادة التي خلقها الله له يختار طريق الإيمان أو طريق الكفر، ولا يحسب حينئذ خارجًا على إرادة الله، كما لا يحسب مجبرًا على فعله، ويحاسب على عمله الصالح أو السيئ، ومثل ذلك ما نعلمه عن شئون الحكم فرئيس الدولة يعطي كل وَزِير من وزرائه صلاحيات محددة، يتصرف من خلالها كما يشاء، وقد يحسن التصرف فيثني عليه رئيس الدولة، ويبقيه في منصبه، وقد يسيئ التصرف فيغضب عليه رئيس الدولة، ويطرده من منصبه، ولا يقال: إن رئيس الدولة ظلمه، أو أنه كان مجبرًا على ما فعل.

وأما علم الله فلا شك أنه محيط بكل شيء، وكل عمل ابن آدم من خير أو شر مسطور في كتاب كما حكي الله عن حوار فرعون وموسى عندما سأله فرعون: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾[2].

فهل يعني هذا أن الإنسان محكوم عليه بمصيره، وأن إرادته تلغى، حتى ينفذ ما قد علمه الله عنه من كفر أو إيمان؟ أقول: لا دخل لعلم الله في إرادة الإنسان، لأن إحاطة

---

(١) سورة التحريم، الآية (6).

(2) سورة طه، الآيتان (51 -52).

علم الله بكل شيء لا تعني إجبار الإنسان على فعله، وإنما العلم يكشف ما سيصير إليه الإنسان بسبب أفعاله التي أتاها حرًّا مختارًا، والأمثلة على ذلك في حياتنا كثيرة، فالمعلم الذي يحكم على تلميذ بالإخفاق في الامتحان، ويعلن ذلك لعلمه بغباوته، أو إهماله، فهل إذا أخفق هذا التلميذ يكون ذلك بسبب رأي الأستاذ فيه؟ والوارث الذي ينفق ما ورثه بسفه وتبذير إذا قال أحد الناس عنه: إنه لا محالة مفلس بعد وقت قليل، فهو يعتبر صاحب هذا الرأي مسئولًا عن إفلاسه؟ والدولة المتخلفة الضعيفة التي يتحكم فيها طغمة من الخونة واللصوص إذا قيل: إنها ستنهار، ويهزمها أعداؤها، فهل يتحمل أحد تبعة ذلك غير حكامها الفاسدين؟ فالعلم يكشف فقط، ولا يتدخل في مصير أحد.

ويختلف علم الله سبحانه وتعالى عن علم البشر أنه محيط بكل شيء، وأنه يكشف الماضي والحاضر والمستقبل.

وخاتمة القول: إن واجب المسلم أن يؤمن بالله وحده هو المتصرف في الكون، وأن أمره نافذ في خلقه، وإرادته فوق إرادتهم، وأن ما يصيب الإنسان من خير وشر قد علمه الله، وأن الإنسان يأتي أفعاله الاختيارية بإرادة خلقها الله فيه، وقد تقتضي حكمة الله أحيانًا أن يسلب الإنسان قدرته على بعض أفعالة بعوائق يضعها في طريقه وعندئذ لا يحاسبه على تقصيره فيها وهذا هو معنى الإيمان بالقدر خيره وشره، والله أعلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

المراجع

1. تفسير الكشاف: للزمخشري.
2. تفسير القرطبي: للقرطبي.
3. تفسير ابن كثير: للحافظ ابن كثير.
4. تفسير الجلالين: لجلال الدين السيوطي، وجلال الدين المحلى.
5. صفوة التفاسير: لمحمد علي الصابوني.
6. صحيح البخاري: للبخاري.
7. صحيح مسلم: لمسلم.
8. المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، لأبي حامد الغزالي.
9. إظهار الحق: لرحمة الله الهندي.


الحمد لله